المركيز دو ساد

جوستين

ترجمة: محمد عيد ابراهيم

رواية



جوستين

المركيز دو ساد

رواية

ترجمة: محمد عيد إبراهيم

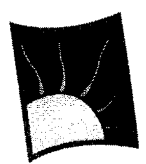


هذه ترجمة كاملة لرواية
Justine
By: Marquis De Sade
New York, 1969

جوستين

ترجمة: محمد عيد إبراهيم

الطبعة الأولى ٢٠٠٦



إشراقات للنشر والتوزيع - طرابلس - شارع الجمهورية

المحتويات

كتاب مريع، يستحثّ العقل

هذه واحدة من أكبر الروايات الممنوعة على مدار الأزمنة. يُعتبر مؤلفها، المركيز دو ساد، (دوناتيه ألفونس فرانسوا)، من أكثر الكتّاب الملعونين في التاريخ، حيث يوسم بأنه منحرف، إباحي، منتهك للفضيلة، ومجنون. وإن نشر رواية «جوستين» في طبعة كاملة متاحة للجميع لهو خطوة أخرى نحو الحرية الفكرية للقارئ؛ كان ساد فيلسوفاً، غريباً نوعاً، فاحشاً نوعاً. لكن يستحق أن نسمعه ـ وحانت فرصته أخيراً.

من هو الغريب الذي بقي اسمه بمصطلح «الساديّة»؟ والساديّة انحراف جنسيّ تُستقَى فيه اللذة الحسيّة من الألم المبتلَى، أما المركيز دو ساد فأول من وجد في العنف مادة أدبية. كتب يوان بلوخ أخصائي علم الجنس الأوروبيّ «كان ضليعاً في الرذيلة. فهو يحتشد واصفاً بدقّة مخلصة من تجاربه ومراقباته كلّ الأمور الشاذّة المصاحبة للحياة الجنسيّة في زمنه بأعماله الرئيسة. وأعماله ذات قيمة ثقافية تاريخية لا جدال فيها، حيث تطلعنا على سمات وصور ومفارقات الحياة الجنسيّة في فرنسا فترتَي الحكم القديم والثورة العظمى».

«جوستين» كابوس طويل، ينطلق بمشاهد عنف وتعذيب وانحراف مغاير. لكن هناك ما يشبه الحلم في هذا الكتاب؛ يبدو أن المركيز المشؤوم قد ترجم تقريباً خيالاته المحمومة عن الألم إلى ضرب من الأدب. هو كتاب مريب، كتاب مثير يستحثّ العقل، كما أنه كتاب

مريع. لم يقرأه أحد وعاد كما كان، لأن «جوستين»، ككلّ أدب عظيم، تصبح جزءاً من تجربة القارئ، وإن صدف وقرأها فسيملكه فَهمٌ أشدّ مضاء لقوى الرعب التي تحكم العالم.

ولد مؤلف هذا الكتاب الغريب 1740. وكان أحد نبلاء فرنسا في حقبتهم الأخيرة المتفسّخة. وصف شاباً بأنه «ولد فاتن بوجه شاحب رقيق تومض منه عينان سوداوان كبيرتان». وكلّ من عرفه تحدّث عن «سحره الأنثويّ»، وأنذرت كتابتهم بالسوء من «جوّ الشرّ» الذي أحاط نفسه به من يفاعته. كتب ناقد «كان جماله مروّعاً، وحينما كانت تراه النساء بشبابه المبكّر، كن يقفن أصناماً يملؤهن افتتان مشدوه».

ويبدو أن ساد كان مبذراً أرستقراطياً مألوفاً بدء رجولته. التحق بالعسكرية، كمثيله من السادة الشبان، وعاصر أحداث ألمانيا بحرب «السنين السبع». ولا شكّ أنه انضمّ لغيره من الضباط في عربدتهم، كعينة من الترف المعهود في أوروبا الغربية. وربما جرّب قليلاً الشذوذ الجنسيّ، لمجرد استكشاف كنهه ـ فقد كان ساد شخصاً فضولياً متطلّباً.

بلغ الثالثة والعشرين فاستقال من العسكرية واتّخذ مسكناً في باريس. ولم يمض كثير وقت حتى وجد نفسه متزوجاً. حفزه والده حازماً على الزواج ليحرّره من «الممارسات الشريرة المزدهرة بالجيش»، وكان يعني الشذوذ الجنسيّ. رُتّب زواجه. واختارَت عائلته رينيه بلاجيه مونتريه، ابنة نبيل ثانويّ. طويلة سمراء بهية، رائقة ورعة بالسليقة. لكن ساد لم يمِل إلى حبها. بل فُتن بأختها الصغرى، وكانت شقراء ملتهبة العاطفة.

أُجبر ساد على الزواج من أختها الكبرى مونتريه. ومن تمرّده الروحيّ، دار نحو إفراط جنسيّ رهيب. بدأت مسيرة انحرافه الحقيقية

عام زواجه، 1763. وعلى الرغم من تبعات هياجه المسرف، ظلّت زوجته على ولائها له، أخبرته مرة «إني مجرد خادم مطيعة لأوامركَ. ويمكنكَ أن تعوّل عليّ كأعزّ وأخلص صديقة».

بدأ التردّد على بيوت الدعارة، يرتزق الفتيات اللاتي يسمحن بجَلدهن وسحق أثدائهنّ العارية وأفخاذهن المتجرّدة. ومن الجليّ أن خرج طقس من هذه العربدة عن طوع ساد، وقد سجّله في 29 أكتوبر 1763، فسُجن لارتكابه «إفراطاً شديداً» في ماخور - وهي المرة الأولى من نوبات سجنه التي أجبرته أخيراً على قضاء عشرين عاماً من حياته وراء القضبان.

بالسجن، خربش ساد رواية قصيرة منحته مسرباً لخيالاته الحسيّة. لم تُنشر قطّ؛ لكنها حملَت بذرة أعماله الأخيرة. أُطلق سراحه بعد أسابيع، على وعد التوبة، وصار العام التالي عضواً في برلمان برجاندي. لكن هذا الترفيع لم يكن جديراً به. فقد ذهب إلى باريس فور انتخابه، عاش مع ممثلة، فنال شهرة واسعة على أنه جلاّد نساء. وكبّدته هذه المسيرة علاقة فاضحة عام 1786، حيث خطف امرأة تُدعى روز كيلر، جرّدها عارية وقام بجَلدها حتى غطّى جِلدها الدم. فهربت عارية من المنزل تصرخ طلباً للشرطة. قُبض على ساد وحوكم. نجمت عنه شهرة طبقت أوروبا؛ لكن النبيل الخليع، وبأثر من عائلته، عوقب فقط بالسجن سبعة أسابيع مع غرامة صغيرة.

لم تقترب مآثر ساد الأخيرة من تنميق الحوادث في كتبه، لكنها بزّت أخلاق عصره الفاجرة. فقد أقام علاقة مفتوحة مع أخت زوجته الصغرى وسافر معها للخارج. أحاط نفسه بزمرة مومسات وشواذّ جنسياً كان يتسلّى معهم بتمثيليات جنسية مدروسة. وفي مرسيليز 1772، دعا ساد وتابعه أربع مومسات إلى حفلة جَلد، منح فيها الرجلان الفتيات

العاريات جرعة زائدة من عقاقير مثيرة بدرجة كادت تسمّمهن. فقدّمن شكاية للسلطات، وناتج ما أعقبها من ضجّة، حُكم على ساد بالإعدام ـ غيابياً، حيث فرّ هارباً لإيطاليا مع أخت زوجته.

قضى سنوات هائماً على وجهه، ثم عاد 1774 إلى قصره الفرنسيّ، يستمتع بطقوس عربدته من جديد خلف جدرانه العالية. لكن في مايو/أيار 1775، هربت فتاتان بمقتبل عمريهما من القصر فسجّلتا ضدّه شكاوى اغتصاب وغواية. ثم فضيحة أخرى؛ أعلن عمّ ساد «ابن أخي مجنون. فعليكم بسجنه». فلم يكن أمام ساد غير الفرار ثانية إلى إيطاليا، وطالت هذه المرة ثمانية عشر شهراً. وبعد عودته لفرنسا، انغمس فوراً في عادته القديمة، فجلبت عليه رذائله المتمرّدة السجن من جديد، للمرة الخامسة خلال أربعة عشر عاماً. ثم أُطلق سراحه نوعاً 1778.

وله الآن عدو حقود: حماته، مدام دي مونتريه، التي تبغضه لغوايته ابنتها الصغرى وهزئه بزواجه من ابنتها الكبرى. فساندت حكماً عليه بالسجن المؤبد لـ «جرائمه ضدّ الإنسانية». فسُجن ساد من 1778 حتى 1784 في فنسن؛ ثم نُقل إلى الباستيل من 1784 حتى 1789، ثم أودع مصحة عقلية في شارنتون حتى أبريل/نيسان 1790، حيث نال حريته أثناء فوضى الثورة الفرنسية.

حين دخل السجن بعمر الثامنة والثلاثين كان ساد قوياً نشيطاً، لكن بعد ثلاثة عشر عاماً بُعث رجلاً بديناً منفراً ضخماً، شنيع البنية زائغ الإدراك. وقد استدار للأدب طيلة فترة احتجازه، فسكب بسرعة خيالية عشرات الروايات والمقالات خلّدت ذكره إلى اليوم. بين صفحات تلك الكتب كان ساد يحلم بمنجز عربدة يتوق للتمتّع بها ـ وعبر عمليات دماغية غامضة أحال النبيل المشؤوم ملذّاته لضرب من

الأدب، فأنتج سجلاّت غريبة عن المعاناة الإنسانية قُرئت ودُرست بافتتان منذ ذلك الحين.

بعد أن خلّف السجن، جرّب ساد أن يعول نفسه من كتابته. لكنه أفلس 1880، فواجه السجن استحقاقاً لديونه هذه المرة؛ كما أخطأ بنشر كراسة دعاية سياسية ضدّ نابليون لنيل بضعة فرنكات، فسُجن ثانية 1801. وبعد عامين أودع مصحة شارنتون العقلية، فأمضى أعوامه الأحد عشر الباقية من حياته مجنوناً يائساً. حاول مدير المصحة مرّات إخلاء سبيله، فكان يكتب «الدينا رجل نال من فسوقه الوقح شهرة واسعة، كما جلب عليه وجوده الفادح أعظم الثبور... يجب وضعه في عزلة تامة لحماية الآخرين من شطحه وفصله عما يحيط به من ظروف قد تُلهب عواطفه المفزعة».

لم يستحقّ الإفراج أبداً. صار ساد عجوزاً بديناً مُعذَّباً، فقضى أيامه يدبّج رسائل مهتاجة ومخطوطات مفكّكة، في سعي منه لإفساد زملائه بالسجن، وللاحتجاج على ما يعانيه من مشقّة؛ حتى حان حينه 1814، فمضى المركيز لراحته الأبدية، ومن سخرية الأقدار، دفنوه بأوقاف مقبرة مسيحية.

كتب ساد عشرات الروايات، بدءاً من «120 يوماً في سدوم» (1785). مع ذلك كان أول ما نُشر منها هو «جوستين»، أو «محنة الفضيلة»، كما ظهرت في يونيو/ حزيران 1791. وقد ثار في فرنسا وقتئذ عهد الإرهاب[1] وطاحت فيه الأخلاق برمتها. وحتى بهذا الزمن المسعور، لم يشعر ساد أنه في منجىً ليصدر أول طبعة باريسية منها،

(1) عهد الإرهاب بالثورة الفرنسية (مارس/آذار 1793 ـ يونيو/ حزيران 1794) أُعدم فيه ساسة ومواطنون. (م).

فحملت صفحة عنوانها «نُشرت في هولندا» ـ مع أنها صادرة فعلاً بمطبعة باريسية، ونُشرت بإشراف مباشر من المؤلف.

لم يرض ساد مطلقاً عن «جوستين» بصورتها الأصلية. فأعاد بعد سنين خمس كتابتها ووسّع فيها حتى صارت عملاً ضخماً من أربعة مجلّدات أسماه «جوستين الجديدة»، طُبع 1797. لم يصدر هذا العمل مرة أخرى قطّ واختفت نسخه. فظلّت لطبعة 1791 من «جوستين» الأصلية شعبية سرية مدة تزيد عن قرن ونصف[1]، وهي المطروحة الآن بالترجمات جميعاً.

لرواية «جوستين» وجود محموم. كتب أديب فرنسيّ 1797 «يودّ الجميع معرفة كنه العمل المسمّى (جوستين)، يشغفهم حيازته أو استعارته؛ فطباعته محظورة». ثم قام نابليون بحظر توزيع الكتاب إجمالاً 1801، وأمر بمصادرة نسخه وإتلافها، فاستحالت طبعاته الأولى نوادر. كما أمرت الحكومات الفرنسية المتعاقبة بمصادرته: 1815، 1825، 1843. مما حفز الحاجة للكتاب طبعاً.

وصادفت ترجمات الكتاب المصير عينه. في إنجلترا والولايات المتحدة أحرق ضباط الجمارك آلاف النسخ من «جوستين» منذ منتصف القرن التاسع عشر، مع أنه لم تصدر أية أحكام من أية محكمة بأنه كتاب «فاحش». وحتى بعد رفع بلدان أوروبا الحظر عن أعمال ساد، ظلّ العالم السكسونيّ يمنعها، على رغم ظهور الساديّة في أعمال كتّاب متواضعين: يان فلمنج، ميكي سبيلان؛ مفعمة بأية دعاوى غير مأثرة الفنّ، لكن لم يصدر أمر برقابتها بل نالت مديحاً من أوساط حكومية عليا.

(1) يقارب عمر الرواية الآن (2006) حوالي ربع ألفية (215 سنة) (م).

وها هي «جوستين» الآن، بطبعتها الأصلية، غير مشذّبة. (بيعت نسخ منها مهذّبة أو مُنتَحلة كلياً من قبل ناشرين مقرصِنين معدومي الضمير على أنها «الطبعة الحقيقية»)، لكنك ستكتشف على الفور باطلها وانحرافها الغريب، حيث تعاني المستقيمة وتزدهي الشريرة. جوستين، بطلة رقيقة خجول، تُغتصب، تُجلد، تُعذّب، تُضلّل ـ بينما تنال أختها الفاسقة صفيقة الوجه حياة الدعة والراحة.

هي أشياء تحدث في الحياة. وتحدث أقلّ بالروايات السيّارة، حيث النهايات السعيدة مهما كانت فهي متملّقة، ولا تحدث قطّ في هوليود أو التلفزيون. لقد قلبَ ساد الأخلاق المصطلح عليها للراوي الموصوف. فهو يطرح بهذا الكتاب المعتم الكئيب نسخة مقلوبة على عقبها للعالم، كترياق مفعم لما ينتجه معظم الكتَبَة من توافه غبية.

رواية «جوستين» مجرد خيال طبعاً. فهي نتاج رجل مختلّ مستوحش منحلّ مريض، تصادف أنه كان عبقرية أدبية. فما من صفحة تُبدي مرض ساد الواضح إلا وتُبدي عبقريته أيضاً. لكن هذا الكتاب المعذِّب والمعذَّب قطعة فنّ خالص بالقدر ذاته. فهو يضمّ مكافآت للقارئ القدير، كما يقدّم نظرات سيكولوجية ثاقبة لمن يودّ فهم تجليات الشرّ لا تجاهلها. إن نشر «جوستين» في هذا الوقت لهو حدث ثقافيّ هامّ.

ل. ت. ودورد[1]

(1) عالم نفس معروف، أشهر كتبه: «الساديّة». (م)



جوستين

إهـداء

إلى سيدتي الغالية،

نعم، كنستانس، إليكِ، لذكائكِ وفهمكِ المتوقّدَين، أُهدي هذا الكتاب.

أنتِ، طبعاً، من سيقدّر عذوبة دموع الفضيلة التعسة.

وبقوة تشجيعكِ لا أهاب وصف الأحداث والأحاديث والشخوص الضرورية في هذه الرواية. وقد خفّفتُ خطوطاً معينة من الصور الساخرة قدر الممكن، حتى لا ترعبكِ. فالرذيلة تهزأ بوضعيتها، تصرخ خزياً وهي تُهاجَم: الصرخة التي دبّرها المتعصّبون ضدّ «طرطوف»، هي الصرخة نفسها التي سيُشهرها المتهتّكون ضدّ «جوستين».

لكني لا يعنيني هؤلاء في شيء. فإليكِ والآخرين أمثالكِ تتّضح بواعثي، وبكم تُفهَم. ورأيكِ يكفيني. لو سررتكِ، فسأسرّ الجميع. بكِ وبعطفكِ وحده أهتمّ؛ أما استنكاف الآخرين مني وتقريعهم لي فلن يثير إلا أساي وأصرف بالي عنهم.

بنيان هذه الرواية غريب دون شكّ. حيث تبدو الرذيلة بكلّ مكان ظافرة، أما الفضيلة فضحيّة قرابينها. هنا امرأة تعسة الحظّ تصبح ألعوبة الشرّ والغواية: تتعرّض لأشدّ الميول فساداً وبربرية: فريسة دائمة لأشدّ الأهواء وقاحة ومراوغة: ولا تملك غير رقّة روحها التي تُقارع بها المزيد من الحظوظ العاثرة والكثير من الانحلال. قُصارى القول، لقد

جازفتُ بكتابة أجرأ الصور، أكثر المواقف استثنائية وأعتى قواعد السلوك ضراوة...

فهل وفّقتُ، يا كنستانس؟ هل تطفر دمعة من مآقيكِ بضمان توفيقي؟ لو أتيح لكِ قراءة «جوستين»، أفلن تقولي أخيراً «آه، كم تحفزني صور الجريمة على التباهي بعشق الفضيلة! وكم ستكون سامية دموع الضحيّة! وكم سيرفعها حظّها التعس إلى ذُرى النبالة!».

آهِ، يا كنستانس! دعي كلماتي هذه تقطرِ من شفتيكِ، فبها تتوّجين كلّ ما عملت يداي!

تصدير

قد تُطوّر الفلسفات المتأخّرة، بإسهاب ووضوح، مقاصد الربّ نحو بلوغ نهايته عبر الإنسان، حيث تتبدّى خطوط وصاله بوضوح كافٍ خلل الدرب الشائك للحياة فيمكنه تحصين نفسه بتعقّل ضدّ نزوات مصيره العنيفة. قد تصفّي مثل هذه الفلسفات، ضمن كونه الصغير، كثيراً من الحيرة في عقول البشر وتمنح أفعالهم ثمّة توجيه محدّد.

أما الذين يوافون الأعراف الاجتماعية وقيودها المعهودة ويصادفون مع ذلك فقط أشواك ورد الحياة، بينما يحصد الأشرار الورد ذاته، أفلن يتوصّلوا للإحساس بأن الأشياء هكذا، والأفضل لهم اتّباع خطوط المقاومة الأدنى. كلّ شيء متعادل في نظر الطبيعة، ولو تبرّمت المحن من الفضيلة وكافأ الجريمةَ ازدهارٌ، أفلن يتساوى كونهم أشراراً أو خيّرين! أفلن يفضّلوا فعلاً وحقاً محاكاة الأشرار فيزدهروا أكثر من محاكاة الخيّرين فيخفقوا!

علينا أن نحترز، إذن، من سفسطات خطرة لفلسفات زائفة. فكم يؤدّي إبراز أمثلة من الفضيلة الممتَحنَة، مهداة إلى تلك الروح الفاسدة التي لا تزال تتقيّد بقليل من مبادئ الخير، إلى أن نأخذ بيدها حتى تعود على درب الفضيلة، فيتّضح لها العفاف مشرقاً وتوقيره مشبعاً، لأنه الأساس وبيت الرجاء.

لا شكّ أنه يصعب علينا، من طرف، وصف حشد من المحن التي تغمر امرأة ناعمة محبوبة كانت فاضلة موقّرة، ومن طرف آخر،

وصف الظفر عليها مما قد سحق وأخزى تلك الروح اللينة. لكن المرء لا يأسى على كشف حقيقة قد يتعلّم منها الحكيم فيطفئ أساه، حيث تصيب السماء أحياناً وصاياها في مقتل.

هي مشاعر وجّهت عملي. وباعتبار بواعثها، أرجو عفو القارئ على ما وضعته من فلسفات زائفة بأفمام شخوصي، وما جلبته عليهم من مواقف مؤلمة، لصالحه وأمام ناظريه.

الفصل الأول

أختان، لا تشبه إحداهما الأخرى. الكبرى جوليت، لم تبلغ السادسة عشرة، لكنها حكيمة مقتدرة وبارعة كامرأة في الثلاثين. علاوة على أنها زاهية جموح، وعابثة جريئة. أعارها قوامها المكتنز اللّدن وعيناها السوداوان الناعمتان جاذبية تلفت إليها الانتباه فوراً، فهي مثال المغناج الكاملة. أما أختها الصغرى جوستين، من جانب آخر، فمخلوقة شابة ساذجة، ومتواضعة هيّابة؛ وبينما كانت جوليت مستهترة لعوباً وغير مبدئية، فالأخرى جوستين جادّة كئيبة ومفرطة بعواطف مستقيمة لينة. ولأن جوستين لم تنضج بعد؛ فقد أودَت بها بساطتها الساذجة إلى كثير من الفخاخ والشِراك.

تنحدران من عائلة عريقة ذات ثروة ونفوذ. وكان والدهما مصرفياً بارزاً في باريس. فتلقّتا تربيتهما في أحد الأديرة المشهورة في الريف، ونالتا أفضل المعلّمين والرفاق والكتب، والكثير من وسائل الراحة التي يُشتهى منها القليل.

لكن قبل مرور زمان طويل، ضاع كلّ ما لدى الفتاتين الصغيرتين بصورة لا تُردّ. فقد ارتمى والدهما في فقر مدقع بعد إفلاس حادّ مفاجئ، وغلبه اليأس فانتحر؛ ومن بعده ماتت زوجته.

حين كانت الفتاتان مبذّرتين احتشد حولهما الصحاب والأقارب فكانتا تنالان كلّ رقّة ورعاية، لكن بعد التغير الجذريّ في ثروة العائلة وإرثها ازدراهما الجميع ومن كلّ جانب حدث التجاهل. ولأنهما

صغيرتان، فلم يتمنّ عمّ أو عمّة - ولا أيّ امرئ آخر - إزعاج نفسه برعاية هاتين اليتيمتين الشحّاذتين، فصُرفتا إلى مناحي الدنيا مفلستين تقريباً، لتدبير أمرَيهما.

ولأن جوليت خَلو الهموم مستهترة، فلم ترغب في شيء غير حريتها. وعلى الرغم من صغر سنها وسذاجتها وانفضاض الصحاب ووحدتها في الدنيا، إلا أنه لم يعنها ما آلت إليه من حظّ عاثر؛ فقد سُرّت بمشهد تملّكها ناصية نفسها فجأة. وأسعدها حقاً التخلّص أخيراً من كافّة القيود، فتطلّعت بشغف طمّاع إلى حياة من الحرية الكاملة وانغماس بالشهوات لا يكبحه نَيرٌ أبويّ. ستنتهز فرصتها في المتعة وتتدارك المزيد من الإشباع إلى الحدّ الأقصى من مشاعرها الجسدية الغريبة، التي هلّت عليها بصورة مبهمة - مشاعر كانت تظنّها لطيفة دائماً، وتثير فضولها اليانع المتململ وتزعج في العمق غالباً خيالها المبتَسَر. أما جوستين، مغلوبة بمأساة وضعها، فقد غرقت في سحابة كثيفة من الكآبة، وكبر وَهَنها حتى ظلّت جوليت تنخسها خليّة البال بسخرياتها اللاذعة لتصبح فريسة سهلة لانفعالات لينة. ذبلت جوستين من الفزع أمام القسوة الصفيقة لكلمات أختها، حيث قالت إنه لا نفع من القلق على شيء لن يؤثّر عليهما شخصياً، فقد تسنح لهما ملذات جسدية عنيفة تمسح عنهما كلّ معاناة وتعاسة، ومن الملحّ أن يضاعف المرء لذّته بدلاً من استزادة ألمه؛ باختصار، يجب أن يقوما بفعل كلّ ما من شأنه الحدّ من هذه الانفعالات التي لن تجرّ عليهما غير الأسى. بشبابهما وجسميهما الرائعين، يستحيل عليهما الموت جوعاً. ألا تستطيعان نوال رعاية أحد، فتعيشان مرفّهتين في دَعَة؟ كما ظلّت تصبّ السخرية على معتقد جوستين الزاعم بأن رباط الزوجية المقدّس هو الحريّ بسعادة الفتاة الشابة. فعلى النقيض، ألن تعاني كثيراً حتى لتصبح بائسة، بأسر قوانين الزواج؟ لكن لو سلّمتا نفسيهما للدعارة

لكفلتا، على الأقلّ، نفسيهما بالمال والتنوّع ومباهج الغرام!

رُوّعت جوستين من هذا الكلام وقالت إنها تفضّل الموت على هذا الشنار؛ ولحظة أن رأت أختها مصمّمة على حياة تبعث فيها الرِعدة اتّخذت قراراً ألاّ تعيش معها.

كانت نواياهما متعارضة، فانفصلتا سِلمياً دون وَعد محدّد برؤية إحداهما الأخرى. فأنّى لمثل جوليت، وقد تمنّت أن تصبح سيدة بمقام رفيع، مزاملة فتاة ستُعيقها نزعاتها البسيطة الفاضلة؟ وأنّى لمثل جوستين المخاطرة بشرفها في رِفقة مخلوقة منحرفة على وشك امتهان الغواية العامة؟ فافترقتا كلّ لحال سبيلها.

الفصل الثاني

الآن وقد خرجت أختها جوليت من حياتها، أحسّت جوستين أكثر من ذي قبل بأنها وحيدة منبوذة. صارت شبه يائسة، ومصاعبها مفرطة، لكن على الرغم من جفولها أدركت حاجتها الماسّة إلى مناشدة أحدهم تترجّى مساعدة. لم تستطع بدايةً التفكير في أحد تلجأ إليه، ثم هلّ على بالها أخيراً اسم امرأة كانت يوماً حائكة أمها وتُبدي صداقة هائلة فيما سبق، فقررت جوستين الذهاب إليها تترّجى لخاطر الأيام القديمة أن تساعدها. كانت على يقين أن صديقتها القديمة ستمدّ لها يد العون. ثم أدركت فوراً مزاج هذه المرأة المحدود في الإنصات لمتاعب الآخرين؛ فأفعمها الخزي وهبطت همّتها بعد أن صُرفَت بحفاوة قليلة من باب المرأة الصفيقة.

صاحت الصغيرة البائسة «يا ربي! أكان ضرورياً أن تثبّط عزيمتي أولى خطواتي في هذا العالم! لقد كانت هذه المرأة تحبّني ذات يوم، فلماذا تستخفّ بي الآن؟ هل يُحترم الناس لما يجنيه الآخرون منهم فحسب من مغانم؟».

وكملجأ أخير، مضت عندئذ لسياسيّ نابه. تلبس عباءة بيضاء قصيرة، شعرها البديع مربوط بإهمال تحت قلنسوة كبيرة، وحلَقها لا يكاد يبين فهو مخفيّ تحت ذراعين أو ثلاثة من الشاش. وجهها يعلوه الشحوب مما ينهشها من مآسٍ؛ وتقف بعينيها الدامعتين، فبدت تعبيراتها أشدّ حزناً لكن أرقّ. وحين مثولها أمام الصديق ظلّت تصف له

ما جرى لها من محنٍ وسط الدموع.

قالت «ترى سيدي... تراني في حالة مزرية! فقدت أبي وأمي. لقد خطفتهما السماء مني بسنّ أنا في مسيس الحاجة إليهما فيه. تُوفيا فقيرَين يا سيدي، ولم أعد أحتكم على شيء... وها هو ما خلّفاه لي» وبان في راحتيها قليل من المال «ولا مكان أُريح فيه رأسي البائس! فارحمني! ارحمني! أنت صديق عزيز ممن أعتبرهم دائماً حبّة قلبي! باسم من أعبده، قل لي ماذا أفعل، ويجلب عليّ فائدة!».

ولدى أن تمتّعت عيناه الجشعتان بالدوران على المخطّط المزدهر المجيد لجسمها الطريّ الصغير، ردّ الرجل العظيم بأن كاهل البلاد مثقل كفاية ويستحيل منح المزيد من الصدقات؛ لكن لو قامت جوستين بعمل شاقّ، فلها دائماً قطعة خبز بالمطبخ؛ وبينما كان يتكلّم رفع ذقنها طفيفاً فمنحها قبلة ظنّت أنها خبيرة بالقياس لدبلوماسيّ. فصدّته بالغريزة وقالت «لا أطلب منكَ شيئاً، لا إحساناً ولا مأوى خدم! أريد نصحكَ فقط، وهو ما أحتاجه في شبابي وسوء محنتي. ولا تتمنّ عليّ بيعهما بثمن بخس!».

عندئذ دفعها عنه بسرعة، مرتبكاً ومنزعجاً من اكتشافها أنه أشدّ وضاعة مما يجب أن يكون عليه رجل دولة.

بعد أن انتهت من سرد ذرائعها، دخلت الفتاة التعسة نُزلاً، فاستأجرت عليّة صغيرة أثاثها بائس، وهناك أفسحت المجال لدموعها والآهات.

❑ ❑

استنفدَت جوستين ذلك الإرث الصغير الذي خلاّه لها والدها بوفاته، فأصبح عوَزها أشدّ قسوة. وكلّما زادت حاجتها قلّ على ما يبدو ما تتلقّاه من عون وعطف.

من بين المحاولات والصدود الذي عانت منه بهذه الفترة المبكرة من حياتها، كان العرض الذي اختبرته على يد السيد ديبور، وهو أحد أثرياء المدينة، الأكثر تميزاً. أوصت به إلى جوستين المرأة صاحبة نُزلها وهي تقف جنبها يوماً، حيث أكّدت أن هذا الرجل سيغمرها بعطفه وكرمه.

لم تُضع جوستين وقتاً في الذهاب لتراه. وحين وصلت منزله كان عليها الانتظار طويلاً في حجرة الضيوف قبل أن تحظى بشرف لقائه. لكن بعد السماح لها أخيراً بدخول مخدعه، لحظة نهوضه من الفراش، ملتفاً برداء صباحيّ محلول لا يكاد يُخفي جسمه، حيث كان مستعداً لعناية خادمه؛ صرفه ليسألها عما تريد. فردّت محتارة «ويلتاه! أنا يتيمة بائسة، لم أبلغ بعد الخامسة عشرة، وأُتيح لي أن أخبُر صُروف المحن. أرجوكَ، ارحمني... من فضلكَ... أرجوكَ!».

ثم قدّمت له كشف حساب مطولاً عن متاعبها، ومصاعب العثور على عمل، فهي لم تولد لمثل هذا العار الذي تحسّ به في اتّخاذ عمل وضيع. كما أخبرته بآمالها في عونه لها بأيّ صورة، كأن يجد لها عملاً. بعد أن أنصت وهو يقاطعها كثيراً، سألها السيد ديبور إن كانت فتاة طيبة.

«وإلا فما كنتُ في أمسّ الحاجة، يا سيدي!».

«بأيّ حقّ، إذن، تتوقّعين من الأغنياء مساعدتكِ إن لم تسهري على خدمتهم؟».

«بأيّ طريقة تتوقّع مني خدمتهم؟ فلا أتمنّى ما هو أفضل من أداء الصحيح».

«مساعدة طفلة مثلكِ ذات نفع محدود بالمنزل. فلستِ كبيرة ولا قوية بدرجة تكفي أن نوظّفكِ على هواكِ. والأفضل أن تشغلي نفسكِ

بإسعاد الرجال. حاولي مع أحد يقوم على رعايتكِ. فالفضيلة التي تقدّرينها كثيراً لا تساوي فلساً بهذا العالم؛ وإن قمتِ على حراستها للأبد فلن تُقوّتكِ. فما أقلّ ما يحترم الرجال وما أكثر ما يزدرون الفضيلة في جنسكن. إنهم يقدّرون، بُنيّتي، ما يجلب عليهم الفائدة والمتعة. وفائدتنا هي فضيلة المرأة! تنفعنا طواعيتهن بل تسعدنا، لكن عفّتهن لا تثير فينا أدنى اهتمام. حين يمنح رجال مثلي، فلأنهم يأملون دائماً تلقّي المقابل. فأنّى لبنت صغيرة مثلكِ أن تردّ عليّ ما سأفعله من أجلكِ؟».

«آه سيدي، أليس ثمة إحسان أو عطف بين الرجال!».

«نادر جداً! يتكلّمون فقط عنه كثيراً. فلماذا يؤدّونه بطريقة أخرى؟ لم يعد الناس مُكرَهين غالباً على أداء شيءٍ مجاناً؛ اكتشفوا أن ملذات الإحسان لا تهب غير متعة الزهو. ولأن الزهو مجرد وهم، فهم ينشدون الآن حواسّاً ماديّة أكثر. على المثال، تعلّموا أنه يُفضّل مع فتاة مثلكِ جني الملذات التي يجلبها عليهم الحبّ أكثر مما لا تُغني ولا تُسمن بوهب المساعدة. فلا تستأهل ملذات العطف والكرم أدنى لذة من الحواس».

قالت جوستين: «سيدي! مع مبادئ كهذه تهلك تعسة الحظّ!».

«وماذا يهمّ! لدينا عموماً ناس أكثر من الهمّ في البلاد. فماذا سيحدث لو كثر الأفراد أو قلّوا؟».

سألت جوستين: «هل تظنّ الأطفال يحترمون آباءهم لو عاملوهم هكذا؟».

«وماذا يعني الأطفال إلى أب يثيرون امتعاضه!».

فأفحمته: «أمن الأفضل إذن خنقهم بالمهد!».

«طبعاً! تلك كانت العادة في كثير من البلدان. كانت ذائعة بين أهالي اليونان؛ وبين أهالي الصين، حيث كانوا يعدمون دائماً الأطفال الضعفاء والعاجزين. فلمَ نسمح لمثل هذه المخلوقات بالحياة؟ فاليتامى وأولاد الزنا والمقعَدون، يغمرون الدولة بسلعة عندها منها الكثير. لكن لندع هذا الكلام، يا طفلتي، فيبدو أنكِ لا تستوعبينه. لماذا تشتكين من قدَركِ بينما يعتمد الأمر عليكِ في توسّل العلاج له؟».

فتأوّهت جوستين: «بأيّ ثمن، يا ربي؟».

«الثمن الذي تدّعي الفضيلة أنه لا قيمة لشيء آخر أكثر مما يعوّل عليه غروركِ. ذلك كلّ ما بمقدوري فعله لكِ. فوافقي عليه أو اخرجي». ونهض فدفع الباب عنيفاً، وهو يضيف «أكره الشحّاذين!».

فذابت جوستين في النشيج، لكن بدلاً من اللّين أثارته دموعها؛ فأغلق الباب ثانية وهو يمسكها بوحشية من ياقة فستانها قائلاً إنه ينوي إجبارها على فعل ما رفضته من أجله عن طيب خاطر. وفي اللحظة القاهرة لملم شجاعتَها الخطر المحدق بها، فنزعت نفسها من يديه مندفعة بوحشية نحو الباب، صارخة «يا حيوان! سيُنيلكَ الله عقاباً حيث تستأهل العقاب... ولا تساوي حبّة هواء مما تتنفّسه!».

ركضت إلى البيت طيلة الطريق تقريباً لتخبر صاحبة نُزلها عما تلقّته من وحشية. ولدهشة جوستين، شيّعتها بوابل من الإهانات لفظاظتها مع السيد ديبور.

قالت لها المرأة: «أنتِ تافهة غبية! تتصوّرين الرجال مزدَوَجين ليهبوا إحساناً لفتيات مثلكِ دون أخذ مقابل أموالهم! كان السيد ديبور عطوفاً حين تصرّف معكِ هكذا. لو كنتُ مكانه لما أفلتّكِ قبل إشباع نفسي على الأقلّ. ولأنكِ لم تنتهزي فرصة العون التي أوجدتها لأجلكِ، فافعلي ما يحلو لكِ؛ لكن ردّي لي ما تدينين به إليّ فوراً أو سآخذكِ للسجن!».

فناشدتها جوستين «آه، ارحميني، أرجوكِ!».

«كفى شفقة!... قد يموت المرء جوعاً من الشفقة!».

«وماذا تتوقّعين مني أن أفعل؟».

«عليكِ بالعودة إليه. عليكِ أن تسعديه. وعودي إليّ ببعض المال! سأذهب كي أراه وأسعى لأعيد الأمور إلى نصابها. لكن أحذّركِ، عليكِ بالتصرّف كسيدة!».

من يأسها وحرمان البدائل، استسلمت جوستين للمصير المعلّق عليها وهي تكابد صاحبة نُزلها في الذهاب لرؤية الرأسماليّ الكبير. وحين رجعت صاحبة نُزلها أخبرت جوستين أنها وجدت السيد العظيم هائجاً بدرجة فظيعة؛ لكن بعد كثير من الترافع والملاطفة تغلّبت عليه فوافق ليّناً على رؤيتها الصباح التالي. واشتكى منها السيد ديبور «لم تُعاملني بلياقة قطّ ـ أصابتني بالتعاسة في مقتل!». وتلقّت جوستين تعليمات حذرة للتأكّد من الانضباط على الوجه الأمثل والإذعان من كلّ النواحي.

وصلت من جديد صباحها التالي، يشلّها الخوف، إلى بيت السيد ديبور، فوجدته وحيداً، ورحّب بها في كثير من التجهّم.

قال بخشونة: «عليكِ بشكر صاحبة نُزلكِ على ما أوليكِ إياه اليوم من عطف. فقد أدركت بعد الأمس أنكِ لا تستأهلين أيّ عطف. والآن اخلعي عنكِ أشياءكِ، وإن أبديتِ أدنى مقاومة لي اليوم فالله وحده العليم بما سأفعله بكِ!».

ألقت بنفسها على ركبتيه تبكي «آه ارحمني! كن كريماً معي واعنّي دون أن تأخذ مني ما أراه أغلى من حياتي نفسها. نعم، أفضل الموت ألف مرة عن التضحية بعفّتي... سيدي! سيدي! لا تُجبرني، أرجوكَ، أرجوكَ!... آه! آه! هل تجد السعادة وسط الدموع والعار!... تتوقّع

اللذة حيث لن تجد سوى الكراهية!... وبعد أن تنتهي من جريمتكَ، سيملؤكَ مشهد أساي بالندم!...».

أكثر ما أمّلت فيه جوستين استعطاف رجل يجد بحزنها حافزاً أكبر لعاطفته؛ وقرّر الرأسماليّ، مشتعلاً بمرارة صرخاتها، أن تمضي الأمور حالاً إلى مستقرّها. نهض في حالة ضاع فيها عقله، ولن تكون أيّ مقاومة غير مهماز لهذيانه، فأرقدها وهو يحضنها بوحشية، يُشيح يديها بعيداً، وكانتا تعيقانه؛ وبالتناوب آذاها، أشبع غروره، لاطفها، ضغطها، عضّها. مزيج غريب من اللذّات: ولو كان السيد ديبور أقلّ شغفاً لدنّس عفّتها بالتأكيد. لكنها مدينة بحرّيتها لاندفاع الرجل؛ فعلى الرغم من التأجيل والصعوبة الناجمة عن ارتباك مشاريعه، استعجله هياج رغبته على نحو غير متوقّع، فانطفأت فجأة قوة عاطفته. كانت دهشته عظيمة، وخيبة أمله عنيفة، حتى أنه لامَ جوستين على ضعفه، فآذاها بغطرسة أكبر.

أجهض كلّ شيء، لكنه تمنّى إضرام شعلته ثانية بتمهيدات ونوبات أذى مستجدّة، كانت أشدّ إيلاماً لمشاعرها: لم يعد هناك ما لم يجرّبه، ولا ما لم يقله. أثاره على نحو خاصّ ارتباكها. عموماً، أخفق إذعانها أن يهيجه، فحاول من جديد دون أن يقدر على استعادة الضروريّ لمقصده، وفي النهاية استسلم. لكنه قطع عليها وعداً بالمجيء اليوم التالي، وليضمن وعده الذي قطعه عليها منحها مبلغاً صغيراً.

عادت جوستين للبيت، مقهورة بالمغامرة، فاعتزمت بجدّ ألاّ تراه ثانية، وهي تلعن تلك المرأة البهيمة التي تنتهز فرصة بؤسها بوحشية.

الفصل الثالث

مرت عدّة أشهر. فيما ليس أقلّ مرارة من ورطة، تغرق جوستين تدريجياً، نصف جوعانة، في لامبالاة فاترة الهمّة وتدع الأشياء تجري بمجراها. لا تزال في النُّزل المرعب نفسه. ومع أن صاحبة نُزلها داومت إزعاجها طلباً للمال وإنهاكها بالتهديد والسُّباب، إلا أنها لم تطردها فعلياً للشارع. لكن العجوز الزريّة عرفت كيف تستغلّ جوستين؛ تؤهّلها لأنواع العمل القذرة كلّها، فتكنس وتمسح لتسديد إيجارها ومخصّصها اليوميّ الصغير من الخبز الأسود مع قليل من الحساء أحياناً.

ظلّت جوستين، طيلة تلك الأسابيع الطويلة البائسة، تفتّش غالباً لتقفّي أثر جوليت، وهو ما بدا لها أمل الخلاص الوحيد من بؤسها الحالي؛ فكانت تهيم ليلاً على وجهها في الشوارع تحدّق عن قرب في أوجه العابرين، بتمنّي أن تلمح وجه أختها الأليف من جديد. لكن بحثها لم يثمر عن جدوى، فاستسلمت لليأس أخيراً.

جاءت إليها يوماً صاحبة النُّزل فقالت إنها وجدت لها عملاً بعد لأي.

صاحت جوستين «آه يا ربي!»، وهي تلقي بنفسها سعيدة بين ذراعيها.

مَن ستقوم على خدمته كان مُرابياً باريسياً يُدعى السيد هيربن، لم ينل ثراءه من إقراض المال بفائدة عالية فحسب بل بخداع العاجزين

الفقراء كيفما يستطيع. يقطن أبأس حيّ بالمدينة مع حيزبون شمطاء بالخمسين يدعوها أحياناً زوجته.

حين دخلت جوستين مسكنه أخذها جانباً في لقاء طويل. أصرّ على مناداتها باسم تريز، حيث قال إنه يفضّله على جوستين.

قال لها: «تريز، الفضيلة الأولى بمنزلي هي الأمانة. لو سرقت بنساً سأشنقكِ ـ فاهمة، يا طفلتي؟ إن ما نتمتّع به من ملذات صغيرة، أنا وزوجتي، هي ثمار كدّنا الطويل وربطنا الحزام على بطوننا. فهل تأكلين كثيراً، يا عزيزتي؟».

قالت جوستين: «شرائح خبز يومياً، يا سيدي، ماء، وبعض الحساء إن توفّر».

فقال السيد هيربن «حساء؟ حساء؟... ماذا أسمع؟ ـ انظري!» ودار لزوجته «ترين الرفاهية! تلك التعسة ماتت من الجوع مدّة عام، وتريد حساء! لماذا، نادراً ما يكون عندنا حتى بأيام الآحاد؛ فنحن نعمل كالعبيد بمطبخ سفينة. يا عزيزتي، سنعطيكِ ثلاث شرائح خبز يومياً، وزجاجة أحياناً من ماء النهر النظيف. ولو اقتصدتِ ورضينا عن خدماتكِ، فستنفحكِ زوجتي بنهاية العام ثوبها القديم، أما أنا فسأنفحكِ بضعة فرنكات فوق البيعة. آه، لن يجدي تقريباً ما تفعلينه هنا ـ لماذا، ستنجزينه في لمحة. كلّ ما عليكِ هو الغسيل، كنس ومسح الحجرات الستّ ثلاث مرات أسبوعياً؛ أيضاً تسوية فراشنا؛ الردّ على الباب؛ رشّ شعري المستعار بالبودرة؛ وكذلك قلنسوة زوجتي؛ ثم رعاية كلبي وببّغائي؛ العناية بالمطبخ؛ تلميع سكاكين المائدة؛ مساعدة زوجتي في تحضير الطعام؛ فيتبقّى لديكِ أربع ساعات أو خمس يومياً تنسجين فيها الكتّان والجوارب وأغطية الرأس ومثلها من التوافه المنزلية الأخرى؛ وهذا كلّ شيء. سيتوفّر لنفسكِ، كما ترين، يا تريز،

وقت وفير؛ يُسمح لكِ فيه بفعل ما تريدين بشرط، طبعاً يا طفلتي، أن تظلّي طيبة حذرة مقتصدة أمينة، والأساس ألاّ تكسلي أبداً».

أمّلت جوستين فيما هو أفضل، إلا أن الأشياء كانت تمضي معها لأسوأ حتى أحسّت أن أمامها خيار قليل، فتقبلت الموقف وبدأت مهامها فوراً ذلك المساء.

كان السيد هيربن جدّ مقتّر. فهو لا يشعل إنارة قطّ بحجراته بل يستعين بما يتخلل النافذة من مصباح الشارع المواجه. لا يعرف هو أو زوجته استخدام أيّ كتّان، مثل الملاءات والمناشف وفوط المائدة أو مفارش الموائد ـ حيث يعتبرانه التبذير الأشدّ جنوناً؛ وما تنسجه جوستين يقومان بخزنه في حرص بفجوات سريّة داخل المنزل كأنه كنز يجب إخفاؤه عن أعين الخلق. أما النبيذ ـ فلا يُرى أبداً حتى في حفلات العطلات. فالماء النقيّ، كما تقول مدام هيربن، شراب الإنسان الطبيعيّ، فهو أقلّ ضرراً وصحيّ أكثر.

ويعود نكران الذات عند السيد هيربن تقريباً إلى مسألة الغلوّ الدينيّ؛ وإنكار ذاته المستمرّ فضيلة كان يحسّ بها وكأنه في حضرة القدّيسين العظام ونسّاك الماضي. فلم يُشاهد قطّ وهو يُعاني من زلّة واحدة عن مُثله الزاهدة العالية؛ وحين يُقطّع الخبز بأوقات الطعام كان يضع سلّة تحت السكّين لالتقاط الفُتات المتساقط، حيث يُحفظ بعناية كبيرة إلى يوم الأحد، فيُحمّص في حلّة مع الزبد. ويأخذان هذا الطعام الشهيّ معهما كوجبة عطلتهما الرئيسة. ولم يكونا ينظّفان متاعهما وملابسهما المنزلية بأيّ وقت، خشية البِلى، ولم تكن فوضاها تثير لديهما أدنى انزعاج. كما يبطّنان بالحديد نعول أحذيتهما، وهي التي ابتاعاها يوم زفافهما منذ ثلاثين عاماً.

يعيش فوقهما بالمسكن رجل موسر، صائغ يملك مجموعة من

أروع المجوهرات التي وضع السيد هيربن عينه عليها من زمن طويل. وتسمعه جوستين غالباً يخبر زوجته عن علبة ذهب معينة يقول إنه يودّ لو يضع يده عليها.

لكن السيد هيربن يكره العبث بأشياء من هذا القبيل ويتمنى أن يعهد إلى جوستين بأمر نوال ذلك الكنز.

قال لها يوماً «عزيزتي تريز، السرقة إحدى وسائل اللصّ في إعادة أسّ توازن الثروة. يمكن للفقير أن يحسّن وضعيته بسرقة الأغنياء، لأن الأغنياء يستزيدون ثروتهم من نهب الفقراء. قانون طبيعيّ. كما أنه، يا عزيزتي، لا يُعاقَب سوى من يُحرز القليل من السرقات؛ وهناك بلدان يُنال فيها الشرف بالسرقة كالنوايا الطيبة، ويُكافأ فيها اللصّ على برهان شجاعته ومهارته ونُبله. لن يمسككِ أحد، ولو حدث، فسأعمل على إخراجكِ من الورطة بكلّ سهولة».

وسلّمها مفتاحين، واحد لمسكن جاره، وآخر لسردابه الصغير، وناشدها أن تمضي في الحال لجلب هذا الكنز؛ ومكافأة على خدمتها الرائعة وعد بأن ينفحها فرنكاً زيادة آخر العام.

صاحت جوستين «سيدي! هل يتمنّى سيّد أن يفسد خدمه هكذا؟ فمن سيُوقفني أخيراً عن التحوّل ضدّكَ بالسلاح نفسه الذي تضعه الآن بين يديّ؟ ومن سيكون الملوم لو جعلتكَ يوماً ضحية تعاليمكَ؟».

ولإخفاء حيرته تراجع السيد هيربن عن حيلته الخرقاء، وأخبرها أنه يختبر أمانتها بمقترحاته الغريبة، وأنها محظوظة برفضها إياه.

لكن جوستين دفعت الكثير من ردّها عليه بصفاقة، فمع المجرمين إما أن تسقط في حبائلهم أو تتفاداهم تماماً؛ ولو علمَت ذلك لوفّرت على نفسها قدراً من التعاسة. لكن تلك حكمة السماء حيث كلّ نبضة شرف تضاهيها محنة.

❑❑

لم يسبّب لها السيد هيربن مزيداً من المتاعب زمناً. بدا أنه يتجاهلها كلياً. لكن قرب نهاية خدمة سنتها الثانية بمنزله، وكان الوقت ليلاً بعد ذهابها للنوم، فُتح بابها فجأة في عنوة، فاندفع السيد هيربن يصرخ بوحشية، مع أربعة من الشرطة.

«ها هي!... هي!... المحتالة التي سرقت ألماسي! لا بد أنه مخبأ هنا بالحجرة!».

«أنا!... سرقتكَ أنتَ!... يا إلهي! كيف تتّهمني بهذه الفعلة!».

زاد السيد هيربن ضجيجه فلم تعد تُسمع كلمات جوستين. وعُثر على الألماس تحت المرتبة حيث خبّأه السيد هيربن نفسه؛ وصُفّدت جوستين فاقتيدت إلى السجن.

انتهت قضيتها بسرعة فائقة، فلم يكن معها مال ولا نفوذ سياسيّ لإثبات براءتها. ولم يهتمّوا بما دافعت به عن نفسها مقابل ما كِيلَ ضدّها من غرائب: فهناك سيدٌ يتّهم خادمة: وعُثر على الألماس بحجرتها: فهل تعرف أحداً ذا حيثية! - الواضح أنها لصّ. وحين حاولت إبلاغ القاضي بعرض السيد هيربن عليها سرقة جاره، وهو ما رفضته، تبيّن أنه يتّهمها الآن بالخبث، كما نظرت المحكمة إلى دفاعها على أنه اتّهام مضاد شائن. فالسيد هيربن مواطن مستقيم ثريّ، تُعجزه هذه التهمة. وهكذا أُدينت، بمزيد من اللغط، فدُفعت نحو زنزانة السجن في غِلظة.

الفصل الرابع

حُشرَت بزنزانة صغيرة مع ثلاث أخريات، إحداهن امرأة في منتصف العمر تُدعى مدام ديبو، وقد غمرت جوستين فوراً بعطف دافئ. ظنّت جوستين أنها وجدت في مدام ديبو روحاً شقيقة شفوقة، وهي الحاجة الصارخة لقلبها الملتاع؛ مما جعل رفيقتها الجديدة منفذاً لمتاعبها كلها. وكان اليوم ضجراً طويلاً فقطعا الوقت معاً في أشدّ الاعترافات رقّة وعاطفية.

ذات مساء أخبرتها مدام ديبو أن تظلّ يقظة ولا تنام، لأن لديها أصحاباً بالخارج سيضرمون حريقاً في السجن الليلة: «طبعاً ستحترق سجينات كثيرات حتى الموت؛ لكنه لا يعنينا طالما سنهرب».

نشب الحريق قرب الثامنة. ماتت إحدى وعشرون سجينة بالحريق. لكن هربت مدام ديبو وجوستين في أمان، وبمعونة أربعة من أصحاب مدام ديبو وصلوا كوخ شخص كان يحتكر أرضاً في غابة بوندي تلك الليلة.

صرخت مدام ديبو: «أخيراً تريز! ها أنتِ حرة كالطائر! ـ لكِ أن تفعلي ما يخطر على بالكِ! لكن اسمعيني، تخلّي عما تسمّينه الفضيلة، فلن توصلكِ، كما ترين، لأيّ شيء. ستوصلكِ النوايا الشريفة للحضيض، أما الجريمة فستُنقذكِ منه. ما نفع الخير بهذا العالم؟ فهو لا يستحقّ أن نُضحّي بأنفسنا من أجله. أنتِ شابة وجميلة يا تريز: بإمكاني أن أجعلكِ غنية خلال سنتين. لو أردتِ النجاح في الدنيا، يا

فتاتي العزيزة، فعلينا تتبّع أكثر من تجارة، وخدمة أكثر من سيّد. لكن أعملي رأيكِ بسرعة ـ فعلينا بالخروج من هنا فوراً!».

«مدَام ديبو، إني مدينة لكِ بالكثير! فقد أنقذتِ حياتي؛ مع أنني كنتُ أفضّل الموت على فعل ما يجلب الموت على الآخرين ـ حسرتاه، إني عاجزة! وأحسّ الآن بما أنا فيه من خطر كبير؛ لكن آه يا مدام، لا أزال أفضّل أشواك الفضيلة على منن الخطيئة المتألقة! فشكراً للربّ أن مبادئ ديانتي لن تتخلّى عني؛ وأنها جعلَت حياتي مؤلمة في هذه الدنيا، فسأُكافأ عليها في عالم آخر بعده! ومثل هذه الأفكار تعزّيني، تُسرّي عن أحزاني وتقوّي روحي وقت الشدّة!».

قالت مدام ديبو: «هراء! إن عدل الله! ـ ثوابه! عقابه! ـ كلّه كلام فارغ! ألا ترين أن ضراوة الأغنياء تُجبر الفقراء على العصيان! فلماذا لا يفتحون محافظهم لسدّ حاجاتنا؟ لو تحكّمت الإنسانية في قلوبهم، فستتحكّم عندئذ فينا الفضيلة! لا يقوّي أغلالنا غير محنتنا، صبرنا، إيماننا، ذلّنا. لقد خُلقنا جميعاً أحراراً متساوين بالفطرة؛ لكن لو خرجت المصادفة من النظام وهو قانون الطبيعة الأول، فلن يتبقّى لنا غير تصحيح قدرتها بقوتنا وأعدادنا؟ لأننا فقراء يا تريز، فهل علينا السباحة في المذلّة، هل علينا إرواء عطشنا بالحقد، هل علينا ردّ جوعنا بالحجارة! هل لكِ أن تجعلينا نُحجم عن الجريمة والقتل، وهو ما يفتح بوابات الحياة أمامنا؟ وطالما تستبدّ بنا هذه الطبقة فسنظلّ منحطّين، في العوَز والدموع! لا! لا! يا تريز، فربكِ إما مستغنٍ أو عاجز! هل تفهمين يا طفلتي، حين يضعنا ربكِ في موقف يستلزم الشرّ ويمنحنا في الوقت نفسه القدرة على الصلاح، فهو دليل على أن ربكِ يكسب من واحدٍ كما يكسب من الآخر!».

لكن كلمات هذه المخادعة لم تُهن إيمان قلب جوستين لحظة

واحدة؛ وكان ضميرها يدحض ببساطة مغالطات مدام ديبو. فأعلنت جوستين أنها لن تسمح لنفسها قطّ أن تفسد أو يتذبذب إيمانها ومبادئها.

قالت مدام ديبو: «إذن، افعلي ما يحلو لكِ! فسأدعكِ لمصيركِ. لكن لو انتكستِ مرة بالسخرية المميتة التي تكافئ بها الجريمة على الدوام الفضيلة، فتذكّري كلماتي!».

دار هذا كلّه بينما رفاق مدام ديبو الأربعة يحتسون حدّ الثمالة مع محتكر الأرض. وحين سمعوا قرار جوستين نهضوا من أمام المائدة للتشاور مع مدام ديبو، مما جعل جوستين ترتعد من الخوف. وتمثّلت الخلاصة فيما مُنح لها من خيار بين الإذعان لهم ونيل شيء مقابله، أو الإجبار على الإذعان والضرب حدّ الألم بضراوة. ألقت جوستين نفسها على ركبتَي مدام ديبو ترجوها أن تنقذها ثانية؛ لكنها سخرت منها.

قالت: «يا للجحيم! أنتِ طبعاً تعسة الحظّ ـ ماذا! ترفضين أربعة رجال فحول مقتدرين! ولماذا، أنتِ حمقاء صغيرة، فهناك عشرة آلاف امرأة في باريس على استعداد لدفع نصف ثروتهن ليحللن محلكِ!». وبعد قليل من التروّي، أضافت: «اسمعي! أنا الرئيس هنا وأستطيع إنقاذكِ ـ لكن بشرط واحد».

فانتحبت جوستين «ماذا أفعل، سيدتي؟».

«كوني منا وافعلي ما نفعل دون تردّد. فالتردّد يعني الموت. بهذا الشرط أنقذكِ».

وارتطم ما فيها من رعب بلمحات الرجال المهدّدة، فوافقت جوستين بسرعة وهي تقول: «أعد بطاعتكِ؛ فقط أنقذيني من هياج هؤلاء الرجال!».

قالت مدام ديبو: «يا أولاد! هذه الفتاة منا الآن، لا يجرؤن أحدكم على لمسها. ومن الأفضل أن ننشغل بشيء. أفلا ترون، قد تنفعنا؟ لنستخدمها لصالحنا، لا لملذاتنا».

لكن النبيذ تغلغل في رؤوسهم فلم يستطيعوا الإذعان، رافضين الإنصات إلى مدام ديبو. والتهموا جوستين بنظرات ناريّة موشكين على الفتكِ بها.

سألتهم مدام ديبو، وهي تتمنى أن تُجاري هياجهم: «ألا يستلزم الأمر أن تُبدي براهين على فضيلتها؟ ألن تنفعنا أكثر وهي خادمة؟».

فصاح أحد اللصوص، ويشبه الثور: «امسكوها! امسكوها يا رفاق! يستحيل أن نشبع أنفسنا بالطريقة المعتادة. ففضيلة الفتاة جدّ ثمينة علينا وعليها حتى لتفضّل صونها. لكننا سنشبع بطريقة ـ أيّ طريقة! ـ فدعوا تريز تعرّي نفسها الآن!».

قالت جوستين: «يا ربي! أتعرّى! ماذا تريدون؟ لو خليتُ نفسي أمام نظراتكم هكذا، أفلن...؟».

لم يكن لدى الرجل مزاج للتأجيل، فنهض يضرب جوستين بوحشية ليرغمها على الطاعة. أسندها إلى ركبتيه، وأجبرها أن تميل على بروزه، ضارباً إياها عنيفاً بهاوية صاعقة من يده المفتوحة. أهوَت بها لكماته الأولى، لكن أحدهم مسكها من الكتفين لتظلّ ثابتة أمام اللّكمات، فلم تستطع تفاديها، ازرقّ لونها ثم اسودّ من أثر اللّكمات. فانفجر قائلاً: «لو كنتُ مكانها لسلّمتُ نفسي بدلاً من كسر عظامي هكذا... أقسى! وأقسى!».

وضربها اللص الثاني براحتيه المفتوحتين على خدّيها، فمها، أذنيها، ثدييها، حتى استحال لون جلدها أحمر بنفسجياً. ترجّت منه الشفقة والدموع تطفر بخدّيها؛ لكن منظرها ظلّ يضاعف لكماته.

وكان الثالث مهووساً بالفسق، فأجبرها على الخضوع لخيالاته الهمجيّة.

أما الرابع فربط بكلّ منطقة من جسمها حبالاً، ومن بُعد ستة أقدام مسك الأطراف الأخرى صارماً بيديه. وبينما تلاطفه مدام ديبو وتقبّله كان يجذب الحبال بشدّة، وهو يضحك في خفوت جذلان طيلة الوقت. وجوستين تترنّح متهاوية كلّ مرة يجذبها بعنف؛ وقام أخيراً بسحبة مفزعة تهاوت بها جوستين قربه، وحمل صدرها وجبهتها وخدّاها علامات هياجه. وهكذا ظلّت تعاني، لكن عفّتها مصونة.

وما فتئ اللصوص أن شبعوا، حتى بدؤوا من جديد. وفي الليلة التالية ناموا تحت أكوام قشّ بضواحي اللوفر. وأمّلت جوستين قضاء الليلة جنب مدام ديبو، لكن كان مع السيدة رفاق آخرون، فأُرغمَت على النوم وحيدة. ذعرها متوتّر فلم يمنحها أية فرصة للنوم، وكانت في عزّ يقظتها منذ ساعات حين جاءها اللصّ قائلاً: «يا تريز الحبيبة، لن تُنكري عليّ سعادة قضاء الليل قربكِ؟». وليطمئنها أضاف: «لا تخافيني، سنتكلّم فقط ولن أفعل ما هو ضدّ إرادتكِ».

ثم واصل: «تريز! أليس من الحمق ادعاءكِ لنا بأنكِ عذراء؟ إن لم يكن ذلك لصالح أهواء العصابة، فهل تظنين أننا سنبقيكِ عذراء فترة طويلة؟ تعلمين علم اليقين أننا نجعلكِ تحتفظين بسحركِ ببساطة كي نمسك من خلالكِ بالمغفلين».

«ربي! يا ربي!... تعرفون أني أفضّل الموت على الدَنَس، فما نفعي لكم؟».

«نمسككِ لصالحنا أو لملذاتنا. لقد فرض حظّكِ العاثر هذا عليكِ. لكن، تعرفين يا تريز، أن كلّ شيء يستقيم بهذا العالم. فاسمعيني الآن، واتّخذي قراركِ: امنحي لي نفسكِ، يا فتاتي العزيزة، وحدي،

فاهمة، وسأنقذكِ مما يرتقبكِ من حياة حزينة».

صاحت جوستين: «أنا سيدي! أصبح خليلة...!».

«تعالي، لا تخافي - قوليها! قاطع طريق، أليس كذلك؟ أعترف؛ لكن ليس عندي ما أقدّمه لكِ غيره. تعرفين أن نظرائي لا يتزوّجون قطّ. فالزواج سرّ مقدّس، وكلّ الأسرار المقدّسة كريهة عندنا. أفلا تفضّلين، يا صغيرتي، أن تهبي نفسكِ لرجل واحد يصبح خليلكِ وحاميكِ عن اتّخاذ العُهر مع الجميع؟».

سألت: «لكن لمَ يتوجّب عليّ فعل أيهما؟».

«لأن الحقّ مع الأقوياء، وأنتِ ضعيفة. كما أنه من السخف أن ترفعي سعر مثل هذه التفاهة! كم تكون الفتاة ساذجة حين تظنّ العفّة تعتمد على فضلة لحم لا أكثر ولا أقلّ! من نوايا الطبيعة أن تنجز المخلوقات الحيّة جميعاً ما يوكَل إليها. ولأن المرأة مسوّغة لمتعة الرجل، فمن الجُرم بمخطّط الأشياء أن تقاوم. فعفّتكِ هذه، يا عزيزتي، تنأى عن خدمة الطبيعة، تميل لأن تعيقها. فدعي عنكِ هذا كله، يا فتاتي العزيزة، فكلّي رغبة في إسعادكِ، ولن أنتهز فرصة ضعفكِ، فأسرق منكِ ما تقدّرينه غالياً. للمرأة أكثر من هبة تقدّمها للرجل؛ وسأسعد بأهونها. هل تحتاجين، يا تريز، لقول المزيد؟ سنوافي هكذا إشباع سعادتنا. فجرّبي أرجوكِ، جرّبي وسنسعد كلانا!».

فردّت جوستين: «آه سيدي! لا أفهم الأمر برمته؛ ولو كان ما أفكّر فيه فهو الجنون بعينه لأيّ امرأة! إنه إيذاء للطبيعة بفحش ويد السماء تثأر له في الدنيا!».

«أيّ عفن يا عزيزتي، أيّ عفن! من علّمكِ كلّ هذا الهراء؟ لو خُلقت بذرة الحياة فينا بغرض التكاثر وحده، لضمنتُ لكِ أن الثقة فيما لا يستحقّ إساءة للطبيعة. لكن لو خلقت الطبيعة البذرة لأسباب أخرى،

واضحة للغاية، فماذا يهمّ لو ضاعت في مكان أو آخر. علاوة على أن ما لدينا من قدرة على وضع السائل الفعّال في غير موضعه يثبت حتماً أنه لا يضرّ الطبيعة. وفي قصره على النسل تدمير للبذرة يا تريز، مما لن يكون بعينَي الطبيعة سوى جرائم خيالية».

وجد بكلماته قوة فعالة أشعلت حماسته؛ فتمنّى أن تعرف جوستين الحقيقة الأشدّ قناعة مما يقول. ومع أنها لم تكن عمياء في غمرة سفسطاته، لتصون ما هو أغلى قيمة لديها، إلا أنها استعدّت للاستسلام، لكن أنقذها فجأة سماعهما رجّات عربة في الطريق السريع. فنبذ لذّته تواً متحولاً إلى الواجب؛ استدعى رجاله معاً، مندفعاً نحو جرائم منعشة. ثم عادوا مُحمّلين بالغنائم والدم على أيديهم.

قالت مدام ديبو: «دعونا نفترق! فلم يعد المجال آمناً هنا».

قسّموا الغنائم ومنحوا جوستين نصيبها، فلم تجرؤ على رفضه؛ ثم حزموا أمرهم وأسرعوا مبتعدين.

وجدوا أنفسهم اليوم التالي بغابة شنتلي، حيث قعدوا يحسبون ما حصّلوا من مال بقطع الطريق الليلة الماضية؛ ولم يجدوه كثيراً.

قال أحدهم: «الأمر لا يستحقّ طبعاً، أن نقتل هؤلاء مقابل القليل!».

صاحت مدام ديبو: «ليس بهذه السرعة، يا عجوز، ليس بهذه السرعة! فأنا التي أخبرتكم بقتل الرجال ـ ولسبب معقول. إن القتل والنهب متساويان بنظر القانون، فلماذا لا نقتل لنغطّي فِعلتنا؟ لا يجب أن نقدّر إلا ما يعنينا. فموت الرجال الثلاثة لا يعني لنا شيئاً ـ كما أنكم لا تبالون باللعنة سواء كانوا أحياء أو موتى. إذن لو نلنا أدنى مكسب بالتخلّص منهم لكنا سعداء. أما المشاعر الأخرى الوحيدة التي تورّطنا فهي المشاعر الأخلاقية، والمشاعر الأخلاقية زائفة دوماً؛ إن

المشاعر الحقيقية الوحيدة التي تستحقّ الانزعاج بشأنها هي المشاعر الجسديّة. ضعف أجسامنا، قلّة العقل، الأهواء الغبية التي رُبّينا عليها، وعود الدين الباطلة، والقوانين، هي التي توقف الحمقى عن التحوّل إلى مجرمين وأداء النوايا العظيمة! لكن القويّ النشيط يعرف موقع اهتماماته الحقّة، يهزأ بالربّ والإنسان، يتحدّى الموت، يزدري القوانين على قناعة عميقة بأنه وحده قياس لكلّ شيء!».

صاحت جوستين: «آه سيدتي، ألا تحسّين إدانة السماء مسطّرة في كلماتكِ؟ فمبادئكِ على ما يرام لدى رجل قويّ لا يخشى شيئاً؛ لكن الخارجين على القانون في خطر لازب، علينا إدراك معنى الكون الذي يسنّ حسامه المعلّق فوق رؤوسنا؟ كيف تتوقّعين ممن يعاند هوانا المشترك بألاّ يهلكنا؟ أليس المجتمع متّحداً ضدّه، وأنّى له بقتال الجميع؟ المجتمع مصون بتبادل المصالح المشتركة؛ لكن بدلاً من أن يقدّم بطللكِ المصالح، نراه يقدّم الجرائم. وسيتّحد البشر لتدميره بأيّ ثمن! حتى بيننا سيدتي، كيف تتوقّعين جهداً مجمّعاً وأنتِ تنصحينهم جميعاً باتّباع كلِ هواه! هل سترين أحداً منا خاطئاً حين يقتل رفيقه من أجل حفنة مال؟ هل تحتاج الفضيلة مني إلى برهان أقوى غير إثبات ضرورة بقائنا معاً!».

فردّ الزعيم: «ما تقولينه، يا تريز العزيزة، هو الحقيقة مجرّدة. فالفضيلة لا تحفظنا معاً ـ فقط تربطنا أهواؤنا الشخصية. وسبب أنني، أقوى العصابة، لا أقتل رفاقي هو أني في حاجة إلى عونهم. وللسبب ذاته هم لا يسدّدون خنجراً في ظهري. مثل هذا الباعث أنانيّ، مع ما له من مظهر الفضيلة. ما يسميّه المجتمع هواه ليس غير كتلة أهواء مُجمّعة. ولو لم يكن لديكِ ما تقدّمينه للمجتمع فما الأهمية التي تولينها لنفسكِ؟ أفضل ما يفعله المرء هو اعتزال المجتمع كلياً، والاهتمام بنفسه فقط، ثم الانضمام لمن يقاومون ذاتيته الجمعيّة. وهكذا ترين أن

الإنسان ولد حقاً أعزل أنانياً عنيفاً وطاغية؛ يريد كلّ شيء ولا يمنح شيئاً في المقابل. وسيقاوم على الدوام للحفاظ على طموحه وحقوقه بالشرائع والدم. ولنوقف حقاً إراقة هذه الدماء الخالدة نرى أن يستسلم البشر قليلاً لبعضهم البعض، لتكوين ما تسمّونه المجتمع. لا أجد خطأً في هذا الترتيب، لكني أومن حازماً أن الخاسر لن يخضع، فالمجتمع مرتّب لمصالح الأغنياء والأقوياء؛ ويجد الضعفاء ثوابهم الوحيد في عزاء أنفسهم على طريقتهم؛ وليس أمام المنبوذين مثلنا غير وسيلتين فقط، الجريمة أو الموت!».

ردّت جوستين بعنف: «آه سيدي! لو كان الإنسان معتدل الفكر أفلا ينشد تلك السعادة الخالدة التي تؤكّدها الفضيلة؟ ولو ضمنت، لصالح النقاش، أن الجريمة تهبكَ هنا السعادة لحظياً، أفلن ينتقم الربّ منكَ في عالم آخر؟ لا تصدّق ما عداه!». ثم واصلت دامعة «الجنة عزاء كافٍ للمبتَلين! ليس لكَ أن تحرمنا منه! لو قمنا باعتزال الناس هنا فسينتقم الربّ منا!».

«قد تُعزّي الجنة، يا تريز الحلوة، بعضنا، لكنها الهراء عينه. إن الفقراء يعانون! وهذا أحد قوانين الطبيعة. فوجودهم ضروريّ لحصول الرخاء. وهي حقيقة تجعل الطغاة والمستغِلّين محتَملين. مشيئة الطبيعة. حين يرغمنا أداؤها السريّ على فعل الشرّ فلأن الشرّ ضروريّ لمخطّطها. لا يرتعبنّ أحد أو يتأخّر لو أرغمته روحه على الشرّ. ليرتكب الجرائم دون أسف ساعة إحساسه بالضرورة! فالبشر بمقاومة هذا الباعث يعملون ضدّ الطبيعة. لا تدعينا نتكلّم عن الطبيعة فتاتي العزيزة، لأنكِ مؤهّلة للاّهوت. لقد ظنّ الإنسان البدائيّ بالفطرة، من رعبه بظواهر الطبيعة، أن هناك روحاً مجهولة توجّه الرعد والبرق؛ وطبيعيّ أن يخشى الضعفاء القوّة. وهكذا خلق عقل هذا الإنسان الطفل، العاجز عن فهم قوانين الطبيعة، كائناً جباراً على صورته حاكماً للكون؛

وقام بعبادته على هذا النحو. اخترعت كلّ عائلة منفصلة كائناً لنفسها؛ وعلى وجه الأرض نشأت أرباب كُثر بعدد العائلات. وأمكن تحت هذه الأوثان رؤية أولى ثمار العمَى البشريّ. كانوا ينحتونها بصور منوّعة، لكنها دائماً نفسها. والآن يا تريز، لأن الأوثان تتكلم بالهراء نفسه من صور خشبيّة فهل يجب على الحكيم التخلّي عن بهجته في الدنيا؟ هل يجب عليه، ككلب الخرافة، خسران عَظمته بسبب صورة؟ لا، لا يوجد ربّ! الطبيعة كافية بحدّ ذاتها، ليست في حاجة إلى خالق. فالربّ، كما ترين، يستلزم الخلق ضمناً ـ حيث لم يكن هناك شيء، أو حين كان كلّه فوضى. لو ساءت إحدى الحالتين الآن فلماذا سمح لها ربكِ بالوجود؛ وإن تميّزت، فلماذا قام بتغييرها؛ لو صار كلّ شيء على ما يرام الآن فماذا يتبقّى لربكِ أن يفعله؛ لو كان غير ذي جدوى فهل هو فاعل؛ لو تحركت الطبيعة من تلقاء ذاتها، فما نفع المحرك؟ لاحظي أنها مسبّبات متناقضة يدمر إحداها الأخرى! عليكِ بالاعتراف أن هذه الروح نابعة من الجهل والخوف. وهو هراء مطلق لا يستأهل الإيمان ولا اختبار لحظة من شخص ذكيّ! إنه تطرّف غبيّ كاره للعقل مقزّز للقلب؛ وعليه بالعودة للظلام حيث نبع!».

استعدّت جوستين لدحض سفسطاته الجاحدة، لكن طال سمعها صوت حوافر جواد.

صاح الرئيس: «إلى السلاح!».

فخرجوا. وعادوا بمسافر تعس الحظّ علم اللصوص أن اسمه فلورن؛ رجل أعمال من ليون كان بطريقه للعودة.

عرض عليهم كلّ ما معه دفعاً لسلامته. كان مبلغاً هائلاً، رضي عنه اللصوص. مع ذلك قال الرئيس، موجّهاً مسدّسه تحت أنف الرجل: «صديقي، تعلم علم اليقين أن ليس بمقدورنا أن نبقيكَ حياً!».

فاندفعت جوستين ترمي بنفسها على قدمَي الرئيس، وهي تصيح: «سيدي، أرجوكَ أنقذ حياته ـ لأجلي هذه الخدمة، أرجوكَ!». هلّت عليها فكرة أن تسهم في إنقاذ حياة الرجل فواصلت تخاطب أسيرهم «لماذا يا فلورن؟ أظنّنا نرتبط أحدنا بالآخر. لا يدهشكَ أن تجد قريباً لكَ في وضعي هذا. سأوضّح لكَ كلّ شيء لاحقاً». ودارت للرئيس ثانية فأضافت: «أنقذ حياة الرجل، وسأفعل ما تطلبه لقاء ذلك».

ردّ الرئيس: «تعرفين ما أريد، يا تريز الناعمة!».

فصاحت: «آه سيدي الطيب، سأفعل أيّ شيء ـ نعم، أيّ شيء!».

فأمرها الرئيس: «أبقوا عليه حياته! لكنه سيصبح واحداً منا!».

وبدلاً من إطلاق النار عليه، وافق التاجر على الانضمام إليهم. فمنحوه الطعام والشراب، ثم خلّوه يمضي للفراش.

لكن الرئيس عاد إلى جوستين وقال: «أتوقّع منكِ أن تبرّي بوعدكِ، لكنني منهك جداً الليلة. وأفضل أن ترقدي مع مدام ديبو. سأنتظركِ مطلع النهار؛ ولو قمتِ برفضي فالوبال عليكِ وعلى ابن عمكِ هذا!».

ردّت جوستين: «أحلاماً سعيدة! لن أفعل أكثر من البرّ بوعدي!».

بعد ساعات، ومزيد من الخمر، قبل أن ينبسط الرجال بمدار الأرض ويروحوا في النوم سكارى ميتين؛ خلّوا جوستين في عهدة مدام ديبو، وكانت سكرانة كالباقي.

امتدّ شخير النائمين الثقيل مزعجاً، امتدّ تدريجياً يمينها وشِمالها، مطمئناً جوستين أنها في أمان لو ذهبت لسجينهم المأخوذ حديثاً فتبادلت معه بضع كلمات.

همست له بهدوء: «سيدي، أنا أيضاً سجينة هنا، عافت نفسي منهم جميعاً. أعرف أنني لستُ قريبة لكَ ـ قلتُ ذلك لأنقذكَ. فلنهرب معاً ـ الوقت مناسب الآن! ترى أني أضع نفسي بين يديكَ. فارحم قدري التعس واحترم شرفي، وهو ما أعهد به إليكَ؛ فهو كلّ ما أملكه!».

أعرب فلورن عن امتنانه بكلام باذخ، لكن وقت الكلام كان لديهما جدّ قليل.

استردّت جوستين بمهارة محفظة فلورن فأعادتها إليه، ثم سلكا طريقهما مسرعَين بين الشجيرات القصيرة متّخذَين طريقاً يفضي للخروج من الغابة. وعند طلوع النهار وصلا سالمَين إلى بلدة صغيرة، حيث ارتاحا دون أدنى خوف.

من سلوكه وحديثه بدا فلورن شديد العطف. أخبر جوستين أنه سيلبّي آمالها. قال: «كلّ ما أرغب فيه هو ردّ الجميل الذي أظهرتِه نحوي. كما أدين لكِ بثروتي، يا تريز»، ثم أضاف وهو يقبّل يديها «وحياتي أيضاً. ليس لي إلا أن أهبكِ كليهما. فاقبليهما أرجوكِ؛ دعي زواجنا يربط عقدة صداقتنا بصورة حميمة!».

لم تستطع جوستين كبح جُماح تعبير الدهشة والإنكار في وجهها، وهو ما لاحظه؛ فحصر نفسه في مجرد طلب ما يمكن فعله لأجلها.

ردّت جوستين: «سيدي، إن كنت مخلصاً حقاً فيما تقول، فكلّ ما أريده منكَ هو أن تأخذني معكَ إلى ليون فتجد لي مكاناً ببيت محترم لا يتعرّض فيه شرفي وعفتي لمثل هذا الخطر».

صاح فلورن: «رائع! رائع! سأعمل قدر طاقتي أن أجد لكِ هذا!».

ثم سألها التاجر الشاب لماذا تركت باريس، مسقط رأسها؛ فحكت له محن ماضيها كلّها، ولماذا هي حالياً هاربة من العدالة.

فقال: «لو كان الأمر هكذا فقط، فسأنفعكِ حال وصولنا ليون. لستِ في حاجة للخوف من السلطات؛ فهي لن تبحث عنكِ في البيت الذي سأسكنكِ إياه. أعرف امرأة من الريف ستقبلكِ بكلّ سرور؛ سأقدّمكِ إليها غداً».

ولبثا بقية النهار في البلدة.

بدآ في الصباح التالي بعد فطور مبكّر رحلتهما على القدمين؛ وكان الطقس رائعاً، لكن على بعد أميال من مقصدهما قال فلورن، وقد صار أشدّ لطفاً: «أمامنا يوم كامل، فلنستمتع بوقتنا». وتكلّم من جديد عن دَينه بالفضل إليها وعن رغبته الكبرى في ردّ جميل ما فعلته من أجله.

تركا الطريق السريع قرب الظهيرة فاتّخذا مجازاً قصيراً عبر حقل مفتوح يفضي إلى ستار كثيف من الغابات، يندّس منه هنا وهناك شعاع شارد، ضمن زخرف من أخضر مسودّ، يخفي الشمس تقريباً، وكانت تخفق بشدة فوق رأسيهما.

لم يعد حولهما غير صمت عميق وعزلة، فكانت شقشقة الطير مقطّعة أشدّ كثافة. مع ذلك أحسّت جوستين بالراحة والطمأنينة. كان فلورن دمثاً لطيفاً؛ فاعتادت صحبته حتى نسيت وجودها؛ وقد فُتنت خلواً من الهمّ غافلة ببهاء المكان الخياليّ.

ظلاّ يسيران عبر مدقّ صغير، تمشي جوستين قليلاً أمامه، وحينما دارت لتسأله إن كان أمامهما الكثير على الوصول، صاح: «لا يا عاهرة!»، وألقى بها للأرض بوكزة من عصاه، فرقدت فاقدة الوعي...

حين استعادت مشاعرها وجدت نفسها مخدَّرَة تحت شجرة، يُجلّلها الدم والعار. مذهولة، عاجزة، وقد فقدت شرفها؛ فتمنّت الموت.

قالت: «الوحش! ماذا فعلتُ لأستحقّ هذه المعاملة الشريرة! لقد وهبته حياته، ورددتُ عليه ماله؛ لكنه بالمقابل سلبني الشيء الذي أعتبره أعزّ وأثمن ما عندي. آه أيها الرجال! لحظة أن تصيخوا إلى عواطفكم، تزمجر منكم ذئاب براري روسيا في ازدراء!».

وبعينين مفعمتين بالدمع، دارت غريزياً وقلبها منهار نحو السماء إلى البارئ العظيم المستقرّ هناك؛ فسقطت على ركبتيها تدعوه: «يا قادر يا خفيّ، أراكَ في هذه اللحظة الفظيعة تملأ روحي بالفرح السماويّ! آه يا مرشدي وحارسي، أتوق إلى ربوبيتكَ وأنشد رأفتكَ! فانظر إلى بلوتي وأساي! يا قدير، تعرف أني بريئة! وقد غُرِّر بي بينما كانت أمانيّ فعل الخير حسب وصاياكَ! فعاقبه يا ربي!».

تظلّ الصلاة أحلى سلوان للتعساء، فنهضت ملؤها الشجاعة، تجمّع ملابسها فتختفي وراء شجيرات كثيفة نامية. لكنها جدّ ضعيفة منهكة، فلم تستطع السير أبعد؛ لذلك رقدت محلّها، تُحكم عينيها في سأم وتروح في نوم عميق.

الفصل الخامس

استيقظت جوستين اليوم التالي، والشمس عالية في السماء. لحظة الاستيقاظ هي الأشدّ رعباً للمبتَلين؛ فالخيال يملأ الروح سريعاً، منتعشاً مفعماً من عذوبة النوم، بتذكارات مؤسّية.

قالت: «أيستحقّ الأمر أن نولد في هذه الحياة؟»، وساحت دموعها دافقة. ولم تكد تمسحها حتى سمعت صخباً قربها، ورأت رجلين خلفها عند شجيرة تُخفيها.

قال أحدهما: «تعال يا عزيزي. نحن في مأمن هنا. لن تعيقنا الآن عمّتي البغيضة في غمرة ملذّاتنا الأثيرة!».

كانت جوستين في منتهى الفضول فلم يحِد بصرها عما يفعلان؛ أمام عينيها مشهد وجدته غريباً، فلم تستطع تبيّن مغزاه. كان من منح نفسه للمهمة في حوالي الرابعة والعشرين، بمظهر أرستقراطيّ. ويبدو الآخر أحد مواليه.

وحين أوشكا أخيراً على العودة. اقترب السيد مصادفة من الشجيرة التي تُخفي جوستين فلمح قلنسوتها.

نادى تابعه مسرعاً: «ياسمين! كُشفنا! هناك فتاة شهدت أسرارنا! اخرجي يا مومس، هيا!».

فخرجت جوستين ترتجف، وسقطت أمامهما على ركبتيها.

تبكي: «آه سادتي، ارحموا فتاة بائسة، تعسة الحظّ!».

لكن الكونت بريساك، وقد سقطت بين يديه، كان يهب القليل من نفسه لعواطف الرحمة؛ والأدهى أنه ينفر من جنس الأنثى.

جأر فيها: «بلهاء! لا تؤمّلي التبسّط منا، وجرّبي فكرة أخرى! فلا نفع منكِ لدينا للأسف، وتتوقّعين الشفقة؟ لكن قولي يا لعنة غبية، ماذا رأيتِ حولكِ؟».

قالت: «سمعتكما تتكلّمان على العشب، لا غير».

«عليّ أن أصدّقكِ؛ لو خطر في بالكِ أنكِ رأيتِ شيئاً آخر، فلن ترحلي من هنا حيّة! ـ ياسمين، لا يزال الوقت مبكراً. لنسمع أولاً ما تقوله الفتاة ثم نقرّر ما نفعله بعدها».

جلس الشابان، وقرّبا جوستين لتروي كلّ ما وقع لها من بلايا منذ دخولها الفاجع في هذا العالم الفظيع الكئيب.

حين أخبرتهما كلّ ما استوجب قوله، قال الكونت بريساك: «ياسمين، لنتخلّص منها ـ فهي مزعجة. لنقتلها، ما رأيكَ؟».

سحباها خلف الشجيرات، وهما يسخران من دموعها، نحو بقعة جرداء وسط أشجار كثّة.

قال الكونت بريساك: «لنربط يديها وقدميها إلى هذه الشجرات على هيئة مربّع».

خارج هذه الدائرة، كانت ربطتا عنقيهما وبضعة مناديل حبلاً يكفي لتقييدها بأقصى طريقة مؤلمة. وبهبوطها على الأرض، أوشك بطنها أن ينفجر بأية لحظة؛ وظنّت أنهما سيمزُقان ساقيها. كانت تحسّ بالحياة من عنف آلامها. لكن وضعيتها وآلامها ظلّتا مصدر سعادة للرجلين، فحضن أحدهما الآخر متسلّيين بمرآها.

قال الكونت أخيراً: «كفى. سأدعها تهرب هذه المرّة ـ تريز»، ثم واصل وهو يفكّها: «لو كتمتِ أمرنا وفعلت ما تؤمَرين، فلن تندمي. عمّتي في حاجة لامرأة تُعينها بالمنزل. سأوصي بكِ إليها؛ لكنني المسؤول عن سلوككِ. فتذكّري، لو أسأتِ لعطفي أو خُنتني، أو رفضتِ الإذعان لرغبتي ـ فتذكّري هذه الشجيرات الأربع!».

نسيت على الفور آلامها فألقت بنفسها على قدمَي الكونت تُقسم ما بين دموعها أنها رهن إشارته على الدوام.

قال: «أحسنتِ. لنذهب؛ فسلوككِ الطيب هو ما سيحدّد مستقبلكِ».

تبعتهما في صمت ذليل، بينما أخذ ياسمين وسيده يتهامسان معاً. نحو أقلّ من ساعة وصل الكونت بريساك قلعته، حيث دلّ جوستين على حجرة صغيرة وأخبرها أن تنتظر حتى يعودا إليها. أحضر لها ياسمين شيئاً تأكله. ثم عاد الكونت الشاب على التوّ؛ فاصطحب معه جوستين ليقدّمها إلى عمّته الكونتيسة بريساك.

الكونتيسة بريساك امرأة بنهاية الأربعين، طيبة بسيطة. أما زوجها، عمّ الكونت الشاب، فتوفّي من زمن، ويعتمد دخل الكونت بريساك على سخاء عمّته؛ فما منحه إياه والده لا يكفي مؤونة هذا المنزل البديع، أو يغطّي نفقات ملذّاته .

تقضي الكونتيسة ثلاثة أشهر بالسنة في منزل ابن أخيها؛ أما باقي السنة فتُمضيها في باريس. وتُعتبر هذه الأشهر الثلاثة بلوَى، عليه تحمّلها لأجل فلوسها.

حين سمعت الكونتيسة بمتاعب جوستين، قالت لها: «يحزنني أن أسمع ما مررتِ به من محن، وكلّي تصديق لما أخبرتني إياه. سأتحقّق فقط من أنكِ ابنة من ذكرتِ، وأعرف أنه كان مصرفياً بارزاً في

باريس؛ وهو سبب آخر يستدعي اهتمامي بكِ. أما سيدك السابق، السيد هيربن، فسأسوّي معه الأمر عند رجوعي باريس. سيسهُل عليّ إثبات براءتكِ عند المستشار، صديقي القديم؛ سيفعل ما أطلبه منه. لكن يا تريز، سأنفّذ ما وعدتك شريطة أن تدلّيني على الحقيقة».

فشكرتها جوستين بحرارة. وصارت خادمة غرف النوم.

وخلال أيام ثلاثة أكّدت الاستفسارات التي قامت بها الكونتيسة في باريس حكاية جوستين. فسُرّت الكونتيسة بعلمها الحقيقة. وتلاشى الآن الخوف كلّه من مزيد من المحن في بال جوستين.

الفصل السادس

كان الكونت بريساك شديد الوسامة، خصره وملامحه يكذّبان جنسه الحقيقيّ. لكن يا لها من روح يخفيها تحت مفاتنه الأنثوية؛ فهو أنانيّ ضارٍ مزدرٍ لكلّ خلجة عطف. مع ذلك، بعد أن ألفته جوستين ارتأت أنه يشقّ عليها بغضه. أحسّت نحوه، في الواقع، بعاطفة لا طاقة لها بالتغلّب عليها. على الرغم من معرفتها بضراوته، نفوره من النساء، غرابته، أهوائه الشاذة، لم تستطع مقاومة انبثاق عاطفتها إليه. لو طلب حياتها لضحّت بها ألف مرة من أجله. لكنه لم يشتبه قطّ في عشقها إياه، أو اكتشف سبب دموعها اليومية؛ مع أنها لو استعدّت لدفع أمانيه لمنحته لمحة عن مشاعرها. لكن مسلكها نحوه فاز، عموماً، بثقته؛ وامتنّت بهذا القدر الضئيل.

أخذت جوستين على عاتقها أحياناً حرية تأنيبه بشكل لطيف على إفراطه، وهو ما يتلف صحته كثيراً. كان ينصت إليها بسماحة وينتهي الأمر بتبليغها أنه لا يقوّم أحد نفسه من الرذيلة مثله.

صاح متحمّساً: «آهٍ تريز! لو عرفتِ ما نناله من بهجة مطلقة بالوهم اللذيذ ألاّ نعود رجالاً، بل نساء! تناقض سعيد للعقل: أن نعاف الجنس ومع ذلك نحاكيه! آهٍ تريز، كم هو لذيذ ومبهج أن أكون الجائر بين كلّ من يرغبكِ! يا له من هذيان! يا لها من بهجة! أن تكوني باليوم نفسه عشيقة حمّال، مركيز، خادم، دوق! أن تلاطفي، تُهدّدي، تُرهبي بالعبوس والغيرة! الآن بين أذرعهم الظافرة، ضحية

المهرجان ـ تهدئينهم ـ تطلقين العنان لنيرانهم! آه لا، لا! يا تريز، ليس لكِ بلوغ هذه اللذة! سيتنحّى عنكِ الجانب الأخلاقيّ، لو تصورتِ المشاعر الجسدية من هذه الممارسات القدسيّة! ـ يستحيل مقاومتها! فاللذّة جدّ عنيفة، دغدغة خاطفة وحادّة... تُفقد المرء عقله، فيتكلّم بالهُراء...! ألف قبلة، كلّ منها أشدّ عاطفة من غيرها... التقلّب بين ذراعَي عاشق، فماً في فم، منتشيَين بكيان واحد! شكوانا الوحيدة لو نُهمَل مرة. نحبّ عشاقنا أن يكونوا أقوى من هرقل. لا تتخيلي يا تريز أننا كالرجال الآخرين؛ فمنشأنا مختلف. إننا حقاً نساء؛ فلا توجَد لذّة تعرفينها ونجهلها. وهكذا ترين أن حبنا المفتون يجعل تقويم أهوائنا مستحيلاً؛ فهو يُحيلنا مجانين لو كُبحَت ملذّاتنا!».

❑ ❑

لم تكن الكونتيسة بريساك تجهل طابع حياة ابن أخيها المستهترة، وتفعل ما تستطيع لتعيده إلى درب الفضيلة. لكنها تفعله بكثير من الصرامة. وكي يغيظها، منح نفسه كلياً لملذاته بانغماس كبير؛ ومما يثير متاعبها أن تنال الكونتيسة بالمقابل مقتاً أكبر. ولزيادة بؤسها أحاطها بحشم لخدمة عواطفه فقط؛ وقد تمادى فأعلن أنها لو تدخّلت في ملذاته لأقنعها بسحرها أمام عينيها.

وكانت تفسح المجال غالباً لدموعها؛ فيمنحه بؤسها الرضا البالغ؛ وحين تذكّره جوستين بما يحدثه من مآسٍ لعمّته يغضب نافد الصبر.

يقول لها غالباً: «لا تتخيلي عمّتي جيدة معكِ طوعاً. تعرفين أنه لو لم أذكّرها طيلة الوقت، فلن تتحيّن الوعود التي أبرمتها معكِ. فهي تتباهى كثيراً بما فعلَته لكِ؛ في حين أنه من عملي أنا. نعم يا تريز، أنا وحدي الذي عليّ أن تديني له بالعرفان. لا يهم قدر جمالكِ، فضعي

في بالكِ أني لا أنشُد خدماتكِ؛ لا يا تريز، ما أتوقّعه منكِ مختلف تماماً. حين تقتنعين أنه أنا الذي فعل الخير كلّه من أجلكِ، أتوقّع أن تتبعي هواي».

ارتأت جوستين أن سبب مقته العنيف لعمّته عصيّ على الفهم؛ وكلّما ظنّت أنه انتهى زاد عجبها؛ أما ما يصدر عنه من تلميحات متفائلة غامضة فلا تعرف قطّ كيف توافيها، وتفعل ذلك عشوائياً بكثير من المراوغة الظاهرة. وفكّرت أن تُغريه بحلاوة الفضيلة. لو نحّينا جانباً مسألة هدايته، لرأينا الكونت عموماً عدوّ متحمّس لأسرار الفلسفة، مؤمن عتيد بكلّ ما يعمل ضدّ كلّ عقيدة، وخصم هائج لوجود الخير، يسعى لإفساد إيمانها الغَيور.

قال: «تريز، كلّ فضيلة ولدت من مبدأ فاسد. لو تطلّبت القوانين المتحكّمة بالطبيعة النابعة من أفعالها وردود أفعالها، جوهراً أولياً ضرورياً، فماذا سيصبح بعدها حال هذا المهيمن؟ ما الفضيلة إن لم تَحُل دون طغيان القويّ على الضعيف، أو الغنيّ على الفقير، أو المستبدّ على المُستبَدّ به! مفعمة بإرادة القوة، تسبك أصوات الفضيلة سلاسل فتوثق بها البشر. والبشر، مُخدّرين ببؤسهم، يؤمنون تلقائياً بما يُقال لهم. هل تستطيع الفضيلة، من تلقاء هذه البواعث، نيل احترامنا؟ وهل هناك حقيقة واحدة لا تحمل سمت البهتان والأكاذيب؟ فماذا نجد فيها: ألغاز تُسبّب علّة الرعدة؛ عقائد تزدري الطبيعة؛ ومراسم تستلهم النفور والهزء!

«هل لإنسان، مهما كانت مسحة وجه الأرض فاضلة؛ أن يدمّر الطواعين المبتَلاة بها؛ هل له أن يمحق الإثم الذي يُحيلها حمقاء؛ هل نكون أكثر سعادة؟ ثم ماذا يفعل المدّعون؟ يعلن أحدهم عن نفسه للعالم عبر حِيَل وألاعيب المشعوذين. ولمن؟ فقط لمن هم وضيعون

وعبيد وومومسات مما يُبدي للحاكم القدير عظمته: بالشراب مع واحد والنوم مع آخر، يُجبر الخطاة القساة على الإذعان لإرادته؛ بخيالاته ومساخره، يشبع الوغد شهوته ونهمه للبرهان على رسالته. يصنع حظّه! وقد تجدين، طبعاً، كثيراً من الأوغاد ينضمون للمحتال فيشكّلون طائفة. يفوز هراء هذه الدهماء بثّلة من المتعصّبين: وقبل أن يوثق التعصّب الطويل عقل الرعاع؛ تزعق النساء؛ يجلد الحمقى أنفسهم؛ يصدّق المغفلون؛ ثم يراه أحقر المخلوقات، أحمق الأجلاف، أسوأ الدجالين على مرّ التاريخ ـ هادياً ـ يرونه مثال الفضيلة! يرون هذيانه قُدسياً، أكاذيبه عقائد قُدسيّة، حيله المغفّلة ألغازاً!

«حتى من ندعوهم مفكّرين يصدّقون بياناته. قال كذا، فهو كذا. لو وجدت الفضيلة الحقّة في العالم، كما تنادين، فهل تنجو من هذه المقاصد العبثية؛ هل تمرّ من فم هؤلاء الأنذال لتبدي نفسها؟ ألا يؤثّر باعث النجوم في السماء على قلوب البشر؛ أليست مُسطّرة وسط السماء قوانين إسعاد البشرية جمعاء من ركن إلى آخر في هذه الأرض؟ هل تشير فضيلتكِ الثمينة للرغبة فقط في معبودكِ هذا، الحقير الوضيع والوغد الماكر الذي يعيش بركن مجهول من آسيا؟ لا يا تريز، إني أفضل الموت ألف مرّة عن السقوط في ذلك الكرش!».

ردّت جوستين «آهِ سيدي! لمَ تحرم فتاة تعسة الحظّ من أملها العذب الوحيد؛ لمَ تمحق من قلبها سلواها الوحيدة؟ إيماني راسخ بأن اللّطمات المسدّدة للفضيلة تعود غالباً لآثار من الشهوة والتفريط. فكيف أضحّي بأعزّ زهرة في خيالي، أعزّ لؤلؤة في قلبي، لقاء هذا التجديف، لقاء هذا اللّغط المرعب؟».

وأضافت اعتراضات أخرى كثيرة. لكن الكونت ظلّ يسخر منها؛ وبفصاحة متّقدة، كان يدلي بأقوال من كتيبات لم يسعد الحظّ جوستين

بقراءتها، فيواصل التهجّم على عقائدها؛ لكن ذلك كلّه لم يوفّق حقاً في تقويضها.

على الرغم من آرائه العنيدة ظلّت جوستين متيّمة بغرام الكونت، وكلّما حاولت قتل عاطفته تزدهر بروحها. وهل من شافٍ للحبّ والشرّ؟ كلّ علّة وجدتها لمعارضته كانت تزيد من شعلة لهيبها؛ وكلّما رأت سبباً لبغضه زاده فتنة.

الفصل السابع

انقضت خمس سنوات بسرعة. كانت سنوات سعيدة على جوستين، حيث ظلّت تراعي الكونتيسة. والكونتيسة امرأة فاضلة ورعة قد يحيط خيرها جوستين للأبد. الأشهر التسعة كلّ سنة اللتان تقضيانها في باريس سعيدة للغاية. أما الأشهر الثلاثة الأخرى في قصر الكونت بريساك الريفيّ، فيفسدها ظلّ ملذاته ومزاحه المفرط حيث يُطبق على سعادتهما؛ لكن يُعزّيها أنها قُرب من تحبّ، تتنفّس الهواء الذي يتنفّسه، وتراه وهو يروح ويجيء.

الوقت متأخّر بالصيف، وتقيم جوستين مع سيّدتها بمقرّ الكونت الريفيّ.

لم يكن الكونت بريساك قد بدأ يخطّط لمكائد معينة يدبّرها منذ زمان ضدّ عمّته؛ مع أنه بعث إشارات عديدة هيّنة غامضة إلى جوستين، فنالت رغبتها الطيبة منه أكثر من اعتراف. لديه ثقة كاملة في ولائها له، وله وحده.

ذات مساء بعد أن ذهبت لتنام فتح الباب المفضي لحجرتها يطلب منها السماح له بالكلام معها. كلّ دقيقة من وقته يمنحها إياها تراها جوستين عصيّة على الرفض. دخل فأغلق الباب حريصاً خلفه، وجلس جنبها على حرف السرير.

قال مرتبكاً نوعاً: «اسمعي يا تريز، عندي شيء مهم أودّ أن أخبركِ به. اقسمي أنكِ لن تُفشي سري قطّ».

قالت وهي تتظاهر بالألم: «سيدي، كيف توسوس لكَ نفسكَ أني قد أخون ثقتكَ؟».

«آه، ليس عندكِ فكرة عن قدر الجزاء لو اكتشفتُ أني أخطأتُ ثقتي فيكِ!».

«أسوأ أحزاني أن أفقد ثقتكَ ـ لا أحتاج أية تهديدات أخرى!».

«حسن يا تريز، إذن: قررتُ منذ زمان أن تموت عمتي؛ وعليكِ بمعاونتي».

فشهقت وقد ألقت رأسها للخلف بدهشة صاعقة: «معاونتكَ! آهِ سيدي، أنّى لكَ أن تفكر في شيء كهذا! لا، لا! اقتلني إن أردت، ولا تطلب مني فعل هذا!».

«اسمعي يا تريز، لا يُدهشني رفضكِ. لكني لا أرى ما هو خطأ في نواياي. في هذه الحالة، طبعاً، هناك اعتراضان يطرحان نفسيهما أمام عينيك المتوفّزتين: الأول، قتل مخلوق رفيق؛ والثاني الشرّ المتورّط فيه. لكن اطمئني، فتاتي العزيزة، من قلقكِ الحادّ على ما نتورّط فيه من جريمة بقتل شخص مثلنا، فهو ليس إلا حماقة. لأن قوة القتل ليست مرصودة للإنسان؛ أقصى ما يمكن فعله ليس غير تحوّل لأشكال هذا القتل. ولأن كلّ شكل متساوٍ بنظر الطبيعة، فلن نخسر شيئاً لو قمنا بتحويله. فالتحوّل يُديم قوّتها ويحفز طاقتها الحركيّة... آه! وماذا يهمّ رَحِمها الخلاّق لو كان الأمر لحماً اليوم وغداً دوداً! هل لأحد بالقول إن قتل حيوان بقدمين يكلّف الطبيعة أكثر مما تكلّفه دودة صغيرة؟ لو أثبتّ لي أن قوانين الطبيعة تقلقها هذه التحولات العنصرية، فسأؤمن أن القتل جريمة. لكن أبحاثي تبيّن لي أن كلّ ما ينمو على سطح هذا الكوكب متساوٍ في نظر الطبيعة، فليس لي أن أقنع نفسي بأن

تحوّل واحد من هؤلاء ضمن ألف من الآخرين إجراميّ قطعاً. فالحيوانات، الأسماك، النباتات، الخضروات، تغذّي نفسها، تقتل نفسها، تكثّر نفسها بالطريقة نفسها؛ لا تموت قطّ؛ فقط تحوّل نفسها بفصائل مختلفة. ولأن التحلّل ضروريّ لمخطّط الطبيعة، حيث يستحضرها فيه، إلا أنه فعل من نمط إجراميّ، لكنه منسجم فعلياً مع قوانينها. آهٍ تريز، إنه خُيلاء الإنسان الذي يدّعي أن القتل جريمة. هذا المخلوق المختال يظنّ نفسه أسمى ما في الأرض، وقد أسّس المبدأ الزائف أن قتله مشين؛ مع أن رغبته الساطعة تتجلّى في التخلّص ممّن هم أدنى منه. لكن خُيلاءه لا تُبدّل الطبيعة. وإن كانت هذه الأفكار تأتينا من الطبيعة ذاتها، فهل يصحّ أن تكون غير طبيعية؟ إن العواطف بضع وسائل تستغلّها الطبيعة لإنجاز مخطّطها. فهل هي في حاجة للأفراد: إنها تستلهم الحبّ ليستمرّ تكاثر الأنواع. هل يُعتبر القتل من مستلزماتها: فهي تزرع فينا الشهوة، الطموح، الكراهية، القتل. لكنها لا تمنحنا قطّ قدرة ارتكاب الجرائم التي تشوّش تدبيرها. فهل خلقتنا لنملك قوة التصرّف ضدّها؟ أليس القتل ضرورياً لمخطّطها وقد سمحَت به؟ فأنّى لها بالتبرّم حين ترى إنساناً يفعل ما تفعله كلّ يوم؟ لو أنها تتكاثر بوسائل القتل، أفلا ينسجم معها فعل ما هو شبيه؟ وعليه فإن الكائن الكامل هو من يسبّب نشاطه التحوّل الأقصى. أما الكائن الهامد فهو صاحب الفضيلة، لأنه ينشد السكينة، يغمر كلّ شيء في فوضى لو سمحت له الظروف. يجب علينا إذن صون هذا التوازن؛ وهو ما نبلغه فقط عبر التحوّل، أعني الجريمة!».

فدافعت جوستين: «لكن من تودّ التخلّص منه هو عمتكَ!».

«كانت هذه مجرّد دعوى طائشة في نظر الفيلسوف! ولن أحدّثكِ عنها ثانية ـ فلا جدوى. هل تحملِ هذه الروابط الضعيفة، ثمرة ما فينا

من غريزة القطيع، وَسْماً فارقاً في نظركِ! نحّي وساوسكِ جانباً يا تريز، واخدميني؛ فتنمو ثروتكِ».

فهتفت من الفزع: «آهِ سيدي، إن عدم التمييز الذي تراه بالطبيعة هو ناتج طريقتكَ الخاصة في النظر إليها؛ لكن أنصت لقلبكَ واسمعه يُدين حججكَ الزائفة. أليس القلب أيضاً من خلق الطبيعة؛ لو نُقش فيه رعب عميق مما تخطّط له، أفلا يعني ذلك أنه في عقيدتها إجراميّ؟ إن عواطفكَ تُعمي عقلكَ الآن. ولو ارتكبتَ جريمة قتل، فسيُعذّبكَ الندم غداً. آهِ يا سيدي، احترم أيام عمّتكَ الأخيرة، صديقتكَ العزيزة، ولا تُضحّ بها لقاء عواطفكَ! ففي كلّ يوم وكلّ مكان من بعد سترى صورتها أمامكَ؛ ستسمع صوتها الحزين وهي تصيح بأسماء من منحوكَ البهجة في صغركَ. ستقلق ساعات يقظتكَ وتعذّبكَ في منامكَ. ستفتح بأصابعها الرمادية جراحاً أصبتها بها؛ ولن تجد لحظة هناء فيما بعد؛ ويد السماء التي نسيتَ قدرتها ستثأر من صنيعكَ!».

سقطت على ركبتيها وبدمعها راحت تستحلفه بكلّ ما يؤمن بقدسيّته أن يضرب صفحاً عن خطّته الشريرة. وأقسمت أن تكتم طيلة عمرها ما نوى أن يفعله.

لكنه نهض ببرود قائلاً: «أرى بوضوح أني أخطأتُ معكِ؛ أشعر بالأسى عليكِ. كما سأجد شخصاً آخر. لكن ستُقاسين على أي حال، دون أن تنالي شيئاً من سيدتكِ».

بدّل هذا التهديد الصريح أفكار جوستين فوراً؛ وبعد تروٍ مع نفسها ادّعت التوافق مع أمانيه. لكن كذريعة، لتغطّي حيرتها ومفاجأة تبدّل رأيها، طلبت منه تكرار دعاواه. وبدأت تستسلم قليلاً لقوّة منطقه؛ مما جعل الكونت يؤمن فعلاً بظفره عليها أخيراً بمنطق حجّته. أذعنت

لأفكاره كلياً في النهاية؛ ولفرحته عانقها.

قال: «أنتِ أول امرأة أقبّلها. أنتِ طفلة فرحة. ثقبت الحِكمة عقللكِ أخيراً؛ فلا يمكن لهذا الرأس البديع أن يظلّ في العتمة طويلاً؟».

وأوجز لها بحرص مخطّطه الكامل. عليها، خلال يومين أو ثلاثة، بأول فرصة تسنح لديها، أن تدسّ بعضاً من السمّ بكوب الشكولاته الذي تجرعه الكونتيسة كلّ صباح عند نهوضها. ووعدها بألفَي فرنك يوم تنفيذ هذا.

❑ ❑

بعد يومين من اللقاء الأخير علم الكونت بوفاة أحد أعمامه، وقد خلّف له إرثاً طائلاً.

لدى سماعها الأنباء قالت جوستين لنفسها: «آه يا ربي! أهذا جزاء المجرم؟». لكنها ندمت حالاً على هذا التجديف، فسقطت على ركبتيها تطالبه الصفح؛ لأنها بعد التروّي ابتهجت حيث أحسّت بأن هذا الحدث غير المتوقّع قد يبدّل نيّة الكونت. وكانت مخطئة، طبعاً.

فقد جاء ركضاً لحجرتها تلك الليلة يصرخ: «تريز، كم أنّي محظوظ! أخبرتكِ أن الجريمة هي غالباً الطريق الوحيد لنيل السعادة».

قالت جوستين: «سيدي. آمل أن يؤثّر عليكَ هذا الحظّ المفاجئ في أن تنتظر الوفاة الطبيعية لعمّتكَ العزيزة».

فردّ بسرعة: «أنتظر! من أين أتتكِ هذه الفكرة؟ تنسين أني في التاسعة والعشرين، وأني أكبُر! لا، لن نبدّل شيئاً بخطّتنا ـ غداً؛ أو بعد غدٍ على الأكثر!».

استغرق منها جهداً كبيراً كتمان مشاعرها الحقيقيّة. أيقنت أنها إن

لم تنفّذ الجريمة خلال يوم أو اثنين فقد يتشكّك الكونت بنواياها الفعلية. ولو حذّرت الكونتيسة، ولا يهمّ أيّ إجراء ستتحمّله، فقد يسرع الكونت، حين يجد نفسه مخدوعاً، بقتل كليهما. قرّرت أخيراً وضع الكونتيسة في حمايتها؛ قالت لها ثاني يوم: «سيّدتي، عندي شيء بالغ الأهمية سأكشفه لكِ؛ لكني لن أحير صمتاً إن لم تعديني ألاّ تؤذي الأطراف المتورّطة. أنا على يقين من أنكِ ستتصرّفين، سيدتي، بصورة شريفة؛ لكن لا يجب أن تنبسي ببنت شفة».

ظنّت الكونتيسة أن الأمر يتعلق بإحدى حماقات ابن أخيها؛ فأقسمت على جوستين أن تفعل ما تمنّت.

فقامت جوستين بكشف المسألة برمّتها إليها.

صرخت الكونتيسة: «الوحش! ماذا فعلت لأستحقّ منه هذه الضغينة؟ كنتُ أقوم على تهذيبه أحياناً لمجرد إسعاده. ألا يدين لنفوذي على أخي بالثروة التي وَرِثها مؤخّراً! لا أصدّق! عليكِ بالبرهان!».

أبانت لها جوستين عن زجاجة السمّ الصغيرة التي أعطاها إياها الكونت؛ فتراجع شكّ الكونتيسة. جرّبت بعضه على كلب، فمات الحيوان المسكين للتوّ بعد تشنّجات مفزعة. حدّة السمّ إذن فعّالة للغاية.

بنوبة غضب عمياء بعثت الكونتيسة رسالة لأحد أولاد عمّها في باريس، تطلب منه الذهاب للوزير المفوّض لمخاطبته في اتّخاذ إجراءات ضدّ ابن أخيها؛ كما رَجته أن يأتي لينقذها من براثن الوغد. لكن وقعت الرسالة بيدَي خادم، كان مجهولاً للكونتيسة وأحد عشّاق الكونت؛ تشكّك بوجود خطأ، فنقل الرسالة للكونت، الذي خرج مسرعاً من حجرته ثائر الجوانح.

حين صادف جوستين ابتسم لها كالعادة قائلاً: «تريز، وجدت

طريقة آمن لفعل هذا، لكنها تتطلّب إرشادات طويلة. فقابليني بركن الحديقة في السابعة الليلة، وسنتنزّه قليلاً لأوضّح لكِ كلّ شيء». لم تتشكّك جوستين قطّ باكتشافه ترتيبها السريّ مع الكونتيسة، فوعدت بلقائه؛ فهي على الرغم من كلّ شيء تسعد بصحبته دائماً في داخلها. وظنّت ثانية في بقاء بعض الأمل أن تُثنيه بالعدول عن تنفيذ مخطّطه.

بالمكان والوقت المحدّدين انتظرته جوستين نافدة الصبر؛ وبعد ساعة تقريباً رأته على مسافة يقترب ببطء، فأحسّت بوجيب قلبها يتسارع. بان بابتسامته البسيطة المفرحة فحيّاها في حبور.

لم تره من قبل بهذا المزاج السارّ؛ سارا زمناً يضحكان، ويلاطف أحدهما الآخر بقليل من المزاح. حين أدارت جوستين الحوار بعصبيّة عما يوشك أن يحدث، أخبرها طَلق المُحيّا أن تتريّث.

نسيت على الفور كلّ شيء عدا أنهما معاً وحدهما، فاقترب منها بينما عناقيد النجوم الكثيفة تلمع فوق الرؤوس. كان الريف بديعاً في ليلة كهذه، وسعادة حارقة كالألم جلبت الدموع إلى مآقيها.

ضائعة بأحلامها، وجدت نفسها معه أخيراً عند الشجيرات الأربع تلك التي عانت عندها، من خمس سنين، كثيراً من الآلام بين يديه. رُدّ فوراً في بالها كلّ فزع تجربتها السابقة، فارتدّت رعباً. من شُجيرة يتدلّى فعلاً بضعة حِبال، وقد رُبطت بحزم إلى أخرى ثلاثة كلاب حراسة ضخمة، تُرغي وتُزبد بشكل بشع .

دار إليها الكونت على نحو أبتر، وبنبرة بذيئة قال: «يا مومس! تذكُرين هذه الشجرة التي سحبتكِ منها كالحيوان، ووهبتكِ حياتكِ حيث توجّب قتلكِ؟ وتذكرين هذه الشجيرات حيث وعدتُ بتغييركِ إن لم يكن سلوككِ على ما يرام؟ يا عاهرة، لماذا قبلتِ عروضي ما دمتِ تنوين الغدر بي؟ كيف تحتسبين أنكِ تخدمين الفضيلة بخيانة من قدّم

لكِ يد المعونة! خيّرتكِ بين جريمتين، فلمَ اتّخذتِ الأسوأ؟ كان عليكِ الرفض، يا ساقطة!». ثم أنشب فيها أظافره، وواصل: «ماذا أنجزتِ بخيانتي؟ عرّضتِ حياتكِ للخطر دون أن تُنقذي حياة عمّتي؛ فقد ماتت منذ أكثر من ساعة. وستموتين أنتِ، أيضاً! لكني سأُعرّفكِ قبل الموت أن درب الفضيلة ليس أسلم!».

ولم يمنحها وقتاً للردّ فسحبها دون رحمة نحو الشجيرة حيث تتدلّى الحبال رخوة، بينما يرتقب أحد خدمه شغوفاً نافد الصبر.

قال الكونت: «ها هي! كانت تريد تسميم عمّتي! لنحكم عليها بين يدَي العدالة».

ربطاها في الشجرة بحبل لُفّ حول ساقيها، لكن تركا ذراعيها حُرّين لمقاومة الكلاب. سُرّ الكونت بتعبير الفزع على وجهها. فسار حولها، يقرصها. قال: «فطور رائع سهل الهضم، لكلابي!». صرخ في تابعه: «كلّه جاهز؟ أطلِق سراحها!».

فكّ الكونت قيود الكلاب، ثم هشّها إليها. فهجمت على جوستين في هياج مسعور مزمجر. حاولت دون طائل كبح غمارها، لكنه لم يكن ليزيد عضّاتها إلا سُعاراً. فجأة، صرخ فيها الكونت، من باعث باطنيّ لديه، بأن تكفّ فوراً؛ وإلا لكانت مزّقت جوستين إرباً.

قال: «يكفي. سلسلوا الكلاب؛ ودعوا الساقطة تُلاقي حتفها». ثم قام بفكّها، وهو يقول متزلّفاً: «كما ترين، يا تريز، فالفضيلة رفاهية غالية. ألا تظنين أن ألفي دولار كانت تساوي أكثر مما كسا جسمكِ من عضّات؟».

غمر الألم الذي شعرت به جوستين كلماته فسقطت عند قدم الشجرة فاقدة الوعي.

حين استعادت أحاسيسها من جديد أمرها أن تلملم نفسها وفستانها وتغادر المكان تواً. فجمّعت حواسها العائمة معاً، ثم شدّت شملة عشب لتمسح الدم المتخثّر عن جسمها. أرغمها تورّم لحمها وفقدان دمها وما تحسّه من ألم معذّب على ارتداء ملابسها ببطء شديد. ريثما كان بريساك يسير ذهاباً إياباً تشغله أفكاره.

ثم قال لها «امضي حيث تحبين. فلا يزال معكِ بعض المال؛ لن آخذه منكِ. لكن تأكّدي أنكِ لن تعبري طريقي ثانية! سيعرف العالم كلّه أنكِ سمّمتِ عمّتي! هذا هو السبب الوحيد الذي تركتكِ لأجله ترحلين حيّة».

فردّت: «آهٍ سيدي! مهما عاملتني بوحشيّة، فلا تخش أن أفضحكَ. كنتُ أؤمن أنه من واجبي اتّخاذ إجراء ضدّكَ والأمر يتعلّق بحياة عمّتكَ؛ أما والأمر يتعلّق بي شخصياً فاطمئنّ أني لن أتّخذ أيّ إجراء. وداعاً، لتجعلكَ جرائمكَ سعيداً كما جعلتَني أعاني من ضراوتكَ. سأصلّي لكَ دائماً. ووداعاً!».

ومن أحزانها، سقطت جوستين عند قدمَي شجرة فأرسلت للواعجها منفذاً. ضغطت جسمها الدامي إلى الأرض وهي تغسل العشب بدمعها. ثم تبكي «يا إلهي! إنه قضاؤكَ المبرَم أن يصبح البريء فريسة للجناة؛ هكذا إذن! فاجعلني أكابد مثلما كابدتَ أنتَ، يا ربنا! لأستحقّ الجزاء الذي وعدتَ به المُستَذَلّين! أنتَ فرحة بليتي وبهاء محنتي؛ يا من أنت إلهنا!».

الفصل الثامن

في نهاية اليوم التالي وصلت مارسيل بمشقّة، وهي بلدة صغيرة على بعد عشرة أميال من باريس. استفسرت هناك عن طبيب، أخبرته حكاية خيالية بأنها هوجمت ليلاً من قبل لصوص أطلقوا كلابهم عليها. فحص دكتور رودن جروحها بعناية، لكنه لم يجد فيها شيئاً خطيراً؛ فأخبرها أن علاجها سيطول أسابيع، وعرض عليها أن تظلّ في منزله تحت رعايته. قالت جوستين إنها لا تملك غير حفنة مال. فرفض الطبيب بكرم بالغ أخذ أتعابه، قائلاً: في مثل هذه الحالات، الإنسانية أهمّ من المال؛ وفي حبور منحها خدماته مجاناً. هيأ لها الفراش للتوّ، ففي جسمها حمّى طفيفة.

بعد حوالي ثلاثة أسابيع استردّت جوستين عافيتها من جديد. وعندما أعربت عن أملها في إيجاد عمل بالبلدة يُعينها في دربها حين تسنح ظروفها المالية، عرض عليها دكتور رودن بمحبّة مكاناً في بيته.

كان دكتور رودن أرمل، يعيش بمنزل شاسع مع ابنته وخادمتين. ابنته روزالي فتاة نحيلة لا تتعدّى الخامسة عشرة، رقيقة لكن جميلة. والخادمتان أيضاً جميلتان، مما منح جوستين وهلة للتعجّب. فما نفع خادمة ثالثة له، ولمَاذا كلّهن صغيرات جميلات؟

يقيم دكتور رودن مدرسة خيرية بمنزله للأولاد والبنات الصغار، ولا يقبل ما دون الثانية عشرة، ويصرفهم دائماً عند بلوغ السادسة عشرة. يعلّم التلاميذ بنفسه. عبّرت جوستين عن دهشتها لروزالي من

عمل والد الأخيرة جرّاحاً ومعلماً، كما رأته غريباً أن يعمل ثريّ مثله بجهد كبير. ولدى هذه التعليقات انفجرت روزالي بالضحك؛ وحين سألت جوستين عما يضحكها من تعليقاتها قالت: «بريئة ـ هذا ما أراه. ولو حفظتِ سرّي فسأطلعكِ على كلّ شيء. يستطيع أبي حقاً تمضية حياته دون العمل بجهد كبير. فهو يمارس الطبّ هواية، بلذّة فريدة في ابتكار اكتشافات جديدة. وهو مشهور بالدوائر الطبية ويُعتبر أحد الجراحين المفضّلين في فرنسا. لكن هل تعرفين لمَ يقيم هذه المدرسة، يا تريز؟ الألم ـ الألم...! هل تريدين التحقّق... اليوم جمعة، هه؟ آه اليوم يومه، أحد الأيام الثلاثة التي يقوم فيها أسبوعياً بتقويم أخطاء التلاميذ. وهذا التدريب يمنحه لذّة. فتعالي معي لأريكِ ماذا يفعل. سنرى كلّ شيء من ثَقب بحائط حجرتي، يلاصق فصل دراسته. لكن علينا الحذر من إحداث جلبة».

كانا بوضع شبه آمن للتجسّس على أفعاله حين رأتا فتاة صغيرة يفعمها الدمع في إثرها رودن بـ الفصل الفارغ. ترجوه الصفح.

صاح رودن: «آهِ لا! لا! صفحتُ عنكِ كثيراً، يا جولي! وأندم الآن على عطفي؛ فقد جعلكِ تتمادين سوءاً. ماذا! نبّهتِ الأولاد على أشياء، هه!».

«لم أفعل! لم أفعل!».

«لكني رأيتكِ ـ لا تكذبي!».

عندئذٍ قالت روزالي لجوستين: «هو الكاذب، لا هي! يخترع هذا ليسوّغ إنزال العقاب بهم. فهذه الصغيرة ملاك».

ربط رودن يدَي الفتاة العاجزة فشدّها إلى حلقة بعمود في منتصف حجرة التقويم. أدارت جولي رأسها الجميل حزينة نحو معذّبها،

ودموعها تسحّ مدراراً؛ بينما كان يحدّق ثابتاً في صورة هذا البؤس مهتاجاً بها. وعلى غِرّةٍ لم يكبح جُماح غضبه فضربها ضرباً عنيفاً قاسياً بسَوط جلديّ. ارتجّت الطفلة فزعاً، لكنها لم تزده إلا طغياناً. وحين تعب أخيراً، قال: «والآن، لا تفعليها ثانية. فلن أتساهل معكِ المرة القادمة».

قاد تلميذته للخروج من الحجرة، ثم عاد تواً مع ولد صغير حوالي الخامسة عشرة، يعنّفه بقسوة «آه! وغد صغير، تستهزئ مني وراء ظهري! سأعلّمكَ كيف!».

جلد تسعة أطفال، واحداً بعد آخر.

قالت جوستين لروزالي «يا إلهي! كيف يتهتّك امرؤ بمثل هذه اللذة! كيف يلاقي المتعة في عذاب الآخرين!».

ردّت روزالي: «ما رأيته الآن شيء بسيط! وهو يفسّر لكِ لماذا يدير أبي مدرسة خيرية. لكنه لا يكفّ عند هذا الحدّ!».

عرفت جوستين بالوقت المناسب أن رودن يجلد أيضاً ابنته وخادمتيه، وحيث إنها من أهل البيت، فلم تستطع الفرار مما يضطلع به من لذّة ضمن نوبات عنفه.

بعد يومين مما حدث أمامها فاجأها بالفراش. ادّعى مجيئه لتبيّن بُرء جروحها، فلم تملك مقاومة لتهجّمه.

قال: «شُفيتِ، يا تريز. يمكنكِ ردّ جميلي بيُسر تام. وهذا ما أريد، لا أكثر. ستفعلين، أتفعلين؟».

«سيدي، كيف أُقنعكَ أنه لن يُكرهني شيء بهذا العالم على فعل ما تريد. إن عرفاني إليكَ عميق، لكن ليس بمقدوري ردّ جميلكَ بارتكاب جرائم مقيتة. هذا كلّ ما معي، فخُذه ودعني أخرج بسلامَ».

دُهش دكتور رودن كثيراً من رفض فتاة في حُكم المشرّدة المفلسة. وكان يظنّ أنها ستسعد بفعل ما لا يكلّف شيئاً.

قال يتطلّع إليها بانتباه: «تريز! خطأ منكِ أن تلعبي معي دور العذراء. لي عليكِ حقّ الرضا. لكن لا يهمّ. احفظي مالكِ ولا ترحلي. يسعدني أن أجد فتاة أمينة في منزلي؛ فالأخريات كلّ شيء عداه. ولأنكِ فاضلة، آمل أن تظلّي هكذا دائماً. كما أن ابنتي روزالي مغرمة بكِ؛ وقد ينفطر قلبها لو غادرتنا. فلا ترحلي أرجوكِ، لخاطرها».

قالت جوستين: «لكن سيدي، لن أسعد هنا. وقد تغار مني الأخريان اللتان تخدمانكَ، فأُجبَر على الرحيل عاجلاً أو آجلاً».

طمأنها رودن: «لا تهتمي بهاتين المرأتين. أعرف كيف أوقفهما عند حدّهما. كلّ ما أطلبه منكِ هو كتمان سرّي. فقد تدور هنا أشياء تصدمكِ؛ لكنكِ سترين كلّ شيء ولن تنبسي ببنت شفة».

وكانت هذه تقريباً فكرة روزالي، فقد ناشدتها عدم الرحيل، مما حفز قرار جوستين على البقاء.

بعد أيام قال لها رودن: «تريز، ستسهرين على خدمة ابنتي؛ وهكذا لا يتداخل عملكِ مع امرأتيّ الأخريين. سأدفع لكِ خمسمائة سنوياً». أسعدها ذلك للغاية، فبدأت تظنّ في الرجل الطيبة. كما حلمت بهدايته. ولم يفت زمن طويل حتى كان لها معه حديث طويل عن الخير والشرّ.

ردّ على كلماتها الورعة: «لا تتخيلي، يا تريز، أن العطف الذي أظهرته معكِ لأني أقدّر الفضيلة على الرذيلة. لا تتخيليه قطّ. تخدعين نفسكِ. ففي مجتمع فاسد لا تُجدي الفضيلة نفعاً. لكن مجتمعنا ليس كذلك، وكي نضعف من يتّبعونها، يستلزم الأمر إما أن نتميز بالفضيلة أو ندمّرها كلياً. إن لم يتكيّف معها أحد فستكون غير ذي نفع. ولا أخطئ

بقولي إن وجودها مرتبط بالعقيدة أو المصادفة. فليس للفضيلة وجود مطلق. إنها قانون ليضبط المرء نفسه عن الزيغ بين مناخ وآخر. إذن فهي متخيّلَة. وهي حقيقة لا يثبُت لها نفع دائماً. والحقيقيّ والدائم هو النافع. تلك التغيّرات الأبدية ليس لها من نفع. فلا توجد أُمّتان على البسيطة بفضائل تماثل نفسها. لأن الفضيلة متخيّلَة وغير ذي نفع، فلا تستحقّ تقديرنا. نتكيّف معها دعامة في وجه من يمارسونها حتى يتركونا في سلام. أنّى لكِ بإقناعي أن الفضيلة التي تقهر انفعالاتنا الطبيعية نافعة. والانفعالات متلاطمة، يفضّل بعضها الرذيلة وبعضها الفضيلة، فأيّها نفضّل؟ ما يجب علينا تفضيله، طبعاً، هو ما يخدم المرء أكثر، عقلياً وبدنياً. لو صحّت فَرَضيّاتي، فبعض الرذائل مفيدة. وقد بلّغوكِ أن الفضيلة هي فعل الخير للآخرين. وفي هذا المقام، تنفع الفضيلة لو اعترفنا أن فعل الخير للآخرين خير. فأتلقّى عندئذ بدوري الخير فقط. وهذه مغالطة. فالخير القليل الذي أتلقّاه من الآخرين بممارستهم الفضيلة يلزمني في المقابل بممارسة مثله. وهكذا أقوم بمليون تضحية، فالشواذ مليون إلى واحد، دون تلقّي الكثير في المقابل. وأن أتلقّى أقلّ مما أمنح لهو أمر مشين. أفلا يكون أكثر حكمة رفض هذا التبادل المشترك للفضيلة التي تكلّفني الثمين الغالي؟ ولنمضِ، يا تريز، نحو ما نؤدّيه من إثم إلى الآخرين والشرّ الذي نتلقّاه في المقابل، لو كان الناس كلاً مثلي. باعتراف أن مجتمع الرذيلة كلّه صحيح، لنفترض، فمن الخطر تلقّي الشرّ عندئذ؛ لكن في الوقت نفسه سأُعوّض بلذّة جَبر الآخرين على المقامرة بالخطر نفسه. وهكذا تتأسّس المساواة بكون الكلّ سعداء. ولن يوجد هذا في مجتمع بعضه أخيار وبعضه أشرار. فمثل هذا الخليط من الخير والشرّ يفضي إلى فوضى منظّمة، فلا يدرك المرء ماهية الخير، أو غيره. وحين يُقدّر الشرّ وحده، يتّضح أمامنا وجميعاً درب واضح مميّز، يوهَب بالميول ذاتها، الرغبات ذاتها، فيمضي للنهاية ذاتها، ويكون مُرضياً.

لكن يخبركِ الحمقى أن الشرّ ليس السبيل إلى سعادة الإنسان. ويصحّ هذا فقط، كما بحالتنا الآنية، مع الغباء الموفور، الذي نطلق عليه العُرف أو التقاليد، في تمجيد الخير. لكن لو قدّرنا الشرّ على أنه عُرف أو تقاليد عتيدة، فسيوقّره البشر، متّبعين دروبه الكثيرة غير المطروقة. ليس فقط لأنه مسموح به، فهناك دائماً لذّة مكينة بفعل الممنوع؛ بل لتحرّر البشر عندئذ من ربقة الخوف الذي يعيق لذّة الجريمة الطبيعية. ولنأخذ، على المثال، مجتمعاً يُجرّم غِشيان المحارم. فمن يُسلِم نفسه إليه يكن تعساً، لأن القوانين والعقائد والعهود تتّفق على تجميد ملذّاته. ومن يُسلِم نفسه إليه سيرتعب من كونه تعساً. وهكذا ترين أن القوانين التي تُجرّم غِشيان المحارم لا تجلب غير التعاسة. لكن في مجتمع مؤسّس على الشرّ، حيث لا يُجرّم غِشيان المحارم، فكلّ من لا يرغب فيه لن يجلب على نفسه التعاسة؛ ومن يرغب فيه سيجلب على نفسه السعادة. وهكذا نجد أن المجتمع المتسامح مع هذه الفعلة أكثر مواءمة للبشر من ذلك المنكر لها. والشيء نفسه مع كلّ فعل مُجَرّم خطأً. ومن هذه الوجهة، حيث هذه الأفعال ممنوعة، نجلب على الكثيرين التعاسة؛ لكن لو تسامحنا معهم فلن يوجد من يستثير شكاية، لأن من يودّ فعل ما يجلب عليه السعادة سيُسلِم نفسه إليه في سلام. ويظل الآخرون في لامبالاة دون ألم، أو يُعوّضون ما يتلقّونه من خطايا بحُزمة خطايا أخرى يُسمح لهم فيها بدورهم بلذّة ارتكابها. وهكذا ترين أنه في مجتمع مبنيّ على مبادئ الخير لا أحد سعيد؛ بل كثير تعساء. فلا تدعي من يتّبعون الفضيلة يفرطون مزدهين بأنفسهم في عبادتها؛ لأن دستور مجتمعاتنا يُجبرنا عليها. وهي مجرد مسألة تتعلّق بالظروف والمواثيق. إن من يعشق الفضيلة حقاً لهو غريب، فليست الفضيلة من هذه الزاوية أجمل!».

وضّحت هذه الخطبة الطويلة الأمور عند جوستين، حيث يجب أن تشبع حافزها المستمرّ للهداية بمكان آخر؛ عليها أن تدور إلى روزالي،

حيث تراها أسلس قياداً للعواطف الرقيقة. فشُغفَت بهدايتها إلى الدين. ولينجح مسعاها كان عليها تدبّر أمر كاهن يستوجب ثقتها. أمامها صعوبات جمّة، لأن رودن، الذي يتملّكه الرعب من الكهنة والمسيحية، لن يسمح لأحد بدخول منزله. ويستعصي على جوستين الخروج مع روزالي إلى كاهن، لأن رودن لا يسمح لابنته بمغادرة المنزل. فلم يكن أمامها غير تزجية وقتها ارتقاباً للحظة أسعد تستطيع فيها تنفيذ خطّتها الدينية. وحاولت طيلة هذا الوقت تعليمها فضائلها، وكشفت لها عن تعاليم وأسرار الكنيسة.

قالت جوستين: «روزالي! هل يعمى الإنسان فلا يدرك أن أمامه حياة قادمة! أفلا يكفي أن نستطيع معرفة الله وعبادته! ألا يضع الله أمامنا فضيلته كمثال! هل يمكن لخالق هذه العجائب الكثيرة ألا يكون غير الخير! وهل نسعد الرب إن لم نكن أخياراً! أفلا يُحيلنا عرفاننا لله إلى محبّته! ألا تستحقّ منا الحياة الجميلة وهذا الكون الذي نتمتّع به الشكر! ما علينا نحو الله هو نفسه ما علينا نحو الإنسان، كما أن إخلاصنا لواحد سيسعد الآخر. ألا نستلذّ حين نحسّ أننا جديرون بالله في بساطة لكوننا أخياراً نجلب الطمأنينة للأرض، وهذه الجدارة البسيطة تجعلنا قرب عرشه! آهٍ روزالي! كم هم عميان من يودّون سلب هذا الأمل منا! حيث تخدعهم عواطفهم المرعبة، بنكران هذه الحقائق الخالدة. ويدّعون أننا، لا هم، المخدوعون. إنهم يخشون، بمعرفة هذه الحقائق، خسران شهواتهم الآثمة. لكن حين تعتم عواطفهم، ويفرش الشرّ جناحيه، فيُسمع صوت الله المهيب، كم سيكون ندمهم مريراً! في هذه الحالة، حين يهدأ عقل الإنسان وتخمد شهوته، أفلن يناشد المقدّس حاضناً الحقيقة. هل علينا في هذه اللحظات تصديق ما يقول. طيلة هذه اللحظات نمدّ أيدينا جميعاً إلى الله، الجوهر القدسيّ الذي تغاضينا عنه سلفاً. نناشده فيواسينا! نصلّي

إليه وهو سميعنا! آهٍ يا روزالي، لمَ يُستلزَم مني نكران الله، الهزء منه، وهو سبب سعادتي؟ لمَ يجب عليّ أن أنكر مع الضائعين وجود الله؟ فقلب الإنسان العاقل يطرح أمامي كلّ لحظة براهين على وجود الجوهر القدسيّ! هل يُفضّل أن نهذي مع الحمقى عن أن نفكّر في تروٍ مع العاقلين؟ لو هناك إله فهو يستحقّ العبادة؛ وأسّ هذه العبادة الفضيلة!».

بهذه الكلمات المثيرة للعواطف وغيرها كثير كأمر طبيعيّ، أينعت جوستين بذرة المسيحية الطيبة داخل روزالي، وهي الراهبة المبتدئة بعد في مثل هذه الأمور. لكن في ظلّ مخاطر وضعها الحالي لم يكن لدى روزالي غير وسائل محدودة لتضع هذه المبادئ الرائعة موضع التنفيذ. فهي مُجبرة على طاعة والدها، تستجيب لكلّ نزواته؛ فليس لها أن تفعل غير إبداء الشعور بالقرف والاشمئزاز. مع رجل مثل رودن فالأمر جدّ خطير. قلقت جوستين كثيراً. وكان خوفها متّصلاً من أذاه المتمادي الذي قد يقع بأية لحظة على صديقتها الصغيرة، خاصة وأنها اقتنعت أخيراً بالفرار. قامتا بوضع خطّة محدّدة لهذا المشروع المنطوي على مخاطرة، وحدّدتا وقتاً بعد يومين لتنفيذها. لكن روزالي اختفت اليوم التالي فجأة. لم تكتشف جوستين أين ولا ما حصل لها. استفسرت من رودن والخادمتين، لكنهم أبدوا غموضاً قائلين إنها خرجت لتمضية أسابيع بمنزل ابنة عمّ بعيدة. ثم استفسرت جوستين من رودن عن سبب رحيلها المفاجئ ولمَ حجبه عنها. قال إنه ودّ ألاّ تمرّ بهذا المشهد المؤلم، لكنها سترى صديقتها قريباً من جديد. لم تطمئن جوستين بهذه الردود المراوغة، ولم تقنع نفسها بتصديق حكاية رحيل روزالي دون مبادلتها كلمة؛ ومما تعرفه عن رودن، فهي تخشى الكثير على مصير البائسة. فعزمت أن تتبيّن، مهما كلّفها الأمر، مكان وجودها.

كانت وحدها بالمنزل ثاني يوم، ففتّشت كلّ بقعة في حذر. ومن قاع سرداب بالغ العتمة ظنّت سماع بعض الآهات. قرُبت متلهّفة فالتصقت بباب ضيق سُدّ بكومة أخشاب ضخمة في الركن البعيد من السرداب. نزعت العوائق عنه فأيقنت أنها تسمع روزالي.

«تريز! آهٍ تريز! هذه أنتِ؟».

أمطرتها جوستين بوابل أسئلة وجدت روزالي كبير مشقّة في الردّ عليها. فتذكّرت جوستين أن دكتور رودن مع أحد زملائه قد عقدا العزم على تعريض روزالي لتجربة شنيعة. فتّشت عن مفتاح الباب في كلّ جانب، ثم تخلّت تواً عن أمل العثور عليه إجمالاً. عموماً، أقسمت إلى روزالي بالمجيء ثانية اليوم التالي. وترجّتها ألاّ تفقد الأمل، قالت إنها ستقدّم شكوى لمحكمة العدل، وستفرج عنها مما ينتظرها من مصير، مهما كلّف ذلك من ثمن.

ثم صعدت السلّم. كان رودن وزميله رومبو يتناولان العشاء معاً ذلك المساء. لديها فكرة غامضة عن نواياهما، فاختفت قرب حجرتهما لنيل معرفة أكمل عمّا يباشرانه فعلاً. بعد أن دخلا جلسا إلى مائدة، فامتدحا جوستين لتنفيذ خطّتهما.

قال دكتور رودن: «لن يكون التشريح خالص الأمانة إلا بعد اختبار شرايين فتاة صغيرة حيّة. وهكذا نحصل على تحليل مكتمل».

قال رومبو: «هي ابنتكَ بالضبط ما نريد. يسعدني أنكَ اتّخذت قراركَ أخيراً».

ردّ رودن: «طبعاً. غباء أن يُعيق تقدّم العلوم محض اعتبارات عائلية. هل سمح العظماء يوماً لأنفسهم بالتعرّض لمثل هذه الروابط

الخسيسة؟ حين ودّ مايكل أنجلو أن يرسم وجه المسيح بصورته الطبيعية، هل وضع على محكّ الضمير أن يصلب شاباً وينسخه بآلامه؟ فلمَ لا يحدث هذا نفسه مع فنّنا! كم هو أكثر أهمية في حالتنا: أن نضحّي بشخص لننقذ مليوناً. فهل نتردّد عند هذا الثمن!».

قال رومبو: «هي طريقتنا الوحيدة لتعليم أنفسنا. طيلة عملي في المستشفيات في سنيني الأولى لاحظتُ ألف تجربة مشابهة. لكن البنت ابنتكَ، وأخشى أن تتردّد».

قال رودن: «لماذا؟... ألأنها ابنتي! سبب معقول! ماذا تتوقّع لها من مكان في قلبي؟ المرء ربّ عليه أن يستردّ وديعته. لم يكن حقّ التخلّص من الأبناء موضع نقاش بين قدماء الشعوب في الأرض. وقد تمتّع الفرس والميديون والأرمن واليونان كلياً بهذا الامتياز. لم تُخلف قوانين ليكيرجس[1]، وهو مثال المشرّعين، للآباء الحقّ كلّ الحقّ على أبنائهم فحسب، بل قضت بالموت على كلّ والد لا يرغب في التربية، وقد يُشوّه. قتل كثير من المتوحشين أطفالهم بمجرد الولادة. ووجد كوك[2] هذه العادة منتشرة في جزر البحر الجنوبيّ. والم يسمح رومولوس[3] بقتل الأطفال؟ لقد تسامحت شرائع الألواح الاثني عشر بالمثل مع ذلك، وحتى عصر قسطنطين[4]، كان الرومان يخلّون أولادهم بالعراء أو يقتلونهم مُحصَنين. كما ينصح أرسطو[5] بهذه

(1) ليكيرجس: مشرّع في إسبرطة (م).
(2) جيمس كوك (1728 ـ 1779): مستكشف إنجليزي (م).
(3) رومولوس: مؤسس روما وأول ملوكها. نُبذ مع أخيه التوأم ريموس منذ الصغر، فرضعا من ذئبة، وربّاهما راعٍ. قُتل ريموس في النهاية لاستهزائه بروما التي أسّسها أخوه رومولوس (م).
(4) قسطنطين (306 ـ 337 ق.م): الإمبراطور الرومانيّ العظيم (م).
(5) أرسطو (384 ـ 322 ق.م): الفيلسوف اليونانيّ الشهير (م).

الجريمة المفتَرَضَة؛ أما الرواقيون[1] فيعتبرونه أمراً يستحقّ المديح، ولا يزال عُرفاً بين الصينيين. فيومياً نجد في شوارع وقنوات بكين آلاف المنبوذين أو المقتولين من قبل آبائهم. وفي هذه الإمبراطورية الحكيمة، لا يحتاج الأب للتخلّص من طفل سوى أن يضعه بين يدَي قاضٍ. وطبقاً لقوانين أثينا اعتاد الشعب قتل أولادهم وبناتهم، أو أخوتهم حتى بسنّ الزواج؛ ووجد القيصر هذه العادة بين أهالي الغال. كما تُظهر رسائل عديدة بأسفار التوراة الخمسة الأولى أنه سُمح بقتل أولاد امرئ بين شعب الله: وقد استخلصه الربّ من إبراهيم. ويقول مؤلفٌ حديثٌ مشهور: منذ عهد غابر كان يُعتقد أن رخاء الإمبراطوريات مرتبط بعبودية الأطفال. وقد تأسّس هذا الرأي على حجج راسخة. آهٍ، فهل يُسمح في نزوة من بلد أن يُضحّى بعشرين أو ثلاثين ألف من الرعيّة في يوم واحد، ولا يُسمح لأب بالتسيّد على حياة أطفاله! فيا له من عبث! كم هم سخفاء ضعفاء من تعتقلهم مثل هذه الروابط! إن سلطة الأب على أطفاله هي السلطة الوحيدة الحقيقية، وأسّ السلطات الأخرى إجمالاً. في بلادنا فرنسا البربرية تُصوّر الشفقة الزائفة السخيفة أنه يجب كبح هذا الحقّ! لا!». ثم واصل رودن «لا يا صديقي، لا أفهم كيف لأب، وهو الشغوف بوهب الحياة، ألاّ يكون له حرية وهب الموت! إننا نضع قيمة عالية على هذه الحياة، فنتكلّم عبثاً عن رغبة امرئ في التخلّص من آخر. نظنّ الوجود أعظم الخيرات ونتصوّر بغباء أننا نرتكب جريمة بالتخلّص ممّن يتمتّعون به. لكن التخلّص من الوجود وما يتبعه ليس أكثر شراً ممّن ينادي بخيرية الحياة. إن لم ندمّر شيئاً، فلن تخسر الطبيعة شيئاً، لو ارتقبت أجزاء الجسم المتحلّلة الفناء

(1) الرواقيون: أتباع الفيلسوف زينون (300 ق.م) ويرى أنه أفضل للحكيم التحرر من الانفعال خضوعاً لحكم الضرورة (م).

لتستعيد ظهورها بأشكال مستجدّة، فليس القتل إذن أمراً هيناً! أنّى للمرء أن يجد في نفسه صفاقة كافية برؤية الأذى فيه! إنه ليس غير مسألة تخصّ معتقداتي حيث أرى الأمر كلّه جدّ بسيط: إن فنوني مفيدة للبشر، وقتل ابنتي ضرورة لفنوني. حين نقدّم هذه الخدمة العظيمة، لا تعود شراً. بل هي أفضل، يا صديقي، وأذكى وأجدى من أيّ انفعال. وحرمان المرء من ذلك هو ما سيكون جريمة!».

صاح رومبو، مفعماً بحماسة هذه الآراء «أوه! عزيزي، أتّفق معكَ. تفتنني حكمتكَ! لكن تُدهشني لامبالاتكَ. كنتُ أظنّ أنكَ تحبّ...».

«أنا!... أحبّ فتاة! آهٍ يا رومبو، ظننت أنكَ تعرفني أفضل! فأنا أستغلّ مثل هذه المخلوقات حين لا أجد ما هو أفضل. فاهم، يا رومبو. كان شيلبريك، أكثر ملوك فرنسا شهوانيّة، يحسّ مثلي في هذا. كان يقول إن الأسوأ يأتي بالأسوأ، فقد يستغلّ الإنسان المرأة، لكن بشرط واضح هو التخلّص منها فور التمتّع بها. وقد خدمتني هذه الألعوبة الصغيرة من خمس سنين؛ دفعت وقتاً ثميناً لتهدئة ملذّاتي!».

كان هذا وقت العشاء. رأت جوستين كيف يتصرّفان ويتكلّمان ويهذيان بوضوح تامّ فيما كانا يشغلان نفسيهما بفكرة التضحية بشخص روزالي ذلك المساء. لا يجب عليها أن تضيّع دقيقة. فطارت فوراً إلى السرداب، تستميت في تمنّي فعل ما يحبط كلامهما ونيتهما المبيّتة.

صاحت: «روزالي الغالية! لن نضيّع دقيقة... الوحوش... هذا المساء... هنا...!».

جهدت عنيفاً في تحطيم الباب. لكن ظهر رودن ورومبو فجأة، بلّغتهما خادمة.

صاح رودن، وهو يوقف جوستين: «تريز، ماذا تفعلين؟ هذا ما

لديك من مبادئ فضيلتكِ العتيدة... أن تسلبي أباً ابنته!».

قالت جوستين حازمة: «هذا ما يجب عليّ فعله مع أبٍ بربريّ يتآمر على حياة ابنته!».

«آه، تختلسين السمع! خطيئة الخدم التقليدية! سآخذكما مع رومبو للدور العلويّ؛ كي أخلص من هذه المهمة!».

سُحبت جوستين وروزالي للدور العلويّ بحجرة رودن، ورُبطت روزالي بأعمدة السرير. ثم دار الرجلان مسعورين في هياج نحو جوستين فحمّلاها أذىً كثيراً؛ هدّدا بتشريح جثّتها حيّة. أشبعاها ضرباً بيديهما. صاح رومبو: «دعها لي!». فرمت جوستين بنفسها على قدميه، تعرض عليه حياتها، أيّ شيء، وهي تترجّى منهما الحفاظ على شرفها.

قال رومبو: «لم تعودي خادمة، فما الفرق! مذنبة دون تهمة. سنفعل معكِ ما فعلناه من قبل. ولن تأكلكِ الخطيئة في ضميركِ؛ فالقوة ستغصب كلّ شيء منكِ!».

ودفعها نحو الكنبة، وهو يمازحها.

«لا، لن نضيّع جهودنا مع هذه المومس. تذكّر أننا نحتاجها للعمليات المفترَضَة على روزالي، لن نتأخر أكثر. سنعاقب هذه العاهرة بطريقة أخرى».

وبينما يقول هذا، وضع سِيخاً من الحديد بالنار.

«سنعاقبها بطريقة أسوأ. لنسِمَها بالنار! نَسِمها! مما قد يتسبّب في شنقها أو موتها جوعاً!».

ريثما كان رومبو يمسكها ثبّت رودن الحديد المُحمَرّ، وهو ما يوسَم به المجرمون عادة، في ظهر كتفها، ثم أداره، فامتلأت الحجرة

برائحة حرّيفة وعلت صرخاتها.

تمتم رودن: «لنطردها الآن!».

حين أفاقت جوستين من إغمائها ألبساها وبعثا فيها قليلاً من الطاقة بقطرات من الويسكي. وتحت جُنح الليل حملاها للغابة فخلّياها هناك. أقنعاها بخطورة التقدّم بأيّ اتّهام مضاد، فهي مصنّفة مجرمة.

ليس غير جوستين من كان يعنيه قليلاً وسم هذا العار، حيث يسهل إثبات أن هذا الوسم ليس علامة محكمة رسميّة. ليس هناك ما تخشاه. لكن ضعفها، خجلها الفطريّ ورِعدتها، الفزع مما امتُحنَت به أخيراً في باريس، وما حدث لها بقصر بريساك، صعقها وأرعبها. فتملّكتها فكرة واحدة، أمل وحيد، أن تفرّ نحو مكان بعيد تحتمي فيه من شرور العالم ووحشيته.

الفصل التاسع

في اليوم الرابع وصلت لوزان. فقرّرت أن تتبع الطريق المفضي للجنوب. قد تجد في هذه المنطقة البعيدة آخر فرنسا، كما ظنّت، سكينة وبهجة إقليمها الأمّ، فأصرّت على الفرار بوعي منها.

لم تجبُن جوستين كلياً. ظنّت أنه أسوأ أحوالها؛ فمهما كانت آلامها وبلاياها، إلا أنها تحسّ ببراءتها وقد فارقتها. كانت ضحية بضعة طائشين، ومع ذلك تعتبر نفسها فتاة شريفة؛ ولو أنها من زمان، في لحظة تعسة ومشاعرها دائخة، قد حُرِمَت فعلياً مما تعلّمته دائماً، أن تكون فتاة أعلى طلباً وكبرياء؛ لكن آثار ذلك الحرمان الكامل راحت الآن ولم يعد لها حقاً ما تُلام عليه. على أيّ حال، ظلّ قلبها نقياً. كما بقي معها قليل من المال، أسعدها الحظّ أن لم يُسلَب منها. أمّلت أن يغطّي نفقاتها حتى تجد وظيفة أخرى. لم تعتقد أنها ستلقَى صعوبة تُذكر في العثور على عمل؛ فهي بصحة جيدة وتملك قواماً رائعاً يمتدحه الناس، وهو ما كان يثير أساها. بدت فضيلتها هي عقبتها الوحيدة؛ لكنها عزاءها الأكبر من جانب آخر، حيث تؤمن بأن السماء ستُثيبها أخيراً. لن تخذلها قطّ عواطف الدين في أيّ وقت. كما تحتقر مغالطات الملحدين الفارغة من أعماقها، وتظنّ أنها ناتج حماسة لا اقتناعاً جازماً، يستلزم منها دحضها من ضميرها وقلبها.

بوافر من أمل وجرأة في قلبها واصلت نحو سينز، توقّفت هناك أياماً. قد تجد في هذه البلدة عملاً بسهولة، لكن لدى سماعها عن

دوفيني أسرعت نحو تلك الجهة.

وذات يوم في أول أسبوع من أغسطس/آب غادرت آكسير. كان يوماً حاراً لاذعاً، وبعد ميلين من البلدة دارت إلى درب أفضى بها نحو تلّ صغير يغطّيه شجر ظليل ضخم. ومتعبة نعسانة من الحرّ، تمدّدت تحت ظلّ رطيب. فراحت في النوم فوراً.

نهضت فجأة من نومها الثقيل حيث كان حلم فظيع، امتزج فيه معاً أختها جوليت، وصديقتها روزالي، مع بريساك ودكتور رودن. جلست قائمة، تحدّق حالمة بعينين نصف مغلقتَين حولها في الريف المحيط. ارتفع أمامها من وضعها العالي منظر رائع: جداول منبعجة تضيع بين تلال مشجّرة تتدحرج بعيداً قدر ما تدرك العين. وبعد مسافة لليمين لمحت برج كنيسة صغيراً يرتقي بهياً في الهواء.

همهمت جوستين لنفسها «يا لها من خلوة مجيدة! تثير حسدي. ملجأ لراهبات قدّيسات أسلمن أنفسهن لله. وقد يكون لنسّاك أفاضوا إلى الدين. آهٍ، تكمن الفضائل جميعاً تحت هذا السقف المقدّس! كم يتوق قلبي إليه... لو قُدّر لي أن أسلِم نفسي في مثل هذه الخلوة...».

وهي تائهة في تأملاتها، مرّت بها راعية فجأة. سألتها جوستين عن المكان؛ فبُلّغت أنه محفل موتا، يشغله أربعة زهّاد يندر ورعهم، طهارتهم، قداستهم.

قالت الراعية: «يُفضي إليه الناس، يحجّون إلى الحَبر الأعظم مرة في العام، لينالوا من أهله الورعين ما في أمانيهم».

تأثّرت جوستين بصورة غريبة، ودّت لو تمضي للتوّ فتترجّى العون من كائن فوق الطبيعة. فسألت الفتاة أن تمضي معها هناك لتلاوة الصلاة. واستحال على «فارتت توجدت» الراعية الذهاب معها، فدلّتها

على الطريق، وقالت يسهل أن تستدلّي؛ وسيستقبلكِ عن طيب خاطر راهب المحفل الأول، وهو أقدسهم وأنبلهم.

واصلت: «يسمّونه دوم سفيرنو. إيطاليّ، من نسل ملكيّ. فامضي إلى تلك الخلوة الغريبة، آنستي؛ وسترجعين بإحساس أفضل كثيراً».

متشجّعة بهذه الكلمات، لم تستطع كبح جُماح شغفها بالذهاب لزيارة هذا المحفل العجيب. ووهبَت الفتاة قطعة عملة على جهدها ثم بدأت رحلتها فوراً.

حين نزلت التلّ اختفى برج الكنيسة عن المنظر، فلم تجد غير غابة على مسافة ترشدها.

مرّ زمن قبل وصولها نصف طريق المحفل. أدركت أنها أساءت تقدير المسافة. لكن النهار لا يزال فواصلت، على أمل الوصول قبل هبوط الليل.

كان ريفاً موحشاً خرباً، دون منزل تراه بأيّ مكان.

بدأت الشمس غروبها. فحثّت السير على درب ضيّق خارج الطريق يوشّيه من الجنبين دغل شبه نام، حتى سمعت رنّة جرس. هرولت فرأت على الفور طريقاً عريضاً تسيّجه الأشجار. لمحت المحفل على مبعدة، قائماً في بقعة عزلاء من بريّة في الغابة. يرقد عميقاً في غور، وعليها النزول طويلاً إلى تحت قبل وصوله فعلياً.

يلتصق بجدران الدير كوخ بستانيّ، يتقدّم الزوار قبل الدخول.

سألت جوستين الحارس هل يمكنها الكلام مع الراهب الأول. فسألها عما تريد. قالت إن الإخلاص الدينيّ قد دعاها إلى هذا الملجأ الورع، وتودّ أن تعترف وتتلو صلاة للحَبر الأعظم.

رنّ البستانيّ جرساً ودخل الدير. الوقت متأخّر والرهبان على العشاء، فأخذ وقتاً طويلاً حتى عاد أخيراً مع أحد النسّاك. قال البستانيّ «هذا دوم كليمن يا آنسة، وكيل النُزل، جاء ليرى إن كان ما تريدين يستحقّ إزعاج الراهب الأول».

دوم كليمن رجل في منتصف العمر، بالغ الضخامة. في وجهه نظرة متوحّشة، مما أثار رِيبتها.

قال لها بنظرته الفظّة وصوته الصاخب «ماذا تريدين؟ هل هذا وقت تجيئين فيه للمحفل! كأنكِ هاربة ليلاً!».

قالت جوستين شاحبة، وهي تلقي نفسها على قدميه: «أيها الطيّب! ظننتُ الوقت متاح دائماً للمجيء إلى نُزل بهذا النور! جئتُ من درب طويل، يحدوني الإخلاص والحماسة! كلّي رجاء أن أُبلّغكَ قصّتي، لو أمكن، وحين ينكشف ضميري إليكَ، سترى إن كنتُ أستحقّ أم لا أن أُلقي بنفسي على قدمَي الحَبر الأعظم!».

ردّ الكاهن، وقد لان مسلكه: «لكن الوقت غير مناسب للكلام، أين تقضين ليلتكِ؟ فلا نملك ملاذاً ليلياً. عليكِ المجيء صباحاً».

ثم أخبرها الناسك أن تنتظر، ومضى لرئيسه بالداخل. بُعيد وقت قصير، ومن كوخ البستانيّ، خرج الراهب الأول دوم سفيرنو، فدعا جوستين بحفاوة لدخول المحفل.

كان دوم سفيرنو شديد الوسامة. مع أنه قويّ وذو منظر نشط، إلا أن فيه ليونة مطمئنة. مبجّل مهيب، ودمث جذّاب بنبرته عموماً. وقد شُفيت جوستين، بسحر سلوكه اللطيف، من فزعها المبدئيّ.

قال برقّة: «فتاتي العزيزة، مع أنها ليست الساعة المواتية، ولسنا معتادين استقبال أحد بوقت متأخر، إلا أني سأسمع حكايتكِ. وأُسدي

لكِ النصح فيما بعد عن كيفية قضاء ليلة لطيفة. وغداً تركعين أمام المعبود موتا الذي أتى بكِ إلى هنا».

دخلا المحفل فأُغلقَت خلفهما الأبواب. كان مذبح قربه مصباح مضاء. دعا الناسك جوستين لتتبوّأ مكانها، وجلس يقنعها بالاعتراف إليه بحرية وبكلّ ثقة .

ارتاحت لرجل يبدو بالغ التهذيب، فقهرت نفسها ورَوَت خطاياها، حقيقية ومتخيّلَة، لم تُخفِ شيئاً. أخبرته كلّ ما مرّ بها من محن، بتفاصيل كثيرة. أنصت الناسك بانتباه شديد، وبتعبير متعاطفٍ وإيماءة عنايةٍ مفرطة جعلها تردّد أحداثاً تافهة معينة بوجه خاصّ. دُهشت جوستين من تشديده على جزئيات فاحشة، لكنها أخبرته كلّ شيء، مع ذلك، بفطريّة، بسلوك مخلص صريح من الأعماق.

نهض الناسك آخذاً جوستين من يدها وواصل: «ماذا، حدث لكِ هذا كلّه؟ تعالي، يا طفلتي، سأمنحكِ الرضوان الجميل بأن تتلقّي الشفاعة غداً على قدمَي الإله موتو. لكن دعينا نمدّكِ بأول احتياجاتكِ». وقادها نحو ظهر الكنيسة.

قالت جوستين، غير مرتاحة: «ماذا! ماذا هناك يا أبي؟».

فقال يقودها للداخل: «إلى أين؟ حجّ فاتن. هيه، تخشين قضاء الليل مع أربعة نسّاك طيبين! كم سنُسرّي عنكِ. إن لم نمنحكِ لذّة عظمى، فأنتِ في خدمتنا المهيبة».

أحسّت جوستين بشحوب ملؤه الفزع، وعرق دبق بارد يزحف ببطء عبر جسمها.

كان الوقت عتمة كثيفة، دون ضياء وحيد يقود طريقهما. استجلب خيالها الفزع على بالها صنوف الرؤى المرعبة، ممّا أثار أعصابها

وأوهن رُكبتيها. وحين أكره الناسك أن يسندها من العثرة، غيّر فجأة مسلكه المهذّب فوبّخها قاسياً. قال: «اسمعي يا زانية، عليكِ بالمسير! فكفّي عن الوهن! كلّه دون فائدة!».

سارا في عماء بعض الوقت عبر متاهة محيّرة في دورات منبعجة حادّة. وصلا أخيراً درَج سلّم طويل. بعد الصعود خطوات، بان نور باهر برّاق من باب مفتوح. فدخلا رُدهة واسعة، بضياء بالغ. حول مائدة، يجلس ثلاثة رجال وأربع فتيات. ويقوم على خدمتهم أربع نساء أخريات.

منظر أرعد جوستين.

دفعها سفيرنو للدخول بوقاحة. أعلن: «سادتي، اسمحوا لي أن أقدّم لكم ظاهرة نادرة. فتاة بكر على كتفها في الوقت نفسه وسم عاهرة! وفي ضميرها صراحة ببساطة خادمة! كليمن، يا للحبور الذي ستجلبه على روحكَ العتيقة!».

قال كليمن، ناهضاً نحوها نصف سكران: «مومس! لقاء ممتع، أتمنّى التثبّت من هذه الحقائق!».

تراجعت جوستين، فقال لها الراهب الأول مُجافياً: «كفّي عن هذه الخدع المتصنّعة. فالمقاومة دون جدوى؛ عليكِ بمحاكاة رفيقاتكِ هناك. تزعمين أنكِ خبرتِ الكثير، بينما تتباهين بكونكِ لا زلتِ عذراء. هل لمن في عمركِ أن تظلّ عذراء؟ ألا تظنين الوقت قد حان؟ ترين أولئك النسوة؛ أول مرة جئن فيها هنا كن يرفعن أيضاً راية المقاومة. ثم بدّلن رأيهن مباشرة على عجل، كما ستفعلين، حين فهمن ما سيحلّ عليهن». وأبان لها عن قضبان، حلقات معدنية حول عصيّ، سياط، حبال وآلات عذاب أخرى عُلّقت على الجدران. «هي ما نستخدمه مع

الفتيات المتمرّدات. وهناك المزيد، فماذا تتوقّعين؟ إنسانية؟ القسوة إحدى ملذّاتنا. الدين؟ باطل بأعيننا. لن تلقَي هنا غير الضراوة، العنف، الفسوق. والخضوع أفضل لكِ؛ فهو المتاح لكِ أن تفعليه. هل ترين قدر المشقّة في بلوغ هذا المكان؟ ليس لوجه غريب أن يظهر هنا. لو نُهب المحفل، أُحرق عن بَكرة أبيه، فسيظلّ هذا الملجأ مخفياً. كما ترينه، مقصورة معزولة مستحكَمة الجوانب. وأنتِ فيها هنا، يا فتاتي، مع أربعة رجال لا يودّون طبعاً إنقاذكِ. لن تنفعكِ دموعكِ وتوسلاتكِ غير بعث العنف فينا أكثر. فلمن تتوجّهين؟ الأمر هكذا، يا تريز. ليس لقوّة أن تنزعكِ من أيدينا، أو تصون عفّتكِ ـ ولا بمعجزة. ستوافين نوباتنا وتحبّبينها، لن ترفضيها أبداً. فتجهّزي الآن، أو سنُريكِ معنى العذاب الضاري الذي ستتعرّضين له بالتأبّي علينا!».

ومع النيّة الحقود بكلماته، أحسّت جوستين بالجريرة العظيمة التي ستُرهق ضميرها فيما بعد إن لم تتشبّث مستميتة بالقشّة الأخيرة التي قد تصون عفّتها؛ فرمت بنفسها على قدمَي سفيرنو ورطّبت بدمعها ركبتَي واحد من الرباعيّ. تضرّعت إليه من فصاحة يائسة لروح ضائعة ألا ينتهز حالتها المؤسّية. حاولت أن تبعث فيه كلّ ما تصوّرته أشدّ إقناعاً، كلّ ما ظنّه خيالها إثارة للشفقة. لكن ضاع كلّه دون بُغية. تنسى دائماً أن للدموع في عُرف هؤلاء الرجال جاذبية إضافية؛ فاستعصى عليها الاقتناع بمحاولة استرضائهم فهي تملّح وجبتهم ببساطة، تشحذ شهيتهم.

قال سفيرنو مهتاجاً: «امسكوها! امسكها يا كليمن! دعها تدرك أن الشفقة مع مثلنا تُقسّي الطبيعة!».

أزبد كليمن. فما أبدته جوستين من مقاومة بعثت فيه دعابة تتّقد نشاطاً. فمسكها بذراعيه الطويلين يهدّدها بصنوف الموبقات.

قال سفيرنو: «مخلوق بديع! ليصعقني الله فأموت إن كنتُ رأيتُ أبدع من صنعه هذا!». واستمرّ «سادتي! لنضع الأمر في نصابه. تعرفون صيغ استقبالنا. لتجرّبها جميعاً ـ فلن نستثني منها شيئاً. ولتستعدّ الأخريات لمعونتنا أثناء لعبتنا وتزويدنا بما نحتاجه من ضرورات».

تشكّلت حلقة فورية بمركزها جوستين، حيث ظلّ يثيرها على نحو متّصل ولفترة طويلة من الزمن، النسّاك الأربعة المشاكسون، كلٌّ بدوره.

لم يعد سفيرنو قادراً على كبح نفسه، وكحيوان يستعدّ لافتراس ضحيته، قال نافد الصبر: «هيا! ليصل كلٌّ إلى بُغيته!».

طرحوها أرضاً... جوستين البائسة الصغيرة ـ وهي تُطلق صرخات فظيعة؛ فلم تخبُر مثل هذه المعاناة طيلة حياتها.

ثم جاء كليمن بملء ذراعيه قضباناً وومض غريب في عينيه. يتهته دون سياق: «أنا من سينتقم لكَ، يا أخي الراهب! سأؤدّب البهيمة لمقاومتها إياكَ!». وأدار جوستين نحو إحدى ركبتيه. حاول مفتتحاً جَلدها خفيفاً؛ ثم انطلق بشهوة مجنونة يَجلدها بكلّ ما أوتي من قوة. لم تستطع قطعة من الفتاة البائسة الفرار من ضراوته. ومن بعد أخذ كلّ من الرباعيّ دوره من جديد.

وصلت المراسم التمهيدية لنهايتها، فأمر الراهب الأول النساء بإطعام جوستين. لكن يأسها كان بمنتهاه، فعاندت في الرفض. أصابها عجب قليل، فقد اعتادت الحظّ من كبريائها كلّه وسعادتها في سبيل عفّتها؛ وكونها فتاة طيبة يسرّي عنها دائماً حظّها التعس؛ لكنها الآن موجوعة بأسى خسرانها؛ وبين يدي نسّاك، ممّن لم تتوقّع غير العون والسلوان. خسران لا يُعوّض حتى أنه هزّها بنشيج عنيف، فارتُجّ القبو من صراخها. تقلّبت بالأرض، حفرت ثدييها بأظافرها، مزّقت شَعرها

ترجوهم جميعاً التخلّص منها.

أهاج هذا المشهد نيران عواطف الرهبان المُجهَدة.

فقال سفيرنو: «آه! لم يمتعني قطّ مشهد أروع من هذا! يا أصحابي، شيء خارق! امرأة خارقة!».

قال كليمن: «لنغصبها ثانية! سنعلّمها كيف تُعول!».

وبعربدة ثانية شفوا غليل نزواتهم منها، حتى قال الراهب الأول أخيراً: «يكفي هذا بأول يوم. لنجعلها تفهم الآن أن غيرها من النساء رفيقاتها لسن أفضل منها».

أجلسن جوستين في كرسيّ عال، يجبرونها على متابعة المشاهد الأخرى، التي كانت على وشك أن تُنهي عربدات الليل.

اصطفّ النسّاك فوقفت أمامهم النساء الأخريات، لتلقّي تحية نهائية من جديد، جَلدة من سياطهم.

خلصت المراسم، فأكل النسّاك الأربع وشربوا لإذكاء قوّتهم.

أوصى الراهب الأول بوضع جوستين تحت رعاية إحدى النساء، تُدعى أوفال، وهي المسؤولة عن تعليم وتنصيب جوستين في بيتها الجديد.

جوستين في ليلتها الأولى، عييّة منهكَة، لا تبالي شيئاً. بالحجرة التي سكنتها، رأت في تشوّش تلك الأخريات اللاتي لم يحضرن مائدة العشاء.

تركتها أوفال وحدها، فارتمت جوستين شيئاً ثقيلاً في الفراش. لم تنل راحة طيلة الليل وكانت تنتفض بمنامها، مما جعل عقلها المخدّر فريسة لكوابيس ساعات يقظتها.

الفصل العاشر

يتمي محفل موتا العالي لطائفة الشامان. نشأ منذ ما يزيد عن مائة عام على الأساس نفسه، وكلّ راهب وفد إليه ساهم في صون وبسط تقاليد هذا المعبد الموقّر لجلب البهجة واللذّة للواهمين. راهبه الأول الحالي، دوم سفيرنو، أحد المنافحين عن طقوس الطائفة الشامانية. إيطاليّ ينحدر من سلالة ملكية، ذو مسلك ودود حميم مع كثير من أصحاب المكانة العالية. سكن المحفل لتزجية السنين الأخيرة من حياة طويلة خصّها لشؤون الطائفة بتخلٍ سعيد وأعمال طيبة، فأفضى كلّ شيء لما كان يعتبره حياة مواتية. في زمانه دعمت المعجزات المنسوبة للروح العظمى سُمعة الدير، ومنعت الناس من متابعة ما يدور بداخله عن كثَب. أما هادي الطائفة، فسواء دلّ أو لم يدلّ عما يدور داخل المحفل، فلم يكن يلفت انتباهاً بل لا يظهر قطّ. كان يفد إليه واقعياً قلّة من الناس، عدا وقت العيد، عيد النور. ولحظة وفادتهم يقوم على رعايتهم الراهب الأول فيستقبلهم عطوفاً. وخلال تجلّي قداسته الزاهد كان يُضلّل الزوار. فيخرجون بمنتهى الحبور، دون أن ينالوا غير بركة واحد من الرباعيّ.

المحفل مدعوم بتمويل ضخم. والنسّاك الأربعة الذين يعيشون فيه، رأس الطائفة الشامانية، في غاية الثراء. كانوا مستقلّين عن التمويل الضخم الذي تسهم به الطائفة للحفاظ على هذا الملجأ، حيث ينعش الأمل كل فرد من الطائفة في قضاء أيامه الأخيرة هناك، ويهب ساكنو

المحفل قسماً كبيراً من ثرواتهم لصيانته دائماً. يُستخدم سنوياً أكثر من مئة ألف دولار لمصاريف النُزل وخطف وافدات جدد.

يوظّف النسّاك اثنتي عشرة امرأة مؤتَمنة لجلب أعداد منتظمة من الفتيات الجدد، شرط الحَسَب الأرستقراطيّ. ويصعب إرضاء ذائقة الرهبان بشأن اختيار الأجسام. ومعظم من يحشدون من نساء هنّ غالباً من مراتب النبلاء. حُملت أوفال، ابنة الكونت المشهور، من باريس في عمر الثانية عشرة، وكان مقدّراً لها أن تنال ذات يوم دوطة تبلغ مئات آلاف الفرنكات. سُرقت من ذراعَي مربيتها، وقد خرجت مع الطفلة في نزهة للريف. فيما بعد اختفت المربية؛ استُميلت غالباً. وهكذا مع النساء الأخريات: فقد كنّ من أصلاب دوق، كونت، بارون، مركيز.

ولأسر النساء تُتخذ احتياطات بالغة ونادراً ما تنمّ عنها أي شكوى.

مع آخر مستجدّة للدير يتم التخلّص من إحدى القدامى. وهي ممارسة تُعرف باسم تطهير الفتاة. عادة غريبة، ولغز حيّر الفتيات، فلا علم لديهن عما سيؤلن إليه بعد التطهير. لكن تحوم لديهن شكوك قوية في الطرد الوحشيّ حيث يفضي رحيلهن عن المحفل لنهاية منحوسة؛ كما فعل جيل دو ريه، أزرق اللحية[1] المشهور، كان هؤلاء الكهنة يلقون متعة مفرطة بالقتل والبتر. عادة التمتّع لديهم فقط بالمعاناة، والعربدة بالتعذيب والتمزيق؛ فهم يفتّشون في القتل عن طريقة لبلوغ التعبير الكامل المثاليّ لهذيان حواسّهم المجنونة.

كلّ من تترك الدير تعد الأخريات بتقديم شكوى حين تخرج؛ لكن لم يُسمع عن أيّ منهن ثانية. وهذا الشكّ الفظيع معذّب، فقد رأت أوفال نفسها أكثر من مائتي فتاة قد طُهّرت؛ وتظلّ تتساءل عما حصل

(1) أزرق اللحية: اصطلح على من يقتل زوجتيه، واحدة إثر أخرى (م).

لهن جميعاً. يتجلّى شذوذ النسّاك في تطهير الفتاة. فلا توجد قواعد ثابتة؛ مجرد تجريب نزوة معهن: فقد تخلّصوا يوماً من فتاة لمجرد أنهم تمتّعوا بها اليوم السابق، وقد يتشبّثون من جانب آخر بامرأة أتخموا بها عشر سنوات. وليس لأحد أن يعرف مَن سيحين عليها الدور.

مع أن المحتفَظ بهن يذهبن ويعدن، إلا أنه كانت بينهن دائماً وجوه جديدة، بينما يظلّ نسّاك المحفل أنفسهم فترة طويلة. دوم أنتوني عشر سنوات؛ كليمن ثماني عشرة؛ جيروم ثلاثون؛ الراهب الأول دوم سفيرنو خمس وعشرون.

يستحيل تقريباً على أيّ فتاة الهرب؛ لكنه يظلّ احتمالاً، فيحاولن. الدير مصمّم مثل قلعة. بظهر المذبح، في غور المحفل، باب محجوب مبطّن يُفتح بزنبرك مخفيّ يفضي إلى خندق طويل معتم، أُخذت جوستين عبره من المحفل إلى الدير السريّ منذ وصولها أول ليلة. يمرّ الخندق تحت مسرب مائيّ عميق. ثم يرتقي من الجانب الآخر نحو مستوى ستة أقدام تحت الأرض ويجري في مداره مسافة بانحناءات ملتوية إلى أن يبلغ مناطق الدير السفلية.

كان الدير بناء واطئاً للغاية، يتوه عن الأبصار بين صفوف سياج مشجّرة كثيفة عالية تحيط جوانبه كلّها. ويبدو سطح الدير كثيفاً يعتليه من الخارج صهريج مليء بالطمي حيث تكتنف السياجَ المحيط شجيراتٌ مزروعة خضراء أبداً، فتمنح المرء إيهاماً كاملاً بأجمة كثيفة عزلاء.

ليس فوق الأرض غير طابق واحد، يضمّ جناحَي الحريم الأساسيين، لكن تحت الأرض ثلاثة طوابق إضافية.

ملجأ صعب البلوغ يمنح النسّاك طمأنينة كاملة، فيحفز ضراوتهم كثيراً.

يعود النسّاك للمحفل كلّ صباح في التاسعة. لكن يخلفون وراءهم واحداً، يلقّبونه الوصيّ. يظلّ طيلة اليوم بالدير. ثم يرجعون الخامسة مساء مع المؤن الضرورية، فيعطونها للطبّاخ، ويقضون باقي الليل في الدير.

تتبع النساء روتيناً يومياً. ومع أن عشاء النسّاك يبقيهم لوقت متأخر، إلا أنه عليهن إيقاظهم في التاسعة صباحاً بدقّة. قرب هذا الوقت يهلّ وصيّ النهار في زيارته الصباحية المعهودة. ولا يمضي، إلا نادراً، دون مشهد شهوانيّ تُوظّف فيه الفتيات كلّهن عموماً. بعد انتهاء أول المراسم، يُقدّم الفطور. وحتى المساء لا يكون لدى النساء ما يفعلنه. ثم يُستدعَى بعضهنّ للعشاء مع النسّاك بالسابعة، فيُحجزن هناك إلى ساعة متأخّرة من الليل.

بأول كلّ شهر يتّخذ كلّ راهب فتاة لخدمته تلك الفترة، فتعمل على ترتيب حجرة نومه علاوة على مَهمّات المرأة العامة. تُدعى الحارسة. تؤدّي كثيراً من الخدمات الوضيعة. فهي كلّ مساء لحظة تدقّ الخامسة تغادر المخدع نازلة إلى الناسك الذي تقوم على خدمته. ليس لها أن تبتعد عنه حتى يستعدّ للرحيل صباحه التالي إلى المحفل. وفور عودته تتولى رعايته من جديد. تُرغم على تحمّل نزواته، صفعاته، سياطه، وألوان المتع المنوّعة، وأدنى نفور من أيّ خدمة بغيضة ينبغي أن تؤدّيها تُعاقب عليها بعذاب صارم. تصحبه بكلّ مكان، تُلبسه وتجرّده، تنتظر يده أو ساقه. وهي مخطئة دوماً، مجلودة دوماً؛ وبمائدة العشاء مكانها خلف كرسيّ سيدها، أو عند قدميه، أو تحت المائدة مثل كلب، أو على رُكبتيها.

الجَلد أهم حافز في نوبات فسوق النسّاك، ولحشد اللذة مع التقويم كانوا يسوقون الفتيات غالباً بالجَلد. والأخطاء المرتكبة أنواع،

لكلّ منها عقاب معين. فثلاثون جَلدة لمن لا تستيقظ صباحاً في الساعة الموعودة. أما الإهمال أو التواني عن الانضمام للعربدة، فعليه مائتا جَلدة. وهذا القانون الأخير يجعل أياً منهن تُحجم عن السقوط فور ارتكاب أدنى خطأ من جانبهن. وعليهن تحمّل التقويم مهما كان؛ فلا أحد ينصت للشكاوى أو الدفاع قطّ. ولسوء السلوك بالمخدع: ستون جَلدة. أمارات الدموع، الأسى، الندم، أو الخشوع الدينيّ: مائتا جَلدة. أيّ نظرة نفور من مراودات النسّاك: مائتا جَلدة. اكتشاف المؤامرات أو النصائح الشريرة: ثلاثمائة جَلدة. نوبات الانتحار أو رفض تناول المنعشات اللازمة: مائتا جَلدة. عدم إبداء الاحترام للنسّاك: ثلاثمائة جَلدة. أما الشروع في الهرب أو التمرّد: فتسعة أيام بالزنزانة وثلاثمائة جَلدة يومياً.

قائمة طويلة جداً، معلّقة بمكان بارز داخل الدير.

الفصل الحادي عشر

تنبّهت جوستين، أول صباح لها في المحفل، فوجدت أنها في مخدع كبير يضم ثمانية أسرّة صغيرة نظيفة مصفوفة إلى الحائط. يمين كلّ سرير حجرة صغيرة بنافذة عالية فوق الأرض، تحكُمها قضبان حديدية من الداخل والخارج. بالحجرة ذاتها سبع فتيات أخريات.

تحسّ أنها ميتة أكثر منها حية. مع ذلك تستعدّ لما هو أسوأ. لكن الصلاة تحصّن روحها إلى حدّ كبير

في التاسعة ظهر دوم أنتوني. فاستُدعيت الفتيات معاً، شكّلن صفاً كما العادة. ألقى عليهن نظرة خاطفة وبعد عدّهن جلس. تطلّع في جوستين، سألها عن شعورها. فردّت نصرته والدمع بعينيها. قال الناسك ضاحكاً: «ستعتادين. لا يوجد منزل بفرنسا فيه فتيات أفضل تدريباً». وألقى على الفتيات محاضرة طويلة عن واجبات النساء، ثم وجّه خطابه إلى جوستين ثانية، مما جعلها ترتجف كلّ لمحة، كلّ حركة، من هؤلاء الرجال كأنها حكم بالموت. أخبرها أن تحضر قرب المساء عند صومعة دوم كليمن فهي حارسته، وسيمنحها التعاليم الضرورية. بعد رحيله، قُدّم الفطور.

حين دخل كليمن صومعته مساءً، وجد جوستين هناك. سقطت على ركبتيها تترافع أمامه استرحاماً. فأخبرها صارماً بالنهوض. قال: «ستعانين كثيراً يا تريزا»، وعيناه منقدحتان. خشية المزيد من إثارته صمتت، تبلع أنفاسها في فزع حتى غطى العرق جبينها وأحرق الدمع

عينيها. أدارها حوله ثم تابع يجلدها بقضبان نحيلة طويلة تلسع لحمها بضراوة.

قال: «تسعدينني. فلم أجلد أحداً منحني هذه اللذّة العظمى!».

مُنهكاً في النهاية، قال كليمن: «هيا نرقد؛ هذا كثير عليكِ، يا تريز. أما أنا، فلم يكُ زائداً ـ لم أنل كفايتي. لا يهلك المرء من هذه الرياضة بسهولة؛ فهي مبهجة حقاً. آهِ فتاتي العزيزة، أيّ متعة تجلبها عليّ عذابات الآخرين. وبزيادة هذه المباهج، نهاية زلّتنا، عموماً. لكن حيث توجد الإرادة نعرف الطريق!».

بدا هادئاً فاقتربت منه جوستين في تردّد خشية نوبات جنونه.

قال لها كليمن: «أكثر سخف بالعالم أن يجاهد المرء أهواءه. كم يبدو مضحكاً أن نلومه أو نعاقبه أو نكبحه، أو لا نعمل وفق فكرتنا عن الأشياء! تريز، عزيزتي، ما لا يفهمه الناس هو أن الأهواء، سواء غريبة أو إجرامية، تعتمد على طبيعتنا؛ وقد ولدنا بها هكذا. إنها فينا، والصحيح، كما أتساءل، أنه لا يريد أحد منا تغييرها إلى نحو غير طبيعيّ. فالقوانين دُبّجت لسعادة الإنسان، أليس كذلك؟ بأيّ حقّ إذن يعاقبون من لا يستطيع تقويم نفسه، أو من يقوّم نفسه على حساب سعادته؟ لكن، هل يستطيع المرء تغيير أهوائه؟ هل بمقدوره إبطال نفسه، طبيعته الخاصة؟ هل له أن يصبح ما ليس فيه؟ هل لكِ بسؤال صاحب الأنف الكبير أن يتّخذ أنفاً أصغر؟ جرّبي لتفهمي، يا تريز ـ فلستِ فتاة غبية ـ جرّبي لتفهمي ما أودّ قوله. تعرفين أنكِ ضحية اثنين من أهوائنا الصريحة: الأول، أنكِ مندهشة مما نتمرّغ فيه من فسوق؛ والثاني، أنكِ مندهشة من اغتصابنا هذه الملذّات الحسيّة العنيفة ناهيك عن الضراوة ومعاناة الآخرين. لو حلّلنا هذا كلّه، فسترين بساطة الأمر. تقولين إن كلّ بغيض ومرعب يمنحنا اللذّة. لكن في خيالكِ فقط أنه

بغيض ومرعب؛ أما لنا فهو مختلف، حسب ظنّ كلّ امرئ. فنحن نستجلب أفكارنا عن الأشياء من الخيال أساساً. وهو معمل الرأي الذي يقوم بتعديل وتلوين ما نراه وما نسمعه وما نشمّه. ومنه نعرف أفكارنا. ليس لديكِ شكّ في أن الخيال مختلف لدى كلّ إنسان. وهو السبب الذي يجعلنا جميعاً ننظر إلى الأشياء بشكل مختلف. ولو وجد في العالم من تعارض أهواؤهم الأعراف العامة، فعلينا ألا نُخطّئهم أو نعاقبهم. بل نمنحهم كلّ وسيلة لإشباع أنفسهم بدون مخاطر؛ فلا تخصّهم مسألة اتّخاذ هذا الهوى الغريب أكثر مما تخصّ الآخرين لكونهم أغبياء أو أذكياء، أو ذوي قوام مليح أو قبيح. لقد مُنحت للمرء أهواؤه، شخصيته ومزاجه، من رَحِم أمّه وليس لشيء أن يغيّرها، لا التعليم ولا غيره. الصالح أو الطالح مولود هكذا؛ يسلك نفسه ببساطة وفقاً للنظام الذهنيّ الذي منحته إياه الطبيعة. نعم يا تريز، والغريب أن الناس يفهمون فروق الأهواء حين يتعلّق الأمر بغيرهم فحسب! ويا للجلبة التي يحدثونها حين يتعلق بما نحمل من ملذّات! هنّ النساء، خطيئتهنّ غالباً. يقلقن دائماً على حقوقهن؛ ودائماً تافهات، أنانيات، لا يردن خسران شيء لصالحهن، لا يردن اغتصاب شيء منهن. وحين يجد امرئ لذّة فيما لا يستطعن مشاركته فيه، يرتكبن جرائم تستحقّ المشنقة! فيا له من ظلم! هل توجد طريقة واحدة لتمتّع المرء بملذّاته؟ هل على الإنسان أن يبدع خلاّقاً بوظائف الحياة الأخرى دون ملذّاته! كما قلتُ سابقاً، ذو الأهواء الغريبة مريض، لكن من السخف والعنف عقاب مَن مثل هذا، مهما كانت آثامه، فمن يعاقب أو يهزأ أو يسخّف هذا، امرؤ كسيح. ألن يصبح عادياً لو كان فيه ما فيه ـ ومن ليس فيه! حين يكتمل التشريح، سيتبيّن أن الأخلاق كلّها مسألة فيزيقية أصلاً. فإلام تؤول قوانينكِ عندئذ، أخلاق، دين، مشانق، فردوس، الله والجحيم، حين يتّضح أن نظام أعصاب معيناً، ردّ فعل كيميائياً غريباً

بالجسم، درجة معينة من الفساد بالدم، هي ما تجعل امرأ ما عليه، أفضل أو أسوأ؟ ـ لا تقاطعيني الآن، يا تريز، دعيني أسترسل فيما أريد قوله. قد تسرّكِ أيضاً ضراوتنا. لماذا؟ ماذا يبغي المرء من المتعة: أليس ليمنح حسّه المثيرات التي هو عرضة لها، حتى يصل رعدته الأخيرة أفضل وأسرع؟ الرعدة، تلك هي المسألة! وتكون جيدة أكثر أو أقلّ وفقاً لما تجد نفسها فيه من فعالية أكبر أو أدنى. ولاغتنام هذا، فلا ضرورة أن تشاركه المرأة. أليس هذا دليلاً حقيقياً على أنه كلّما شاركتنا المرأة في شيء شردنا عن بلوغه؟ وما ضرورة أن تتمتّع المرأة ونحن نتمتّع! ألا يكون إحساساً أبهج حين نرغم المرأة أن تكفّ عن التمتّع لنتمتّع وحدنا فلا يُعيقنا شيء لكوننا منشغلين فقط بمتعتنا نحن؟ ألا يُشبع غرورنا أكثر؟ لنعترف بأن هذا ليس من الرقّة. ومن أين تأتي الرقّة؛ فهي نقيض التمتّع حقاً. قد تمضي الرقّة يداً بيد مع الحبّ أو الرومانسية؛ مع أن الحبّ والتمتّع مختلفان كلياً. فالناس يحبّون يومياً دون تمتّع ويتمتّعون دون حبّ. أياً كان ما يتأسّس على الرقّة فهو لصالح المرأة على حساب الرجل. وهو ما لا ينبغي أن يكون؛ على العكس فالأصل أن يتمتّع الرجل على حساب المرأة، ناهلاً من كلّ شيء بغضّ النظر عن المرأة. وما دامت الأنانية أول قوانين الطبيعة، فعلينا أن نغترف منها بملذّات العواطف! مع المرأة، لا يجب أن تعني الرجل غير بهجته. وخارجها لا علاقة بينهما على الإطلاق؛ فالمرأة شيء مجرّد، جُبل على خدمته. وإن حدث يا تريز، فلأن الرجل مجبول لسوء الحظّ على أن المرأة تسهّل لذّته بالمعاناة، عليكِ بالاعتراف أنه قد يعتزل ذلك دون ندم، فهو موجود لمتعة نفسه، لا عداه. هذه مبادئ راسخة، يا تريز. وإن لم تُفهَم، فلأن العالم مليء بتماثيل خشبية، تأتي، تروح، تأكل، تهضم وتتمثّل، دون أن تُدخل في حُسبانها حقّ أنفسها. لكني لا أعرف لماذا يصعب على أحدٍ إدراك أن التمتّع الأنانيّ

أفضل سحراً من أيّ تمتّع آخر. ويفضي بي هذا الآن إلى التفسير الكليّ الذي أودّ أن تفهميه. إن عواطف الشهوة من الخيال غالباً، خيال موظّف تحت إمرة استحواذ. استحواذ هو نوع من الجمال الذي يثيره أكثر، أو يتلقّى من مبعثه أعظم إحساس مستطاع. ولا إحساس بمبعث أسرع من المعاناة؛ فهي صور إيجابية لا تخدع مثل صور اللذّة، تلك التي تثيرها النساء أبداً، لكنهن يشعرن بها في مشقّة. أيضاً، ما حبّ الذات، الشباب، القوة، والصحة، فهي ضرورة لنتأكّد من منح المرأة هذا الانطباع المُرضي باللذّة طفيفاً وغير مضمون! مع ذلك فلا يتطلّب الألم شيئاً أو مجهوداً؛ كلّما تخلّى عنه الرجل نضج أكثر، وبات أقلّ أنساً، فزاد نجاحه. يصل نهايته أشدّ طمأنينة؛ فنحن نُبقي على من لا يقدح خياله أكثر ممن يمنحه بأقوى صورة ممكنة، بأيّ طريقة. فكّري، كم هو أمر بسيط يا تريز؛ أهمّ ما في الملذّات الحسيّة بلوغ ذروة أعلى من التمتّع؛ فالتمتّع يزداد قياساً مع الكثافة أو الحسّ الذي يتلقّاه الخيال؛ والحسّ أو الصورة الأشدّ كثافة من ناتج الألم. وعليه، فالشهوانيّ الحقيقيّ هو الذي يفرض أكبر قدر من الألم».

قالت جوستين: «هي أعراف مفزعة، سيدي! تُفضي لما هو عنيف، لأهواء آثمة!».

فردّ كليمن: «وما الفرق! ألم أقل تواً إننا لسنا أسياد أهوائنا! وليس علينا سوى تتبّع حوافز طبيعتنا؟ أليست هذه الأهواء جزءاً من الطبيعة؛ أكنّا واجدوها إن لم توجد فينا. فماذا يعنينا من عاقبة هذه العواطف! حين يودّ المرء إسعاد نفسه بأيّ فعل، هل تهمّه العواقب!».

قاطعته جوستين: «أنا لا أتكلّم عن العواقب، فسؤالي عن الأصل نفسه. إن لم تستقو على طبيعتكَ، وتهوى التمتّع وفقاً لمبادئكَ، أفلن يُفضي بكَ إلى القتل؟».

«طبعاً! فالأهواء الممنوحة من الطبيعة تعمل لصالحها، تستنفد إبداعها بالهلاك، وأنا أنفّذ مخطّطها. تريز، أهي جريمة أن نسهر على خدمة الطبيعة؟ وهل يملك المرء قدرة ارتكاب جرائم؟ حين يفضّل سعادته على سعادة الآخرين، يطيح ويهلك كلّ ما يلقاه أمامه، فهل ينفّذ شيئاً غير خدمة الطبيعة، التي تثيره إلهاماتها الأولى الحقيقية في إسعاد نفسه، مهما كان الثمن؟ إن حبّ المرء لجاره وهم خياليّ ندين به للمسيحية، لا للطبيعة. وقد كان معظم مريدي الأديان الأُوَل ضعفاء، مطعونين، مضطهدين؛ في مسيس الحاجة للتسامح، فأجبرهم ضعفهم على نُشدان الإنسانية. وهو ما يعني أن خلاصهم مؤسّس على علاقة خرافية بين المرء وأخيه، وبقاؤهما معلّق بنجاح هذه العلاقة. لكن الفيلسوف لا يعترف بهذه العلاقة. فهو لا يهتمّ بغير نفسه، يعوّل على نفسه في كلّ شيء؛ ويفوز بمنطق قوّته. لديه مسرب لأعراف الإنسانية الرائعة، وفضله أحياناً من واقع الدهاء».

قالت جوستين: «مثل هذا الإنسان وحش!».

«مثل هذا الإنسان رجل الطبيعة».

فأفحمته: «بل حيوان ضارٍ!».

«طيب، ما دمتِ ترينه هكذا. لقد خلقت الطبيعة النمر والفهد، مثله، لتنفيذ نواياها. فالذئب الذي يفترس الحَمَل، وفاعل الشرّ الذي يهلك مبعث عاطفته، ينجزان بحث الطبيعة، الأمّ العمومية».

قالت جوستين: «أرفض الاعتراف!».

«لأنكِ تخشين كونكِ الحَمَل. أنانية صرفة، يا تريز. لو كنتِ الذئب لتفهّمتِ المسألة. اسألي الحَمَل، فلن يفهم لماذا يفترسه الذئب. لكن اسألي الذئب ما نفع الحَمَل. سيردّ (ليغذّيني). الذئاب تلتهم الحملان؛ والضعفاء ضحايا الأقوياء ـ من الطبيعة. هذا مبحثها،

مخطّطها: فعل أبديّ وردّ فعل، جمع رذائل وفضائل. باختصار، التوازن الكامل ضروريّ لصون النباتات والحياة، من دونه يهلك كلّ شيء. يا تريز، هي الطبيعة تفزع لو جادلتنا لحظة بصوت عال فأخبرناها أن هذه الجرائم تخدمها، لأن الرهون التي تطلبها وتلهمنا بها، يُعاقب عليها القانون. قد تقول: إنكم مغفلون! كلوا، ناموا، اشربوا، وارتكبوا هذه الجرائم فهي صلاح لكم. إنها تسُرّني وأنا ألهمكم بها. تقيّدوا فقط بما يُثيرني. تعلّموا أنه لا شيء فيكم إلا ويتعلّق بي، ما من شيء إلا وضعته هناك لأسباب لا يليق بكم أن تعرفوها. أكثر أفعالكم شراً، كأكثر أفعال الآخرين خيراً، هي ببساطة إحدى طرائق خدمتي. فلا تُعيقوا أنفسكم، واحتقروا قوانينكم، تقاليدكم الاجتماعية، أربابكم. أنصتوا لي وحدي، واعرفوا أن الجريمة حيث توجد مقاومتي!».

صرخت جوستين: «آهٍ يا ربي! أنتَ تثير رِعدتي! إن لم تكن هذه الجرائم ضدّ الطبيعة، فمن أين الاشمئزاز الذي نحسّ به من أفعال معينة؟».

«هذا الاشمئزاز ليس من الطبيعة، يا تريز. إنه من طلب العادة. ألا نحسّ به نفسه مع أطعمة معينة؟ نمقتها لمجرد طلب العادة في تناولها. ألا نجد فيها نفعاً لأننا لم نربّ أذواقنا عليها؟ لو غلبنا أذواقنا المعهودة لاتّفقنا فوراً على مذاق بعض من هذه الأصناف السارّة. وهذا الاشمئزاز اللحظيّ الذي تحدّثتِ عنه أكثر من ماكر، دلال للطبيعة أكثر منه تحذيراً مما يثير هياجها. وهكذا تُعدّنا لملذات النصر؛ تستزيد من حوافز الفعل نفسه. كلّما أعاق الفعل عاداتنا وأخلاقنا، اشتبك أكثر مع أعرافنا الاجتماعية، أضرّ بما نؤمن أنه قوانين الطبيعة، وكان على النقيض أكثر فائدة لهذه الطبيعة. فهي عبر الجرائم تستقي حقوقها، تلك الحقوق التي سلبتها منها الفضيلة. لو كانت الجريمة هيّنة، لأسّست

بطيئاً التوازن اللازم لها. دعي من يخطّط لجريمة إذن، فلن يتولّد لديه وخزُ ضمير؛ وكلّما كبرت الجريمة، زادت خدمته للطبيعة».

ريثما كانت جوستين تنصت لمنظومة دوم كليمن، زحف إلى بالها شكّها السابق عمّا يحدث للفتيات بعد طردهن من الدير؛ ودّت لو تحسّ به يتنفّس منها، فغامرت بأسئلة متحفّظة.

قالت: «على الأقلّ أنتَ لا تمسك للأبد بضحايا عواطفكَ. تطردهنّ طبعاً حين تملّ؟».

«وسنطردكِ طبعاً من هنا حين نتّفق نحن الرباعيّ. ستروجين في النهاية».

سألته جوستين: «لكن ألا تخشى أن تخونكَ إحدى الفتيات بعد طردها من هنا؟».

«مستحيل!».

«مستحيل؟».

قال كليمن: «أبداً!».

«لماذا؟... هل لكَ أن توضّح السبب؟».

قال: «لا، فهو سرّنا. أقول لكِ فقط مستحيل»، وأضاف: «تثيرين فيّ الكلام كثيراً يا تريز، ولا أعرف السبب. تعبتُ، فدعيني وحدي»، وراح في النوم ببطء.

لم يعد لدى جوستين شكّ في اتّخاذ تدابير عنيفة ضدّ الفتيات اللاتي يُطهّرن، وأن التحرّر من الدير لا يعني سوى الموت.

بعد سويعات صحا كليمن على مزيد من الهياج فمسكها بقوة

ظنّت أنه سيخنقها. أنفاسه متلاحقة وعيناه قلقتان. يهذي طالباً أن تناوله القضبان، ثم شرع في جَلدها بقوة مستجدّة.

باقي الليل ظلّ كليمن هادئاً. ثم راح الصباح التالي للمحفل الوثنيّ وعادت جوستين للدير.

بعد ليلتين كانت جوستين حارسة جيروم، فقاست معه الجَلد نفسه والعلاّقات التي جرّبتها بصومعة كليمن. ولم ينته الأسبوع إلا وقد دارت على الجميع.

الفصل الثاني عشر

حان وقت العيد، فطُهرت ثلّة الفتيات الأكبر سناً وجاء النسّاك بوافدات جدد، إما بإغوائهنّ من قلب المحفل، أو بخطفهن من خارجه. كانت الفتيات يتطلّعن إلى هذا الأسبوع بمزيد من التشوّق، وبأكثر كلامهن لا حديث عن سواه. يتساءلن بينهن وأنفسهن، من ستذهب تالياً؟

وصل أخيراً العيد المشهور. ولإشاعة سمعة المحفل عبر الريف المجاور، يرتّب النسّاك معجزة. يجعلون أصغر الفتيات، فلوريت، تتنكّر بزيٍّ وصيفة موتا، يربطونها بحبال لا مرئية إلى محراب بالحائط. يخبرونها أن ترفع ذراعيها فجأة دلالة ندم إلى السماء كلّما انحنوا إلى الوثن. وهدّدوها بعقاب وحشيّ إن تلفّظت بكلمة أو خابت المعجزة.

لكن فلوريت نجحت لدرجة الإعجاب وانطلت الحيلة. فصاح الناس: «معجزة!» وهم يخلّون قرابين غالية عند موتا ثم يمضون قانعين أكثر من ذي قبل بحقيقة: «ربّ الأرباب وإله الجميع».

ولإضافة حافز أقوى إلى عربدتهم، جعلوا فلوريت تبدو قرب الليل بأردية الوصيفة نفسها التي حازت المزيد من الثناء.

أثار الزيّ النسّاك كثيراً، فأخضعوا فلوريت، متنكّرة كما هي، لأكثر نزواتهم وحشية. قال الراهب الأول عند إحدى نوباته الشاذّة: «من السيّئ حقاً أن تعاني الفتاة الصغيرة البائسة من خيبة الروح».

مُدّدت مفرودة على طاولة واسعة. وأناروا شموعاً. أخذوا أمارة الروح العظمى فوضعوها بين حِقويها، وانتهكوا قدسيّة الأسرار.

لم تستطع جوستين تحمّل المنظر، فغابت عن الوعي. وحين شوهدت بهذه الحالة، قال سفيرنو إنها ستكون التالية على خدمة المذبح، لتأتلف مع هذه المراسم.

وضعَت محلّ فلوريت، وكان عليها أن تمصّ داخلها الأمارة المأثومة. انتُهكت عندئذ الضحيّة، وجدّف سفيرنو مدنّساً جوستين والرمز الوثنيّ معاً بالوقت نفسه.

أُخذت من أيديهم فاقدة الحركة. ظلّت في كرب روحيّ عظيم بعدها فترة طويلة. فالفضيلة أرقّ عواطفها، وأيّ شيء يؤذيها أو يزدريها يخضّ دم قلبها.

دخل سفيرنو الصباح التالي حجرة الفتيات ولدى رؤيته أوفال أبلغها أن الدير طهّرها. قال: «شبعَت منكِ الجماعة. فاستعدّي الليلة. سآتيكِ بنفسي».

ألقت أوفال نفسها بين ذراعَي جوستين تبكي.

«ماذا سيفعلون بي؟».

قالت جوستين: «هدّئي من رَوعكِ، لا تخافي؛ سيمضي كلّ شيء بخير».

لم يحدث شيء نهاراً؛ وعند الخامسة قدِم الراهب الأول لأجل أوفال.

«مستعدة؟».

فبكت: «آهِ سيدي. أودّ توديع صديقاتي».

«تعالي، ليس ضرورياً. لا وقت لدينا للمشاهد الدامعة، ينتظروننا. تعالي، هيا!».

طلبت جوستين من سفيرنو أن ترافق أوفال للباب، فصدّها بنظرة جعلتها تنكص على عقبيها. تركت أوفال الدير أخيراً، بنظرات ودموع حزينة. ارتمت جوستين على فراشها تدفن رأسها يائسة. واستسلمت باقي الفتيات، دون مبالاة.

وعاد الراهب الأول بعد أقلّ من ساعة ليأخذ اللاتي عليهن الظهور بحفل عشاء الليلة. كانت جوستين واحدة منهن.

بحفل العشاء مضى كلّ شيء كالمعهود، عدا همس النسّاك غالباً كلٌّ مع الآخر واحتساء الشراب أكثر من المعتاد. لكنهم صرفوا الفتيات أبكر بكثير، سمحوا لهنّ جميعاً بالذهاب إلى النوم. وبارتباك كبير، لم تعرف جوستين ما تخمّنه في مثل هذه الظروف، فهي مختلفة عن نظامها العاديّ. لكنها متنبّهة لكلّ ما يحدث، ومطمئنة نوعاً إلى أمل غامض ملحّ أن أوفال في أمان بالخارج وأنها قد تُسهم في إطلاق سراحها وحرّيتها.

على أي حال مرت ثلاثة أيام لم يُسمع فيها عن أوفال. وفي اليوم الرابع دُعيت جوستين ثانية على حفل العشاء. كانت أجمل النساء بشعائر تلك الليلة، والحارسات هناك أيضاً.

بدخولهن لاحظن وافدة مستجدّة.

قال الراهب الأول: «سيداتي، هذه صديقتنا الجديدة ستحلّ مكان أوفال!».

مخلوقة شابة جميلة الطلعة، حوالي السادسة عشرة، بخصر صغير وأجمل شَعر وجلد أبيض. تُدعى أُكتافي. حُملت عنوة من عربتها، مع

مربيتين وثلاثة خدم بزيّ الخدم. نُقلت معصوبة العينين وحدها للدير ليلاً، لا تعرف في أيّ مكان هي.

لم يكلّمها أحد بعد. رفعت عينيها الباكيتين في خجل نحو الأخريات. وللحظة حدّق النسّاك الأربعة مشدوهين من جمال الفتاة، مستعجلين تلذّذاً كبيراً.

قال الراهب الأول باستهزاء خفيف: «هيا طفلتي الجميلة»، وشدّها إليه: «تعالي، لنرى إن كان باقي جسمكِ جميل كوجهكِ».

فتحيّرت مستحية، تحاول التملّص من قبضة الناسك وهي تتراجع؛ فأطلق ذراعه حول جسمها يشدّها في حِضنه. قال لها: «هل تدركين، يا آجنس[1] الصغيرة، أن هذه ليست طريقة السلوك السديد مع سيدكِ».

جرّبت الدفاع عن نفسها، لكن الحلقة أُحكمَت حولها، فلم يكن لها غير الركض بكلّ اتجاه.

بنوبات ثورته الأخيرة، جُنّ سفيرنو من حِضنها. صاحت بمرارة، لكنهم تجاهلوها. بين الناسك والفتاة تفاوت ضخم، مما جعل أُكتافي تبكي ثانية وثالثة طلباً للرحمة؛ لكن ببطء، بألم، فثارت ثائرته حتى خمد أخيراً، وسط مقاومتها الوحشيّة العبثية.

تلعثم سفيرنو: «لا مجد أشقّ من هذا! فيا لها من كائن، جنيميد[2] آلهة!».

قال أنتوني: «عليّ أن أستردّها!»، ولم يُفلتها لتنهض. فسُمع صياح جديد. قال: «الحمد لموتا!، كنتُ سأشكّ في نجاحي لولا

---

(1) آجنس: قدّيسة مسيحية زاهدة. ويسخر بها المؤلف هنا (م).

(2) جنيميد: ساقي الآلهة بأساطير الإغريق (م).

آهاتها، لكن نَصري تأكّد بالدمع والدم!».

قال كليمن، وهو يدنو بعِيدان في يديه: «حتماً! لن أغيّر وضعيّتها اللذيذة، فهي واعدة جداً!».

كانت حارسة جيروم تحضن أُكتافي الآن. قال يستروح أنفاسه: «يا أصحابي! لم لا نقوم بجَلد المترهّمة التي تُبدي مزيداً من الجمال!».

وأزّت العيدان في الهواء فسقطت بصوت رخيم على لحم الفتاة. وكان أن تلاشى صياحها وسط وابل من التجديف.

❑ ❑

في آخر الليل صُرفت أُكتافي ثانية إلى الدير. أمّلت جوستين أن تُريحها في ليلتها الأولى، لكنها اضطُرّت لحراسة سفيرنو؛ فهي التي تُسعده أكثر من باقي الفتيات. إليها يشتاق كلّ ليلة تقريباً فينشُد دائماً وضعيّة أحدث وأعظم، حتى فكّرت أن تُسلم الروح. يبدو أنها في حاجة للسلوان أكثر من أُكتافي.

الفصل الثالث عشر

اتّخذت جوستين قرارها بعد لأي أن تحاول الهرب، فهي تستعدّ حذرة منذ شهرين تقريباً. دون أن تثير شكاً، وفّقَت في نَشر قضبان نافذة حجرتها الصغيرة؛ وهناك فعلاً فجوة كبيرة نوعاً لتمرير رأسها. استخدمت أزميلاً قديماً عثرَت به وهي تقوم على رعاية صومعة دوم كليمن. ولديها كتّان يكفي بربطه صنع حبل طويل. لم يكن ينقُصها غير لحظة مواتية لتنفيذ خطّتها.

ذات صباح أدهش أنتوني الفتيات بظهوره في حجرتهنّ معلناً أن هُداة الطائفة قد عيّنوا دوم سفيرنو العظيم، حماه موتا، مساعد الراهب الأول في هذه الأخويّة.

ظهر دوم سفيرنو اليوم التالي دون أن يرى الفتيات، وسرت فيما بينهنّ إشاعة أن راهباً أول آخر، يُشتهَر عنه التجهّم الشنيع، قدِمَ محلّه.

الراهب الجديد أستاذ مبجّل في الانضباط، وفي بلاغ مطوّل أرسل كلمة مفادها أن المحفل قد تتداعى قريباً تقاليده القديمة الموقّرة، وعليه فهو بمرحلة حرجة من إرثه الطويل؛ يواجه احتمالات فنائه المبرم ويجب اتّخاذ قرارات صارمة. وبهذا المستند المكتبيّ الطويل الممهور بمنظومة مفترَضَة من الأختام والشرائط، خطّ عدداً من القواعد سيُحيلها للتنفيذ طيلة فترة تولّيه المنصب. يقول المستند: «يا له من نمط، من أمّة، من شعب! دون تقاليد مهيبة، دون عمود فِقَريّ، دون سِناد أو داعم لوجوده!».

وحفز هذا التحوّل للأحداث خطّة جوستين للهرب. لم تعد تحسّ بما تخشاه، حتى لو أخفقت في تحقيق فرار ناجع فلن تجد أمامها ما تخسره؛ فالموت نهايتها الحتمية بطريقة أو أخرى. بينما هناك في حال توفيقها فرصة على الأقلّ للإنقاذ.

تخيّرت وقت تطهير النسّاك لفتاة أخرى، حيث يمكن تحقيق الهرب. يشغل النسّاك بالهم التطهير فأولَوها عناية قليلة. فتيات الدير في حفل العشاء معاً، فخلّوا جوستين مع رفيقة واحدة، وقد راحت في النوم. الدنيا أول الربيع والليالي طويلة، تبارك خطواتها. مضت بسكينة نحو حجرتها الصغيرة فنظّفت حذرة فجوة النافذة، وهي ما تتحمّل آلاماً لتغطّيها كلّ يوم. ربطت حَبلها بأحد القضبان غير التالفة، وتسحّبت خارجه فانزلقت تحتها على الأرض. رُضّت يداها ونزفتا، وقطعت طريقها عبر دغل كثيف مع إزميل دوم كليمن، كان بالها حاضراً فلم تترك وراءها أثراً. إلى شفير قناة وصلت أخيراً، كان عميقاً لكنه جافّ، بمرحلة ترميم. وعلى الجانب الآخر، أمامها المحفل وكوخ البستانيّ متاخماً له كمحيط ظلّ غميق. ظنّت أنه من الأفضل ألاّ تعبر القناة من هذه الناحية، فانسلّت نحو جانبها المقابل، حيث يواجه درباً يفضي إلى الغابة. القناة محفوفة بقرميد خشن، فنزلت مجهدة إلى تحت دون أن تزلّ حتى وصلت الضفّة الأخرى، لقيت مشقّة قليلة في نزولها، لأن جدار القناة تقوّض مع الزمن، به ثقوب كثيرة أشبه بالسلّم. حين بلغت جوستين القمّة ركضت بجنون إلى الطريق. ولم ينقض طويل وقت حتى خرجت آمنة من الغابة. فاتّخذت دربها بطيئاً نُصب ديجون، حيث فكّرت في تسليم شكواها قانونياً.

الفصل الرابع عشر

على رغم الأشواك التي ظلت تخِز جوستين بسيرتها العصيبة مع الفضيلة، كانت تعود دائماً إلى الله ومشاعر الحبّ والتسليم. وقد أيقنت أن شفاعة إلهها الطيب الذي تعبده هي وحدها ما يسّر هروبها المعجز من محفل موتا العالي. تحسّ، مهما كان هذا الحسّ، أنه حاميها على الدوام. أفلم يوجَد من هو أكثر أسىً منها؟ نعم، وهي تمتنّ عميقاً لكلّ ما صنعت يداه.

بمثل هذه المشاعر ارتاحت جوستين في خان قرب بلدة ديجون.

بُعيد مسافة من ديجون، وقد أوشك المساء، انسلّ خلفها رجلان، فألقيا عباءة على رأسها لحجب رؤيتها أو صراخها، صفّداها كالمجرمين وهما يسحبانها دون أدنى كلمة للمضيّ معهما.

سارا بها قرابة ساعتين على درب تُخفيه عيناها المعصوبتان. كانت تتنفّس بمشقّة، فاقترح أحدهما إفساح المجال لمزيد من الهواء. كشفا رأسها. خشيت أن يستعيدها عملاء النسّاك، فشلّها الخوف.

قالت: «إلى أين نذهب؟ وماذا ستفعلان بي؟».

ردّ أحدهما: «هدّئي من رَوعكِ، فلن نفعل شيئاً. لا تدعي ما نتّخذه من احتياطات يقلقكِ. سنأخذكِ إلى سيد عظيم. يريد خادمة لزوجته، وهو علّة هذا الغموض، لكن لن يلحقكِ أذىً».

«آهٍ سادتي، إن كان فيه سعادتي، فلماذا ترغمونني. ولمَ الخوف

من هربي؟ أنا يتيمة بائسة، أستحقّ الشفقة؛ وكلّ ما أطلبه مجرد مأوى!».

قال أحدهما: «هي على حقّ! فلنُرحها أكثر، فقط نمسك يديها».

مسكاها وواصلا. ولدى رؤيتها خَنوعاً ساكنة، كلّماها برقّة. علمت منهما أخيراً أن من سيأخذانها إليه هو المركيز دي جرنان، نبيل ثريّ يعيش وحده بالريف.

«وحده؟».

«نعم، فهو زاهد فيلسوف. لا يكاد يرى أحداً».

سألت جوستين: «ولمَ هذه الاستحكامات؟».

«السبب، كما سترين، أن زوجة سيّدنا عقلها مفكوك قليلاً. لا تترك حجرتها، ويجب مراقبتها طيلة الوقت. وطبعاً لا يبغي أحد وظيفة كهذه. فلو أخبرناكِ قبلها لتفاديت تقلّد الوظيفة، فاستوجب أن نأخذكِ عنوة».

بكت جوستين: «ماذا! أصبح أسيرة هذه المرأة!».

«طبعاً، وما في هذا! سيمضي كلّه على خير، وسنرعاكِ - لا تقلقي».

«يا ألله!».

«هيا تعالي؛ لا أمر يدوم للأبد. كما أنها وظيفة مضمونة وفيها مال كثير».

لاح أمامهم منزل كبير. يبدو خاوياً مهجوراً كلّما اقتربوا منه.

أُخذت جوستين إلى المركيز، وقد تمدّد في أريكة واطئة. قربه شابان في زيّ مُخَنّثين، دهنا شعريهما بزيوت عطرة. وجهان جميلان، شاحبان كأنهما مريضان.

قال أحدهما للمركيز، وهو يومئ نحو جوستين: «أخيراً فتاة من أجلكَ! تفتّش عن عمل. أظنّها تنفع».

فردّ: «لويس. أغلق خلفكَ الباب، تأكّد أنه لن يدخل أحد حتى أدعوه».

نهض المركيز دي جرنان وباشر متلمّساً ذراعَي جوستين. فحص سريع بليد، ثم سألها عن طبيعة العمل الذي أدّته من قبل. أخبرته جوستين عن حياتها فقال: «رائع، أحسن شيء؛ ستنفعين أكثر في منزلي. من الطيب أن يلازم الحظّ التعس خطوات كلّ وضيع تسلّل قرب أرضنا».

قالت جوستين: «لكن سيدي، أخبرتكَ عن مولدي، فلم يكن وضيعاً».

فنحّاها جانباً: «نعم، نعم. أعي ذلك كلّه. فالناس تهوى دائماً انتحال شخصية وهُم نكرة. أوهام من الزهو. على أيّ حال، الأمر سيان عندي: فأنا أراكِ شبه خادمة، وتلبسين مثل خادمة؛ آخذكِ على هذا المحمل. مع ذلك» وتطلّع فيها حانقاً: «بيدكِ، مسألة السعادة هنا. بقليل من الصبر والتمييز، وخلال عدّة سنوات سأُعفيكِ من هنا بما يكفي من المال لتعيشي في بحبوحة على حسابكِ الخاص».

ثم تناول ذراعيها ثانية، الأول فالآخر، شمّر كمّيها، أنعم البصر فيها بفضول.

سأل: «هل نزفتِ من قبل؟».

قالت جوستين، دهشةً من سؤاله: «لا سيدي».

فقال، يحدّق فيها نزقاً: «أودّ أن أعرف قوامكِ. فليس لي أن أرى خللاً بالمكان الذي ستشغلينه، وعليكِ أن تظهري كلّ ما في طاقتكِ».

حاولت إيقافه، فثار يخبرها ألاّ تلعب عليه دور المحتشمة، فلديه الوسائل الأكيدة أن تكون له اليد العليا على النساء. قال: «ما أخبرتني عن نفسكِ لا ينذر بأرفع فضيلة. ولا مكان لسبل مقاومتكِ فهي مضحكة!».

أدركت أنها دون حماية مع رجل قد يُحيلها لتراب بلكمة من قبضته، فخضعَت.

أومأ المركيز لرفيقيه الشابين، فاقتربا من جوستين وحضناها، مسّها بخشونة وهو ممتلئ حماسة عنيدة.

ثم شدّها لحجرة مجاورة فيها شابان جميلان آخران يعملان بالتطريز. نهضا عند دخول المركيز.

قال لأحدهما: «نرسيس، هذه خادمة زوجتي الجديدة؛ سأختبرها. فسلّمني المباضع».

فتح نرسيس علبة فأخرج أدوات النزف.

قال المركيز للشاب الآخر: «أرِحها، يا زفير».

أُسندت على ركبتيها جنب كرسيّ عال وسط الحجرة. ثم ثُبّت ذراعاها بوشاحين أسودين موصولين بالسقف. اقترب المركيز، بمبضع في يده. عيناه رطبتان، لاهث الأنفاس. فربط ذراعيها، وشرع ينخسهما بحركات سريعة كالطير. بدأ دمها ينبجس، وكان على وقع المنظر ينخُر باللذة. مضى ليجلس مقابل جوستين، بُعيد ستة أقدام. نضّ عنه ما يلبسه من رداء خفيف. ولم ينحّ عينيه المحترقتين لحظة عن الدم الذي ينقّط منها في وعاءين أبيضين تحت ذراعيها. لبث نرسيس وزفير جنب سيدهما المنكبّ على رؤية الجداول الحمراء التي تطقّ بالوعاءين.

أحسّت جوستين نفسها موهَنة للغاية. قالت وهي لا تكاد تلهث:

«كفى، لخاطر الله كُفّوا!... ارحموني... إنني أتهافت...». وبدأت تترنّح، لكن الوشاحين منعاها من السقوط. فمال رأسها على جانب من كتفها وتلطّخ وجهها بالدم.

❑ ❑

رُدّ على جوستين الوعي، فوجدت نفسها راقدة في فراش دافئ وثير. قربها امرأتان عجوزان، قدّمتا إليها بعض المرق مجرد أن فتّحت عينيها.

أمرها المركيز صباح اليوم الرابع أن تأتيه للكلام معه. فاقتيدت لحجرة استقباله، وهي مضَعضَعة نوعاً.

قال وهو يرشدها لتجلس: «تريز، لن أجرّب عليكِ هذا ثانية، نادراً. ستفيدينني في أغراض. أردتُ فقط أن أعطيكِ فكرة عن أهوائي. مع ذلك، ستكون هذه نهايتكِ لو مرة خنتني، بأيّ طريقة، أو أدخلتِ زوجتي تحت رحمتكِ. لكن لا تتصوّري أني أعاملها هكذا من ضغينة أو احتقار. بل ملء عاطفتي. لا شيء يعادل ما أحسّه من لذّة وأنا أفصد دمها! فهو يفضي إلى رأسي ببساطة وأنا أراه يتدفّق. لا أتمتّع بطريقة أخرى قطّ، على رغم مضيّ ثلاث سنوات منذ زواجي بها. كلّ رابع يوم تتلقّى المعاملة ذاتها التي جرّبتِها. ولأنها في حدود العشرين، فشبابها يتحمّل، مع الرعاية التي تلقاها. وهذا السبب الذي لا يجعلني أفلتها أو أسمح لها برؤية أحد. أوهم الناس أنها مجنونة، بينما تعيش أمها، قريبتها الوحيدة، على بُعد ستة أقدام من هنا في قصرها، مقتنعة أنها لا تجرؤ على المجيء لرؤيتها. ستواصل زوجتي هكذا طالما تستطيع، ولن تحتاج شيئاً وهي تحيا هنا. أحبّ أن أُتلفها على مهلٍ، إلا أنني أسعى لبقائها على قيد الحياة قدر الممكن. بعد أن يُعجزها الصمود، ليُعنها اللهّ! فهي امرأتي الرابعة ـ هناك جميلة أخرى ستكون

الخامسة. ولا يسبب لي مصير امرأة أدنى اضطراب. ففي الدنيا كثيرات منهن، ولا يسعدنا غير تبديلهنّ! فكوني هكذا قدر استطاعتكِ. مهمتك، يا تريز، رعايتها. فهي تخسر كمية منتظمة من الدم كلّ أربعة أيام. لا يُغمى عليها الآن، فقد اعتادت عليه. يدوم شحوبها أربعاً وعشرين ساعة؛ وتُمضي الأيام الثلاثة الأخرى على خير. لكنكِ بسهولة تدركين أنها تبغض هذه الحياة. ستفعل أيّ شيء ليُطلق سراحها، أو لتدع أمها تعرف حالتها الحقيقية. ظفرت مرة بثقة خادمتين، لكني كشفتهما في حينها، فأوقفتُ المناورة. تسبّبَت في موت البائستين وتندم على ذلك حتى اليوم. وهي مستسلمة أكثر الآن في تقبّل مصيرها، وتعد بألاّ تسعى للظفَر بثقة المزيد مما أجلبه إليها من خادمات. لذلك أُضطرّ لأخذ الخادمات عنوة، كما في حالتكِ، كي أتفادى الدعاوى القضائية. لن آخذكِ إلى منزل أحد، لن أعطي تفاصيل عنكِ لأحد، وسأفعل ما يحلو لي معكِ لو حاولتِ خيانتي. لن أورّط نفسي في متاعب حتى لو قتلتكِ. ويُستحسن، يا طفلتي، أن تحسبي خطواتكِ، أحذركِ. أيّ خداع سيودي بكِ حتماً إلى الموت!».

لم يكن هناك المزيد ليقال، فتبعت جوستين سيّدها. مرا عبر صالة طويلة معتمة. فُتح باب فدخلا حجرة بَينية، حيث نهضت العجوزان اللتان طبّبتا جوستين طيلة مرضها فأدخلتاهما شقّة بديعة واسعة. كانت المركيزة على كرسيّ عال، تطرّز، فوقفت حين رأت زوجها.

قال لها المركيز: «اجلسي. لا يضيرني إنصاتكِ لي جالسة. لقد وجدتُ لكِ خادمة، أخيراً. آمل أن تذكري ما حدث للأخريَين ولا تُدخلي الفتاة في المحنة نفسها».

قالت جوستين: «لن يُجدي نفعاً»، وهي شغوف لمساعدة المرأة تعسة الحظ فتحاول التعمية على نواياها الحقيقية أمام المركيز.:

«سيدتي، عليّ أن أخبركِ في وجهكِ أنه دون جدوى. سأُبلغ المركيز عما تقولينه لي. لن أعرّض حياتي للخطر من أجلكِ».

فردّت المركيزة، غير مدركة دوافع جوستين الحقيقية: «لن أفعل ما قد يُعرّضكِ للفضيحة. فلا تقلقي، لا أحتاج منكِ فعل شيء خارج خطّ واجباتكِ».

«كلّ شيء لأجلكِ سيدتي، ليس أكثر!».

سُر المركيز فصافح جوستين هامساً في أذنها: «عظيم، يا تريز! يتوقّف حظّكِ على فعل ما تقولين».

ثم أرشدها لحجرتها، لصق حجرة المركيزة. جعلها تلحظ أن الشقّة موصدة من الداخل بأبواب قوية، والفتحات مُؤمّنة بقضبان شبكيّة مزدوجة، مما يضعف أملها في الهرب.

أضاف، وهو يقودها إلى حديقة صغيرة بمستوى الشقّة: «هاهي الشرفة. لا أظنّ بكِ الحمق أن تفكّري بتسلّق جدرانها. قد تأتي زوجتي هنا لتستروح الهواء النقيّ كما تهوى، لكن يلزمكِ صحبتها. ذلك ما يخصّكِ حالياً ـ فوداعاً».

دخلت جوستين لرؤية سيّدتها. نظرت كلٌّ للأخرى بدون كلام. مدام دي جرنان، شابة لا تتعدّى العشرين. طويلة نحيلة رشيقة. شقراء بعينين بديعتين سوداوين ملؤهما تعبيرات رقيقة. أنف دقيق، جِلد أبيض، ذقن بديع، فم صغير بأسنان براقة، محيط وجهها بيضاويّ ناعم ـ المركيزة، مثال لجمال المرأة. على رغم نحولها، فهي بديعة القوام مكتنزة. كما تبدو طيبة حسّاسة.

سألتها جوستين: «متى نزفتِ آخر مرة، سيدتي؟».

«من ثلاثة أيام. وغداً موعدي ـ نعم، غداً سترين المشهد الرائع!».

سألت جوستين: «ألا يوهن منكِ؟».

«يوهن مني! يا إلهي! لا زلتُ بالعشرين، ولا أظنّ المرء يحسّ بالوهن إلا قُرب السبعين. ولكلّ نهاية، فحمداً لله!».

جعلت هذه الكلمات جوستين تنقبض، فكتمت آلامها، لم تودّ أن تُبين عن مشاعرها الحقيقية نحو المركيزة.

حان عشاء المركيزة. جاءت العجوزان لتوصية جوستين أن تأخذها إلى حجرتها.

جلست المركيزة تدعو جوستين بنظرة ودّ وصداقة للجلوس والعشاء معها. على المائدة عشرون صحناً على الأقلّ.

«طالما الطعام مخدوم فمعناه أنهم يهتمون برعايتي جيداً، كما ترين».

ردّت جوستين: «نعم، أعرف أن المركيز يودّ رعايتكِ على أكمل وجه».

«آه، لكن بمعرفة دوافعه، لا تفرُق هذه المجاملات كثيراً معي».

ولأنها منهكة دائماً، فهي تأكل كثيراً. بعد العشاء ذهبت المركيزة تستروح أنفاساً في الشرفة. تسندها جوستين بيدها؛ ودون هذا العون لا تسير عشر خطوات.

أبانت عن ذراعيها إلى جوستين، الندوب تغطّيها.: «ولا يتوقّف هناك. فلا جزء إلا ويريد رؤية الدم يدفُق منه». كشفت رقبتها، قدميها، كلّها ندوب. ثم خلدتا للنوم.

كان اليوم التالي موعد نزف المركيزة. وقد شرع المركيز في العملية فور خروجه من العشاء، قبل عشاء زوجته دائماً، يطلب من جوستين أن تأتي للجلوس معه إلى المائدة، لتشهد شراهته الهائلة في

نظامها المعهود. يقوم أربعة خدم بتقديم وجبته المهولة.

تُقدَّم الأصناف الرئيسة أولاً؛ ثم ضلع غنم على الطريقة الإنجليزية، ثمانية أصناف لحم جانبية، خمس دورات لحوم ثقيلة، خمس للّحوم الأخفّ، رأس خنزير بريّ بين أصناف اللحوم المشويّة الثمانية؛ ثم أبعدت لتقديم دورتَي حلويات دسمة وستة عشر صحناً من الفاكهة، ومثلّجات، ستة أنواع نبيذ، أربعة أصناف خمر، وقهوة. تناول المركيز من كلّ صحن. احتسى اثنتي عشرة زجاجة نبيذ: أربع برجاندي عند بداية الوجبة؛ أربع شمبانيا مع اللحم المشويّ؛ وتجرّع مع الحلويات توكاي وهرمتاج وماديرا. وانتهى بزجاجتَي خمر أيلنز وعشرة فناجين قهوة.

نهض عن المائدة خطوته منتعشة، كالخارج تواً من الفراش، فخاطب جوستين: «هيا نذهب لنُنزف سيدتكِ الآن. أودّ أن تبلغيني إن فعلتُها معها جيداً كما فعلتُ معكِ».

وكان شابان لم ترهما جوستين من قبل عند باب شقّة المركيزة، حيث دخلوا كلّهم. وهناك شبّان آخرون. لدى المركيز اثنا عشر منهم، يبدّلهم كلّ عام.

تلبس المركيزة رداء خفيفاً، أنزلوها على ركبتيها بمجرد دخول زوجها.

سأل: «مستعدّة؟».

ردّت خانعة: «الكلّ شيء، سيدي. تعرف أنه ليس لي غير طاعتكَ».

فأمر المركيز عندئذ جوستين أن تأتي بزوجته إليه. كانت المركيزة على إلمام تامّ بكلّ إجراء، تجتاز التمهيدات من تلقاء نفسها. وبين هذه المراسم، رفاق المركيز يستحثّونه على الإثم.

دُهشت جوستين من أن هذا الرجل الضخم بشكله المرعب كان، على رغم جُرمه، إنساناً صغيراً فعلاً. والدليل أمام عينيها: كأنه طفل بالثالثة، بأدقّ زائدة، في حجم حُمّصة تقريباً.

أخيراً، طقّت عيناه شراراً، فنخس زوجته بمبضعه؛ لكن قروحه كانت خفيفة ـ نمّ عنها نقطة دم أو اثنتان فحسب.

جلس ثانية فمنحها فترة استرواح، يشغل نفسه مع اثنين من رفاقه. يتلقّى المركيز الكثير، لكن لا يمنح شيئاً بالمقابل؛ لم يكن لأكبر الجهود بالنظر إلى تُخمته وعجزه أن تُوفّق في سحبه من خَدَره. لا شيء هناك يدلّ على عنف عواطفه.

مسك زوجته ثانية، وضعها كما وضع جوستين، يداها مربوطتان بوشاحين طويلين إلى السقف. وعُهد إلى جوستين برعاية شدّ الأربطة. عاين القيود، فلم تكن مشدودة كفاية فضغطها بإحكام أكثر. جسّ أوردتها وهو ينخسها تقريباً بالوقت نفسه. بدأ الدم يدفُق، وكان سعيداً. ظلّ عشر دقائق في هذيانه، يقاوم نفسه كامرئ يفيق من الصَرَع. جيشان صراخ يُسمع من بُعد ميل وخوار بتجديف بذيء، ارتطم بكلّ ما في طريقه. فاضطرب اثنان من رفاقه. ومنهكاً، هدأ أخيراً.

ركضت جوستين فوراً جنب المركيزة، لتوقف دفق الدم، فكّتها، فأخذتها إلى كنبة. كانت موهَنة مرتخية إلى حدّ مفزع. ودون أن يزعج المركيز نفسه، سار بتهور للخروج مع رفاقه، تاركاً جوستين تعيد كلّ شيء إلى نصابه على هواها.

أبلغت المركيزة، وهي راقدة، جوستين أنها فقدت دماً هذه المرة أكثر من العادة. لكنهم ينفقون عليها كثيراً من الرعاية والمنشّطات.

اكتشفت جوستين حالاً سرّ دخولها خدمة المركيز. فهو يعرف أن

قليلاً من النساء يسعدنه كثيراً. وهكذا اكتسبت مزايا خاصة إلى ثقته.

ذات صباح طلب المركيز من جوستين المجيء إلى حجرته لنقاشها في وسائل مستجدّة للنزف. أنصتت بانتباه إليه، تستحسن براءته. كان هادئاً وتمنت أن تُلّين منه بشأن زوجته. فقالت: «كيف تعامل زوجتكَ هكذا! انظر كم هي جميلة!».

«آه يا تريز، ذلك ما يثيرني! اسمعيني، فتاتي العزيزة»، وواصل، يومئ أن تجلس جنبه: «مهما قلتُ عن جنسكن، فلا تغضبي؛ سأعطيكِ أسباباً معقولة. بأيّ منطق في ظنكِ أن الزوج ملزم بإسعاد زوجته؟ وبأيّ حقّ تتوقّع الزوجة ذلك؟ هناك شخصان بقوة متعادلة، قدرة متساوية على إيذاء أحدهما الآخر، يسعدان معاً بالتبادل. طبعاً، في حالة وقّع كلاهما ميثاقاً لمنع استخدام قوتيهما لإيذاء أحدهما الآخر. لكن هذه السعادة لا توجد بين إنسانين، قويّ والآخر ضعيف. فلماذا يأمل الأخير أن يصفح عنه السابق، ولماذا ينكر القويّ على نفسه استخدام قوته مقابل لا شيء، للشفقة؟ إنه شعور منطقيّ كما قلتُ بين اثنين بقوة متعادلة. شعور أنانيّ صرف. يقع أثره بشرط ضمنيّ أن الرجل الذي يلهمني الرحمة سينال مني الشعور ذاته. لكن لو لم يكن عندي ما أخاف عليه من أجله، فشفقته عليّ عديمة الجدوى ولا يوجد سبب يستوجب التضحية بنفسي لنيل أيّ شيء منه. ألن أكون مغفّلاً لو أشفقتُ على فراخ الدجاج التي تُذبح لعشائي؟ الزوجة الآن كفرخ دجاج. كلاهما حيوانات أليفة عليها أن تُستخدم كما صمّمتها الطبيعة. وإني أسألكِ، إن كانت هذه نية الطبيعة أن يهب جنسنا السعادة لجنسكن والعكس بالعكس، أفلا تكون طبيعة عمياء قد خلقت كثيراً من الأشياء السخيفة في بِنية الجنسين! هل أخطأت جدّياً ليكون الإقصاء والكره الفطريّ المتبادل هو النتيجة! خذيني مثالاً. تريز، أستطيع وهب أيّ امرأة السعادة! والعكس بالعكس، فأيّ رجل يستطيع التمتّع بامرأة

لذيذة ما دام مزوّداً بالتناسق والقوة والجَلَد اللازم لإشباعها! يُفترَض أن تقولي إن الصفات الروحية قد تعوّض مواطن الضعف الجسدية. همم! ألا يصرخ أيّ عاقل حين يتعرّف إلى امرأة مع يوربيدس[1] (هو الذي من بين آلهةٍ خلق المرأة في العالم، يتباهى بأنه أبدع أسوأ الكائنات، وأكثرها تعباً للرجل!). وهكذا ترين أن الجنسين لا يناسب أحدهما الآخر قطّ، ومن الزيف القول إن الطبيعة خلقتهما للسعادة التبادلية. خلقت فيهما الرغبة، للتناسل ليس إلا، لا ليجد كلٌّ سعادته في الآخر قطعاً. فالسعادة توجد فقط بخضوع المرأة الأعمى، والجبروت المطلق والاضطهاد من قِبل سيدها. أليست هذه هي نية الطبيعة؟ ألم تخلق أحدهما أدنى من الآخر في كلّ منحى! ألا تدلّ هذه الحقيقة على إرادة الطبيعة في استعمال الرجل القوة والحق الممنوحَين له! وليس لنا أن نحكم بشكاوى الضعفاء. فمثله سيكون حكماً باطلاً ضيّق الأفق ضعيفاً، لأنكِ تستعيرين أفكارهن، المفروضة عليهن من قِبل مصيرهن التعس. يجب الحكم على الفعل بقوة الأقوياء، بالتفويض الذي تمنحهم إياه هذه القوة. لو مُدّت آثار هذه القوة إلى امرأة، فلاحظي ما ستؤول إليه: مخلوقة وضيعة، أدنى من الرجل من أيّ وجهة. فهي أقلّ براءة، أقلّ حكمة، تقاوم كلّ ما يسعد الرجل، كلّ ما يسرّه: كائن مريض نصف عمره. نكدة مناكفة متعجرفة، وموهوبة معصومة في التذمّر الدائم. طاغية لو عُهد إليها بأيّ قوة؛ دنيئة متزلّفة لو رضخَت تحت هيمنة. زائفة دوماً، شريرة خطرة. ثار نقاش جدّي بمجلس الماكون[2] حول جرأة هذا الكائن الغريب، شبيه القرد، في الزعم بنسبه البشريّ وهل من العقل أن يُطلق عليه هذا الاسم. تبيّني الطريقة التي ينظر بها معظم

---

(1) يوربيدس: مسرحي يوناني (484 ـ 407) (م).

(2) ماكون: بلدة بفرنسا (م).

الناس إلى هذا الجنس الحقير. هل أسبغ عليها الميديون[1]، الفرس، البابليون، الإغريق، الرومان، اليهود، أدنى احترام؟ إننا نراها أينما تكون مسحوقة، تنصرف أينما تكون عن أية شؤون، تُحبس. تُعامل باختصار كالحيوانات، تُستخدم وة ت الحاجة ثم تُعاد فوراً للحظيرة. أسمع الحكيم كاتو[2] وهو يصرخ من عاصمة العالم القديم (لو خُلق الرجال دون نساء، لناطحوا الآلهة!). أسمع رقيباً إغريقياً يبدأ خطبته بهذه الكلمات (لو استطعنا، سادتي، العيش دون نساء، لأدركنا السعادة الحقّة من الآن فصاعداً). أسمع الشعراء يغرّدون في مسارح اليونان (جوبيتر[3]! أيّ علّة ألزمتكَ بخلق النساء؟ ألم تستطع وهب هذا الكيان للرجل بوسيلة أفضل وأعقل، أو باختصار، وسيلة كنت تُنقذنا بها من طاعون النساء!). وقد أحاطت هذه الأمم هذا الجنس باحتقار حتى استلزمت القوانين الحدّ من نسلهن، وكانت إحدى عقوباتهم هي إجبار المجرم على لبس زيّ امرأة، أي يلبس كأحقر وأخطر مخلوق يعرفونه. وحتى بين عصرنا أرى النساء لا يزلن يُحبسن عبر آسيا، للوفاء بعبودية نزوات الأباطرة البربريّة حيث يمزقونهن، يعذّبونهن، ويلعبون رياضة بمعاناتهن. في أمريكا أمم رحيمة بطبعها، الأسكيمو، لكنهم ينسبون للرجال كلّ فعل خيريّ، بينما يعاملون النساء بخشونة لا تُصدّق. نراهُن مُستَذَلّات، مومسات للغرباء في مرفأ على حدود العالم، ومُستبدلات بالمال في آخر. وفي إفريقيا جدّ محتقرات، حيث يعملن كالحيوانات حمّالة الأثقال، بحرث الأرض، بذر الأرض، وارتقاب أزواجهن راكعات. وفي جُزر أخرى يُضربن، يُعذّبن من قِبل أولادهن.

---

(1) الميديون: سكنوا شمال غرب إيران (1350 ـ 1400) (م).

(2) ماركوس بورسيوس كاتو، رجل دولة أيام الإغريق (234 ـ 149 ق.م) (م).

(3) جوبيتر: كبير آلهة اليونان (م).

تريز، لا تدعي هذا يُذهلكِ. لا تعجبي من الحقّ الكونيّ الذي يملكه الأزواج بكلّ زمان على زوجاتهم. فكلّما اقترب الناس من الطبيعة أحسنوا فهم قوانينها. ليس للزوجة علاقة مع زوجها غير الأمَة مع سيّدها. ليس لها الحقّ في توقّع المزيد. لا ينبغي الخلط بين الحقوق والمفاسد المشينة، فقد حطّ ذلك من قدر جنسنا، بينما رفعكنّ ذات يوم. دعينا نستكشف العلّة الحقيقية لهذه المفاسد حتى نستعيد شورى العقل الحكيمة. والآن، يا تريز، ها هو سبب الاحترام الحاصل الذي يناله جنسكن، حيث يضلّل من يُطيل أمد هذا الاحترام. بين السلتيين[1] القدامى، في تلك المنطقة وحدها من العالم، لم تُعامَل النساء مطلقاً كالعبيد، فقد اتّخذن لُباس التبشير والتنبؤ بالحظّ. تصوّروا فيهنّ براعة في هذا الفن بسبب مناولتهن الحميمة مع الأرباب. ومن ثم نسبوهن إلى جماعة الكهنة وتمتّعن بكلّ ما يخصّ امتيازات الكهنة. من هذا التحيّز تأسّست في فرنسا الفروسيّة، ووجدوا النساء أقرب إلى روحها، فكرّموهن. مع هذا، كأيّ شيء آخر: انقرضت المسبّبات وسلّموا بالآثار. فاختفت الفروسية لكن دام التحيّز. لم يُلغ الاحترام القديم حتى بعد تلاشي مسبّبه: لم تعد الساحرات ذات تقدير بل المومسات هن المبجلات. والأسوأ، أن الناس داومت على ذبح أحدها الآخر من أجلهن. كان ذلك في زمن وضعنا فيه نهاية هذا الهراء. فلم يعد له أثر على عقول الفلاسفة. هيا نُعد النساء إلى مكانهن الحقيقيّ ونستعملهن كما تبغي الطبيعة، كما تعترف أعقل الأمم: شخوص خُلقت لأجل ملذاتنا ونزواتنا؛ شخوص لا يستأهل ضعفهن وفراغهن وجشعهن غير الازدراء! كما أن الأمم، يا تريز، لم تتمتّع بأوضح الحقوق صراحة عن نسائها فقط، بل هناك من قُدّر عليهن الموت بمجرد الولادة. كان

(1) السلتيين: من منطقة الغال، فرنسا (م).

العرب يحتفظون بعدد قليل لزوم تناسل الأنواع؛ كما اعتاد من عُرفوا باسم القُرشيّين وأد بناتهم على جبل قرب مكة. بازدرائهم هذا الجنس، ينزعون إلى قول إنهن غير أهل للتطلّع إلى نور النهار. وفي حريم الملك آخيم، كان أدنى شكّ للخيانة، أدنى عصيان لخدمة ملذات الأمير، أو لحظة نمّ فيها اشمئزازهن، فالعقاب أشدّ وسائل العذاب رعباً. على ضفاف نهر الغانج يخضعن لقتل أنفسهن فوق رماد أزواجهن، فلم يعد لهن جدوى في هذه الدنيا، لم يعد بمقدور أسيادهن التمتّع بهن. كما أنهن يُصَدن في مكان آخر كالحيوانات البريّة حيث يتمثّل الشرف في قتلهن. في مصر كان يُضحّى بهن قرباناً للآلهة. وفي فرموزا يوطَأن بالأقدام. كما اعتادت قوانين ألمانيا إدانة من يقتل امرأة أجنبية بغرامة صغيرة؛ ولا يدفع شيئاً لو حدث وكانت زوجته أو امرأته. في كلّ مكان، أكرّر، هن مُستذَلات مضطهَدات مُتحَرّش بهن، أضحيات إلى قوى الكهنوت العلوية أو من عنف أزواجهن. ولأني أعيش مصادفة بين أجلاف لا يبطلون أسخف تحيز، فلماذا أحرم نفسي من الحقوق التي وهبتني إياها الطبيعة عبر هذا الجنس! لا! لا! يا تريز، ليس عدلاً. سأُخفي سلوكي عند الضرورة، لكني سأقدّم ترضية في صمت. بسبب هذه الآراء العبثية، يُدينني القانون بالنفي في معتزلي. فأعامل زوجتي هكذا بما أراها تصلُح له وأجده متّفقاً مع شفرات الكون، مع قلبي والطبيعة!».

ضجّت جوستين بالشكوى: «سيدي! جدالكَ مستحيل! ومن العجز أن أهديكَ!».

«لا تحاولي يا تريز. فالشجرة العتيقة يصعب أن تميل. في مثل سني قد يبتعد المرء خطوات في امتهان الشرّ، لكنه لا يتخذ في درب الفضيلة خطوة واحدة. إن مبادئي وميولي هي سعادتي الوحيدة منذ الطفولة. هي الأساس المكين لكلّ من سلوكي وأفعالي. قد أتطرّف فيما

اريد، لكن أعود ـ لا! فقد تولّد عندي رعب من نزعات البشر. أكره حضارتهم، فضائلهم الزائفة الفاسدة، وأربابهم، بإخلاص بالغ، فلن اضحّي أبداً بأيّ من نزعاتي من أجلهم!».

❑ ❑

رأت جوستين بوضوح أن وسائلها للفرار من هذا المنزل أو فكّ سراح المركيزة لن تكون بغير الخداع والمكر.

طيلة العام الذي اقتربت فيه من المركيزة كانت تفتح قلبها غالباً لتجعلها تدرك كم تتوق لمساعدتها. واتّفقتا على خطط معينة. أن تكتب المركيزة إلى أمها عن أعمال المركيز الشائنة. وهي على يقين من أن أمها ستهُبّ فوراً لنجدتها. لكن المشكلة أنهما في حبس مُحكَم، بعيدتين عن مجال الرؤية!

اعتادت جوستين الحوائط ضمن الخلاء، تُعاينها من الشرفة، بارتفاع ثلاثين قدماً. فكّرت أنها قد تتخذ طريقاً واضحاً إلى الغابة من هذه الحوائط. واكتشفت أنه لا سياج يسدّ طريقها، لكن لم تتأكّد. فقرّرت وزن الأمور. خطّت المركيزة رسالة توسّل مؤثّرة إلى أمها، ألصقتها جوستين بخصرها. وبعد ظلام الدنيا، وبمعونة بضع ملاءات، تسلّقت نازلة عبر الشرفة. وهي الآن في الحديقة، فُزعت حين رأت أنها محاطة بأسوار عالية، تُخفيها كثافة من شجر، بارتفاع يزيد عن أربعين قدماً، وكلّها محميّة من أعلى. فماذا تفعل؟ ستسترعي نوراً يُضاء ويثير وجودها بالحديقة الشكوك طبعاً. كيف تهرب من ثائرة المركيز؟ سيُصفّي دمها عقاباً. كما يستحيل عليها العودة الآن، فالمركيزة سحبت الملاءات، وسينبئ عنها حتماً أيّ دقّ بالباب.

جُرّدت من إرادتها كلياً، فربضت بالعتمة ترجف خوفاً قرب شجرة. تعرف أن المركيز لا يرحم، وهي على يقين من أنه قُضي عليها الآن.

تميّزت الحوائط العالية المُحدقة بالحديقة عند غبش الصبح الرماديّ الغامض. أول من قابلته المركيز نفسه. كان الوقت حاراً ومُطبقاً طيلة الليل مما أثار أرقه فنهض مبكراً يتنسّم هواء الصبح النقيّ.

حدّق في جوستين وتراجع، معتقداً أنه أخطأ وما يراه مجرد شبح. فزعت جوستين ترتعد، وسقطت عند ركبتيه.

«ماذا تفعلين هنا، يا تريز؟».

فاهتزّ صوتها خيفة: «سيدي، عاقبني!».

وقد نسيت، في ظلّ حيرتها أو رعبها، إتلاف رسالة المركيزة المخفيّة بخصرها. تملّك زمام الموقف فوراً، حدس به صحيحاً، وطلب تصفّح الرسالة. فأنكرت أية رسالة؛ لكنه بالتطلّع عن قُرب تبيّنها تلوح من جَعدة حرير على خصرها. فخطفها، وتصفّح يقرؤها عجلاً في جشع.

أمرها أن تتبعه. عادا إلى القصر من مهبط سلّم خفيّ تحت القناطر.

توقّفا بعد منعطفين أو ثلاثة، ثم فتح باب زنزانة فرماها بداخلها.

بضحكة مكبوتة قال: «عاهرة غبية! حذّرتكِ، هه، ألم أحذّركِ؟ ستنالين ما تستحقينه! سأصفّي حسابي معكِ غداً بعد العشاء!».

من قسر لا يُقاوم، اندفعت ثانية على ركبتيه، ترجو منه الشفقة. لكنه جرجرها من شعرها على الأرض الموجعة ثلاث مرات أو أربع حول السجن، ثم دقّ رأسها في الحائط بضراوة.

وقال يكزّ على أسنانه: «سأشقّ شرايينك كلّها! سأتريّث قليلاً لنيل المزيد من رعبكِ. فارتقبي، سأريكِ كيف تُجدي معكِ فضيلتكِ!».

لكن جوستين لم تعد تسمع؛ فهي ترقد بالأرض بليدة الحسّ.

قضّت ليلة مفزعة، مع أكثر نوبات القلق عنفاً، ورأسها يطنّ من الألم والإنهاك.

رقدت هكذا قرابة ست وثلاثين ساعة، حتى انهدّ الباب فدخل المركيز وحده. كان قد شفَى غليله من زوجته. وفي نطاق غضبه بدت ملامحه مضخّمة، فأنفه متكتّل، وعيناه أشدّ ظلمة، أما فمه وتكشيرته فأكثر فزعاً.

قال: «أظن عندكِ فكرة عما سأفعله معكِ. ستقاسين كثيراً! سيدفُق دمكِ بمسام جلدكِ كلّها! سأنزفكِ ثلاث مرات يومياً؛ لأرى إلى متى تحتملين الحياة. أشتاق إلى هذه التجربة من زمان. فشكراً لأنكِ وهبتني الفرصة».

ودون مزيد من الإزعاج ارتمى ينخس ذراعيها، وعندئذ جاءه أحد الخدم صارخاً: «أسرع سيدي... أسرع... زوجتكَ تقضي نحبها... وتودّ الكلام معكَ...».

فاندفع خارجاً، ونسي من ذهوله المفاجئ سكّ الباب خلفه. وعلى رغم وهنها، كان لدى جوستين حضور عقليّ كافٍ لتنتهز الفرصة، فترنّحت من الباب تدلف آمنة في الحديقة. كان باب السياج مفتوحاً، فمضت عبره دون أن تلفت انتباه أحد.

قرب حلول الليل وصلت كوخاً بُعيد أربعة أميال عن القصر. أمّلت وصول بلدة غرينوبل أخيراً، موقنة من تبدّل حظّ يرتقبها، حين تخرج أول الصبح التالي.

الفصل الخامس عشر

حدّقت مشدوهة ذات يوم في صحيفة وهي تقرأ أن رودن، جرّاح سانت مارسيل الذي عاقبها بوحشية لممانعتها قتله ابنته روزالي، قد عُيّن، وفقاً للصحيفة، رئيس جرّاحي بلاط إمبراطورة روسيا، براتب مهول. فغمغمت لنفسها: «حظاً سعيداً للغول الشرير، إرادة الله هكذا!». وظلّت تلوك بأفكارها ظَفَر الرذيلة وبلاء الفضيلة، حين سلّمها خادم غريب بزيّ رماديّ ضافٍ رسالة. قال سيده أمره بانتظار الردّ. تقول الرسالة:

> **الرجل الذي أخطأ معكِ، يظنّ أنه صادفكِ في بليكور بليس، ويشتاق إلى رؤياكِ ليعوّضكِ عن سلوكه السابق. تعالي أرجوكِ؛ فلديه أخبار حسنة سيعرضها عليكِ، مما سيعفيه من أيّ التزامات نحوكِ.**

رسالة غير موقّعة، وقد أبى الخادم في البداية الإدلاء بمزيد من المعلومات. لكن جوستين صمّمت ألاّ تتحرك إن لم ينطق باسم سيده. فقال الخادم أخيراً: «هو السيد فلورن، يا آنسة. قال إنه نال شرف التعرف إليكِ من زمن في ضواحي باريس، وإنكِ قدّمتِ له خدمة كبيرة يودّ ردّها. كما أنه في وضع يمكّنه من ذلك. فهو أحد أكبر رجال الأعمال بهذه البلدة، ثريّ طبعاً. وينتظركِ بفارغ الصبر».

فكّرت ملياً لحظة. لو لم يكن لدى هذا الرجل نوايا طيبة نحوها، فهل يُحتمل أن يتوجّه بخطابها على هذا النحو؟ ربما لديه ندم خالص

على أفعاله الماضية؛ فقد سلبها كلّ ما تملك وهو العزيز على مثلها. نعم، نعم، لا بد أنه نادم والضمير يثير حفيظته. أحسّت أن عليها حقاً مدّ يد العون إليه. ولم لا تستغلّ كذلك هذا العون! فمن المحتّم أنه محاط بناس محترمين رائعين في وجودهم ينال احتراماً كبيراً، فيصعب أن يحاول شيئاً مريباً معها. ألن تثيره الشفقة على حالها! اتّخذت قرارها وأخبرت الخادم أنه يشرّفها ردّ احترامها لسيده اليوم التالي بحدود الحادية عشرة.

راحت لحجرتها، فشغلها ما ودّ الرجل قوله لها، فتقلقل نومها طيلة الليل.

وصلت الصباح التالي إلى العنوان المعطى إليها. كان قصراً مهولاً بحشد خدم وحشم تطلّعوا فيها بازدراء بارد. فارتبكت، توشك على الانسحاب، لكن ظهر الخادم نفسه الذي سلّمها رسالة الليلة الماضية راكضاً، فأخذها بيده مشجّعاً إلى حجرة فاخرة. استقبلها فلورن، وقد تقدّم في السنّ. مضى زمن منذ آخر ما رأته، إلا أنها تعرّفت عليه فوراً. كان يجلس في كرسيّ وثير ضخم، ولم ينهض. أومأ إلى جوستين أن تتّخذ مقعداً وأمر الخادم أن يخلّياهما وحدهما.

قال بنبرة خزي مسحوبة بترفّع وشموخ: «أردت رؤياكِ يا طفلتي، لا لأني أودّ طلباً منكِ، لكن...».

«ماذا، سيدي! ـ المال الذي نفحته إياكَ ـ الخدمة التي أسديتها إليكَ ـ كي تردّها بمثل هذا السلوك!».

«آي يا تريز، آي! دعيني أوضّح. تذكرين، هه، إنني في البداية ضربتكِ ونهبتكِ؟ آه، وتركتكِ على الأرض، لكنني بعد عشرين قدماً منكِ بدأت أفكّر فيما تركتكِ عليه من حال زريّة. واستثارني هذا نوعاً. كنتُ أُزمع الرحيل... لكن انقلبت على عقبيّ وبسرعة أنهيت المَهمة.

لذلك ترين أن نبع الشهوانية الحقّة، لدى طبائع معينة، من الجريمة. وماذا أقول؟ وحدها الجريمة تستثيرها. لا توجد عاطفة لا تثور وتغنَم».

«أمر مرعب، يا سيدي!».

«في ذلك الزمن كنتُ أفعل ما هو أسوأ. وأعترف إليكِ بأني أوشكتُ عليه، لكني تصوّرتكِ في ذُرى شدّتكِ، فأشبعني هذا التفكير عندئذ وتركتكِ. دعينا نصفح عما حدث لنصل إلى النقطة التي جعلتني أتمنّى رؤياكِ. فطعمكِ لم يفارقني. كلما يكبر المرء، في الحقيقة، تتّضح ميوله. كما أن الجرائم الجديدة، مثل القديمة، تنبع من رغبات طازجة. كلّ هذا، يا عزيزتي، عدم، إن لم يكن ما يوظّفه المرء جريمة في حدّ ذاته. لكن الوعي بفعل الشرّ يُشعلني. كلّما زادت الشناعة اضطرمت عواطفنا، كما نحبّ أن نغرق في الوحل أعمق دون تمنّي الخروج منه. هذا اعترافي إليكِ، يا تريز: هناك فتاتان ضروريتان يومياً لتضحياتي. وتخليص نفسي من هذه الضحايا أمر يسير. فبعد ساعة من جلبهن السعادة عليّ أتخلّص منهن فأبيعهن إلى القوّادين وأصحاب مواخير نيم، مونتبليه، تولوز، آكس، ومارسيليا، بوساطة عملائي السرّيين[1]. تجارة مربحة لي تعويضاً عما يكلّفنني إياه. وكما ترين، فإني أُشبع بهن اثنتين من أعزّ عواطفي، اللذة والجشع. لكن البحث عن فتيات وخطفهن يجلب عليّ الكثير من المتاعب، حيث أجِدّ في الأمر بهنّ. وأهوى البحث عنهن من أحياء الفقراء، حيث الفقر والجوع والبؤس يقوّض شجاعتهن وكبرياءهن ورهافتهن. لقد فتّشت في كلّ ركن بعناية. ولا تدركين قدر ما تجلبه عليّ أحياء الفقراء من ذخيرة ثرية.

(1) هذه الحادثة ليست خيالاً. فشخص كهذا كان فعلياً ذات يوم في ليون. خطف ما بين خمس عشرة إلى عشرين ألف فتاة، وبعد قضاء وطره منهن قام ببيعهن على مدار نهر الراين. (هامش بالأصل)

أُجبر أحياناً على قليل من المناورات ليظلّ المنجم طازَج المدد. بفيض من نفوذي في هذه البلدة يسهل الأمر، حيث أُبدع بقليل من الصفقات كساداً تجارياً، يستزيد العاطلين، ومن ثم الفقر. وبشاكلة أخرى، أحدّ كمية الاحتياطيّ الضروريّ فأجعله أندر عند التدبّر وأغلى كُلفة. فيُضعف الجوع والبؤس كلّ مقاومة تنتأ أمام مخطّطاتي للتزوّد بضحاياي. يصبحن فريسة أيسر. العمل البهلوانيّ القديم نفسه، يا تريز. البواعث القديمة نفسها كانت وراء آخر مجاعة أصابت إحدى أكبر بلداتنا. شبكة معقّدة، لكن دولابها الآليّ يسير دافقاً بانضباط. مع ذلك أريد امرأة شابة ذكية مهندَمة تجتاز درب البؤس بنفسها. تقدر عيناها الخبيرتان، أكثر من الآخرين، على إنهاك بؤسنا في أعلى مخابئه الغامضة. تعرف الطريق إلى هذا المنجم فوراً. باختصار، امرأة كفء ماهرة، غير شكّاكة ولا شفوقة، تعرف ما عليها أن تفعله. آخرهن عندي كانت نافعة للغاية، لكن ماتت. كنت أريد تابعتين يومياً وتجلب ستاً. يا ألله، كم كانت كنزاً! والفرصة أمامكِ الآن، يا تريز. أظنّكِ ستبلين حسناً. خمسة آلاف فرنك سنوياً إليكِ، فما رأيكِ؟».

«كيف تجرؤ، يا سيدي! أنتِ قاسٍ لحدّ الضراوة! أليس عندكَ مشاعر كالبشر!».

قال: «كلّه هراء! هذا آخر ما عندي، فامنحيني ردّكِ. آه أم لا!».

«لا، أبداً. طيلة عمري، يا سيدي! قدر ما أنا فقيرة، ألف مرة، لا!».

فردّ بهدوء كامل: «إذن. انصرفي، يا مومس. أيّ كلمة طائشة من فمكِ، تذكّري، سنعرف كيف نتصرّف معكِ جيداً».

ومن دفق هياجها الكاسح أنشب شيء فكّيه داخل جوستين فأفسح جُبنها المعتاد درباً ووثبت إليه: «وماذا عمّا نهبته مني في غابة بوندي!

فلديكَ الآن مال وفير، وأنا أكاد أموت جوعاً. لمَ لا تردّه لي الآن؟».

«يمكنكِ أن تكسبيه لو أردتِ، يتوقّف هذا عليكِ».

فردّت جازمة: «لا! وألف مرة لا! وإن متّ قريباً!».

«وأنا، أيضاً، لن أهب مالي، وإن متّ قريباً، دون أن يكون مُستحقّاً. هل ترين الفلوس ملقاة بالشوارع! اسمعي، سأمنحكِ قليلاً من وقتي، ولديكِ خيار رفضي. لكن تعالي إلى حجرتي دقيقة، ونسوّي المسألة. إذعان قليل وتستردّين مالكِ».

«خلّ إليكَ مالكَ، يا خسيس. فلا أنوي منحكَ هذه المتعة. لست عاهرة ولا أطلب صدقة. إني أطلب فقط ما تدين به إليّ!»، وهي تتكلّم سريعاً في تحدٍ غير معهود، تجرفها الحماسة، ولا تكاد تعي وجودها.

لكن فلورن كان قد دفعها نحو باب حجرته. فتجهّزت للمقاومة، عموماً، حتى مسك ذراعها بتجبّر، فسحبها عبر الحجرة؛ ومنحها لكمة على الأذن، رمت بها عند المدخل. فهمّ بها أحد الرفاق، وكانوا يرتقبون فعلاً إحدى ضحاياه اليومية.

الفصل السادس عشر

تركت ليون اليوم التالي. ولا يزال قلبها خافقاً نحو غرينوبل، تلك البلدة الرائعة التي كانت الأمل الكبير لروحها البالية، فمضت جنب طريق دوفيني.

وكالمعتاد، شرعت في السير قُدماً، مع حفنة من متعلّقاتها الشخصية مدسوسة تحت ذراعيها.

كان يوماً مشرقاً صافياً، والهواء رخيّ ذهبيّ من نور الشمس الذي يبعُد مسافة قصيرة، وبانت متاعبها وليون بكلّ مآسيها، أشياء من الماضي، شاردة منسية. ثم فكّرت، إنها لا تزال دنيا الله، فطفرت دموع الرقّة والفرحة من عينيها.

على بعد ميلين كانت عجوز، بنظرة معاناة، تبادرها في تضرّع طلباً للصدقة. انفعل كثيراً قلب جوستين فأخرجت محفظتها لتنفحها قطعة عملة. لكن لدهشتها، أسرعت العجوز، وهي المقعَدة المهدّمة، فخطفت المحفظة من يد جوستين بحركة واحدة، ثم منحتها بالأخرى وكزة شريرة في بطنها طرحتها أرضاً.

حين أفاقت جوستين، استجمعت شجاعتها وقد تخلّى عنها الأمل فكانت ممرورة. فكّرت، يستحيل في هذا العالم أن تُفضي بروحكَ إلى نية من فضيلة دون أن تُردّ. فزحف اليأس، كعبقرية شريرة، إلى روحها. كانت مستعدّة لنبذ مسيرة حياتها التي نخسَتها بكثير من الأشواك فلن تعود إلى ليون ولن تقبل عروض فلورن. غمرها تقريباً ندم لحظيّ من

أفكارها، فسقطت راكعة تحمد الله على نجاتها ومؤازرتها من الركون للغواية. فكّرت، إن نجمها النحس يقودها، مع البراءة، إلى الحاجة والجوع والبؤس، لكنه لن يُحيلها للمشنقة والخزي، لن يحيلها لحياة ملؤها الشرّ.

واصلت نحو بلدة فيين، تأمل أن تبيع ما تخلّف معها، كي تصل إلى غرينوبل.

سارت قُدماً ببطء، حزينة مستغرقة، فقطعت حوالي ربع ميل خارج فيين، وعندئذ رأت، في الوادي، جانب الطريق الأيمن، رجلين يسحقان شخصاً آخر تحت حوافر فرسيهما، ثم يعدوان بأقصى سرعة، فيخلفانه وراءهما ميتاً على ما يبدو.

أثّر فيها كثيراً مثل هذا المشهد. صدمها أن هناك من يستثير الشفقة أكثر منها، فهي على الأقلّ لديها ما تبقّى لها من صحة وقوة.

سيطر الحنوّ فوراً على مشاعرها، فلم تستطع التغلّب على باعث النهوض إلى هذا الرجل ونجدته.

ركضت ناحيته. فرفعَت رأسه، رطّبت شفتيه بالماء ومنحته القليل ليشرب. أنفقت عليه رعاية وعناية كبيرتين حتى صار يتنفّس بيُسر أكثر. عندئذ مَزَقَت جزءاً من قميصها لترقأ الدم النازف من رضوضه. لم تكن جروحه خطيرة، ففتح عينيه فوراً وتهادَى على قدميه.

بدا رجلاً ذا منزلة، فهو متأنّق، على رغم ملابسه الممزّقة الملوّثة بالتراب.

حين استردّ ريحه سأل جوستين عن الملاك الرقيق الذي قدّم له كلّ هذه الرعاية والعناية وماذا بمقدوره أن يفعل ليظهر عرفانه. تقبّلَت شكره بالدموع، وعلى الفور انطرح كلاهما بين ذراعَي الآخر صامتين.

حرّرت رقة هذا المشهد لسانها فبدأت تُخبر الغريب عن بلاياها. ثار همّه وانفعل للغاية. قال: «اسمي رولان. عندي منزل بين الجبال لطيف يبعد طويلاً عن هنا. فلماذا لا تأتين معي؟ لا تبدو الدعوة رقيقة، لكن دعيني أوضّح. فكما ترين، أنا أعزب وأعيش مع أخت أكرّس لها نفسي. فهي تحتاج رفيقاً وأفتّش عمّن يرعاها. ستحبك كثيراً. فلماذا لا تأتين؟».

أثنت بحرارة على عرضه الكريم للمعونة والحماية، ثم امتثلا على دربهما.

الفصل السابع عشر

في الطريق قال: «أحسّ الآن بتحسّن، والفضل لكِ».

أطلقت جوستين عنان نفسها لتسأله بحريّة كيف يسافر مَن في مثل ثرائه دون خدم فيعرّض نفسه لخطر الهجوم عليه، كما حدث.

ردّ: «أنا شاب عفيّ وأسافر دائماً على هذا الدرب وحدي، أتاجر. لم يتحرّش بي أحد من قبل. وإن لم آخذ أحداً معي فليس بسبب الكُلفة؛ فالثراء بادٍ عليّ، كما ترين بنفسكِ، والمال لا يزعجني؛ لكني أستمتع بالسفر وحدي. وهذان اللذان طرحاني أرضاً خسيسان من منطقة فزتُ فيها ببعض المكاسب في منزل للقمار من أسبوع مضى في فيينا. وقد وعداني بدفع ما لي عندهما، ورضيتُ بكلمة شرف منهما، ثم قابلتهما اليوم وكان ما رأيتِ ردّ الدين. أظنّ الدنيا ستُعتم حالاً؛ فالأفضل أن نُسرع. أعرف مكاناً بُعد ميلين من هنا نستطيع التوقّف فيه وقضاء الليلة. وغداً أجلب جوادين من هناك نصل بهما بيتي في المساء نفسه».

غذّا من سيرهما، فوصلا أخيراً الخان الذي ذكره.

تناولا العشاء معاً في حبور. وفيما بعد عُهد إلى خادمة النُزل برعاية جوستين، فاستراح كلٌّ بمكان منفصل. لم يشعرا قطّ بمثل هذه السعادة.

وصلا الصباح التالي تخوم دوفيني، على بغلين مستأجَرين،

يرافقهما خدم الخان، وهما على دربهما ناحية الجبال.

الرحلة طويلة فيصعُب إبرامها في يوم واحد، فتوقّفا عند فيريو، حيث تلقّت جوستين الملاطفات نفسها، الرعاية نفسها من سيدها الجديد. وواصلا على دربهما اليوم التالي.

وصلا الرابعة ظهراً عند سفح الجبال. صار الطريق وعراً هناك، فعهد رولان إلى حادي البغال، خشية حظّ عاثر، ألاّ يترك جوستين. اخترقا عميقاً مسالك حرجة. وكان الطريق ينحني على الدوام، مرتفعاً هابطاً، وبعد السفر حوالي أربعة أميال، كانت جوستين تتخيّل، مع كلّ مدقّ مطروق وعلامة حياة خلفهما، أنها آخر الدنيا.

على الرغم منها، بدأت بوادر قلق تغلبها، وهو ما لم يفلح رولان في ملاحظته؛ فلم يعلّق بشيء. وجعلها صمته أكثر قلقاً.

شاهدا أخيراً قصراً جاثماً فوق رأس جبل عند شفا جُرف هاوٍ، يوشك أن ينجرف. لم يبد طريق يُفضي إليه وعليهما تتبّع درب ماعز، يراكم الحجارة بين جنبيه .

قال رولان: «ها هو منزلي».

عبّرت جوستين عن دهشتها من أنه يحيا في مثل هذا المكان الأعزل الموحش.

فردّ: «يناسبني!».

ضاعف ردّه مخاوفها فعلياً، وكانت تلحظ كلّ كلمة منه، كلّ لمحة وظلّ نبرة، حتى تُطمئن قلقها المتزايد. لم تستطع فعل ما هو غيره، فظلّت صامتة.

ترجّل رولان من بغله، قرابة ربع ميل من القصر، فعاون جوستين

لتحذو حذوه. سلّم البغلين إلى حادي البغال، ودفع له الأجرة آمراً إياه بالعودة.

منح هذا الإجراء جوستين مزيداً من القلق المستجدّ. استوعب رولان، فقال: «ماذا يزعجكِ، يا تريز؟ فلستِ خارج فرنسا. نحن على حدود دوفيني وقريبين جداً من غرينوبل».

ردّت: «أعرف. لكن ما الذي جعلكَ تستقرّ بمكان كهذا؟».

«السبب أن من يعيشون فيه قوم ذوو أمانة. ستعرفين بعدئذ أشياء!».

قالت له: «آه سيدي! كم ترعبني! إلى أين تأخذني؟».

«ليس إلى مكان ـ فنحن عُصبة مزوّرين».

ثم مسك ذراعها فغصبها على عبور جسر قصير انخفض بوصولهما ليرتقي ثانية على الفور بعدها.

بمجرد دخولهما أرشدها إلى غار عميق أسفل الفناء، حيث تقوم نسوة أربع مصفّدات بتدوير عجلة. قال: «انظري إلى هذا جيداً، هؤلاء رفيقاتكِ، وتلك وظيفتكِ. يُفترَض بكِ العمل عشر ساعات يومياً، لتدوير هذه العجلة، فتشبعيننا مثل هاتيك النسوة، ويُسمح لكِ بالخبز الأسود وصحن فاصوليا كلّ نهار. أما حريتكِ، فانسَي ـ لا فرصة أمامكِ! بعد أن تكبري وتتهرّئي سيُلقى بكِ في الجرف بعمق البئر، مع حوالي ستين أخريات مثلكِ ينتظرنكِ داخله ـ ونجلب أخرى محلّكِ».

صاحت، تلقي بنفسها فوق قدميه: «آه يا ربي، أرجوكَ! تذكّر كيف أنقذتكَ... وعدتَ أن تسعدني وتحميني... كيف نسيتَ ما فعلتُ من أجلكَ؟».

قال: «ماذا تقصدين بـ (فعلتُ من أجلكَ!). يا مومس، ماذا كنتِ تفعلين حين جئتِ لنجدتي - ألم يكنْ لإشباع خفقان قلبكِ! ألم يمنحكِ هذا الإشباع لذة! كيف تسألينني إذن بحقّ الجحيم أن أمتنّ لما وهبتِ نفسكِ من ملذّات! ولمَ تظنين أن رجلاً مثلي، يعوم على ثروة، قد يدين لفاسقة مثلكِ بشيء! لقد أنقذتني لإشباع عاطفتكِ والتمتّع بنفسكِ - فلستُ أدين لكِ بشيء... إلى العمل، يا عبدة، إلى العمل!».

ولم يمهلها مزيداً من التأخير، فأمر تابعين بتجريدها وتصفيدها مع الباقيات. عليها بالمضيّ مباشرة للعمل، دون السماح لها براحة نفسها بعد رحلة منهكة.

اقترب منها رولان بعد ساعات، فجعلها توقف الدوران، ثم صفّد العجلة، وغصبها على الإنصات إليه واقفة بينما أراح نفسه بالجلوس.

قال: «أريدكِ أن تعرفي، يا تريز، أن الحضارة التي تُطيح بمبادئ الطبيعة لا تزال تترك للأخيرة بعض الحقوق، على أيّ حال. بدايةً، خلقت الطبيعة، كما تعرفين، كائنات قوية وأخرى ضعيفة. على قصد أن يذعن الضعفاء للأقوياء. لكن الإنسان، ببراعته وذكائه، شتّت مواقع الأفراد؛ فلم تعد القوة الجسمانية هي المنوط بها تحديد المراتب، بل المال. فصار الأقوى هو الأغنى؛ والأفقر أضعف. وكما ترين، طالما تأسّست أسبقية الهيمنة، فلا تبالي الطبيعة إن كان ما يطحن الضعفاء أو الفقراء صاحب ثروة أو صاحب قوة. أما فيما يخصّ شعور الامتنان الذي تدّعين أني أدين لكِ به - فليس من مقصد الطبيعة، أن يضيّع مَن يتلقّى خدمةً حقوقه على الآخر الذي استسلم لما يطوّق عنقه من لذّة. هل ترين هذه العواطف بين الحيوانات؟ لا ينبغي قطّ على الروح الأنِفَة الرفيعة أن تسمح لنفسها بالانحناء إلى فضل منّة. أليس مَن يتلقّى على الدوام هو المستَذَلّ؟ وألا يردّ ما يحسّ به من ذلّ دَينه إلى المحسن،

فيجد هذا نفسه مترفّعاً على الآخر؟ أليست تلك متعة الكبرياء، أن يترفّع امرؤ على آخر؟ وهل يحتاج شيئاً بعده من يتفضّل بمنّة؟ إن كان في الإحسان ذلّ لمن يتلقّى، فهو المحيط به، ولا شيء يرغمه على العرفان. لماذا إذن أسمح لنفسي بالذلّ كلّما نظر إليّ من يطوّقني بمنّة! الجحود، ليكن، فهو غير رذيلة، بل فضيلة الأرواح الرفيعة حقاً، كتوقّع العرفان من ذوي الأرواح المنهكة. دعي من يطوّق عنقي بالمنن أن يُكثر قدر هواه، لكن لا تدعيه يطلب شيئاً مقابله، حيث إنه قد تمتّع بعواطف الإحسان».

ثم سلّح نفسه بسوط من قضيب ثور وحيّاها بعشرين جَلدة. قال: «إنني لا أفعل هذا، يا تريز، لخطأ اقترفتِه، بل لأعطيكِ فكرة عن مسلكي لو اقترفتِه. هكذا تُعامَلين لو حدث وتقاعستِ عن واجباتكِ».

وقابل دموعها باستهزاء خفيف. قال: «سأسمع منكِ المزيد؛ فمتاعبكِ هذه مجرد بداية أولى». وغادرها.

❑❑

انتهى وقتهنّ، فحُلّت أربطة جوستين مثل رفيقاتها. وبعد تناول نصيبهن اليوميّ من الماء والخبز والفاصوليا، أُخذن للحبس طيلة الليل.

تحت غارٍ يدور حول البئر الشاسع، ست صوامع معتمة صغيرة، مغلقة كلياً مثل الزنازين. تقضي الفتيات الليل هناك.

فُتح باب صومعة جوستين، وهي ضائعة من الخزي الكئيب، فدلف رولان، وقد بدا عصبياً متوتّراً. حدّق في جوستين لحظة بعينين جعلتاها تجفل.

قال: «اتبعيني!».

ومسكها من ذراعها يجرجرها معه. يقودها بيده اليمنى، وبيسراه مصباح صغير ينير دربهما بشكل معتم. بعد عدّة دورات وصلا باب كهف. فتحه ودفعها للدخول قبله، أخبرها بالنزول ثم أغلق الباب خلفه. سارا قُدُماً، فصادفا باباً ثانياً فُتح وأُغلق بالطريقة نفسها. لكن حين اقتحما الكهف الثاني لم تكن هناك سلالم، بل طريق ضيق ينحني حولهما، وإلى نزول.

استمرا يسيران قرابة عشرين دقيقة، تنير لطخة الضوء السقيمة من مصباحه، بين حين وآخر، طاقات الجدران الصخرية المعتمة حيث تضم خزائن مال ضخمة.

ظلّ صامتاً طيلة الطريق.

استغرقا بعيداً تحت أغوارٍ بأحشاء الأرض. ثم وصلا أخيراً بوابة برونزية فُتحت على مدفن واسع دائريّ قُطره حوالي ثلاثين قدماً. مكان مقبض معتم، مزوّد بعَلاّقات سود، وعلى الجدران هياكل عظمية من كلّ حجم، عظام مُشكّلة على هيئة متقاطعة، رؤوس موتى تنظر شزراً، قضبان، سياط، خُطّافات، خناجر، مسدسات. تتدلّى لمبة من ركن بالمدفن، الذي يتوسّطه حبل طويل مدلّى من عشرة أقدام على الأرض. في اليمين تابوت منتصب، بطوله طاولة الركوع، فوقه المصلوب معلّق ما بين شمعتين سوداوين كبيرتين. وفي اليسار رُبط بالصليب تمثال شمعيّ لامرأة عارية، تمثال حقيقيّ أقرب للحياة حتى أن جوستين خُدعت به فعلياً بعض الوقت. كان مسمّراً إلى الصليب بوسع الصدر، مناطقه مكشوفة بوضوح. بدا اللحم ميتاً إلى حدّ مرعب، والدم سَبخاً ينقّط على مسرى الفخذين. يغطيه شَعر بديع، رأسه مطويّ، كمن ينشُد الغفران. وتبدو تعبيرات المعاناة المتلوّية بوجهه حقيقية للغاية، فالدموع تنهلّ من عينين ناتئتين مُبقّعتَين بالدم. ويشغل نهاية المدفن كنبة سوداء واسعة.

قال رولان: «لو هلّت على بالكِ مرّةً فكرة الهرب، فهنا تلقين حتفكِ!». وأشعله هذا التهديد الذي أطلقه حتى صار ينتفض.

تحرّش بها مهتاجاً، فأخبرها أنه يمسكها الآن في هذا الوكر، ولن تغادره، ليرتاح من تجشّم متاعب النزول بها كلّ هذا الطريق مرة أخرى.

اندفعت نحو ركبتيه تحاول تذكيره ثانية بما صنعته معه من معروف. وأثاره هذا إلى حدّ بعيد، فأمرها أن تُمسك عليها لسانها، ثم طرحها أرضاً بدفعة من ركبته.

قال، يسحبها من شعرها إلى أعلى: «تعالي! تعالي واستعدّي! فكلّي عزمٌ أن أضحّي بكِ الآن!».

«سيدي... سيدي...!».

«لا، لا! وجب عليكِ الموت! لقد سئمتُ من سماع نفسي ملوماً بخدماتكِ التافهة؛ لا أحبّ أن أدين لأحد بشيء! قلتُ، وجب عليكِ الموت... فاصعدي إلى هذا التابوت، وانظري إن كان يناسبكِ!».

زجّ بها فيه، حبسها داخله، ثم خرج من المدفن، مدّعياً أنه سيدعها هناك. لكنه عاد من فوره فأخرجها.

قال: «ستنتفخين فيه! فهو مصنوع لمثلكِ. لو خلّيتكِ تموتين فيه بهدوء، لكانت ميتة رائعة. لكن عندي لكِ ما هو أفضل، لا يزيد عن نصفه ومريح جداً. فتعالي، يا مومس، ناشدي ربكِ! ترجّيه المجيء لينقذكِ؛ إن كان لديه حقاً القوة أن يفعلها!».

ألقت بنفسها على مقعد الركوع، وريثما كانت تصبّ قلبها بصوت صاخب نحو الله الأبديّ، ظلّ رولان يراود عذابها بضراوة أعنف. يجلدها بشيء كالمطرقة مرصّع بمسامير صلبة، وكلّ لطمة تنثر دمها

فيرشّش وجهه. ظلّ يهذي: «آه! لن تنفعكِ صلواتكِ! ستجلب عليكِ فضيلتكِ التعسة المعاناة فحسب! فهي تفسح المجال أمام أيدي الشرّ... يا لها من سخرية لذيذة، يا تريز! تعالي، وضعي نهاية لصلواتكِ!».

ثم أجلسها على الكنبة: «وجب عليكِ الموت، يا تريز، قلتها لكِ، ألم أقلها!».

مسك ذراعيها فربطهما بساقيها، ومرّر حول رقبتها حبلاً أسود حريرياً، طرفاه بين يديه. وفي عزم، شدّ الحبل حول رقبتها فكاد يخنقها حدّ الموت.

قال: «هذا العذاب، يا تريز، أعذب مما تظنين. ستحسّين بالموت من بين مشاعر لذّة حارقة. سيؤثّر ضغط الحبل على جُماع أعصابكِ فيشعلكِ نيراناً. لو أُدين كلّ شخص بهذا العذاب لعرف أيّ سُكر سيجلبه عليه الموت، وعندئذ يرتعب أقلّ من العقاب فيكثر من اقتراف جرائمه بطمأنينة أشدّ. عملية تجلب المسرّة، يا تريز»، ثم واصل: «كما تُضاعف من لذّتي!».

لا يعرف هياجه حدّاً. كلّما وفّق زاد عزمه في شدّ الحبل حول رقبتها. وأسعده هذا فكان يستحثّها على مواصلة الصراخ بصوت أعلى، وهو يعدّل من ضغط الحبل وفقاً لدرجة لذّته. ثم شدّ الحبل بغتة، مرّة واحدة وبعنف بالغ، حتى ازرقّ وجه جوستين فانسلّت منها أحاسيسها ببطء وتلاشى صوتها تدريجياً.

حين فتّحت عينيها وجدت نفسها مفكوكة، وسمعته يقول: «تريز، دلّيني على الحقيقة، ألم ترجُفي لذّة من هذا! عموماً؛ أكثر ما يعنيني هو لذّتي أنا. كانت شديدة الروعة حتى لأودّ أن أجرّبها من جديد بعد لحظات».

رفعها على المقعد، ورمى حول رقبتها الحبل المعلّق من السقف،

وشدّه بعزم. ثم لفّ الحبل بالمقعد ومسك طرفه، وارتاح بكرسيه المقابل. أعطى من بعد جوستين سكّيناً حامية لقطع الحَبل المعلّق فوقها لحظة أن يقوم بشدّ الحبل وجذب المقعد من تحت قدميها.

قال: «تريز، الأمر متوقّف عليكِ. لو فقدتِ هدفكِ فلن أفقد هدفي طبعاً. هل أخطأتُ في إخباركِ أن حياتكِ متوقّفة عليكِ؟».

جلس ينوي جذب المقعد بعيداً لحظة وصوله ذروة عالية من سُكره.

كان في مجده الكامل، يمشّط أعصاب جوستين المنهكة، بتصوّر هجوم مخادع ثم يجذب المقعد. لكن خانته أحاسيسه الضارية فتمّت الحركة المميتة فجأة؛ وانزلق المقعد بعيداً، لكنها قطعت الحبل وسقطت بأمان على الأرض.

بالسكّين في يدها، تستطيع أن تأخذه على غِرّة فتندفع فوقه؛ لكنها على يقين من أنه لن يجدي. فلا معها المفاتيح، ولا تعرف الطريق، وقد تقضي نحبها قبل بلوغ نصف طريق الخروج من سرداب الموتى هذا. علاوة على أنه مسلّح دائماً.

مسروراً بلُطفها ومُشبعاً، أومأ لها بالخروج، ومضى كلٌّ للدور العلويّ من جديد.

الفصل الثامن عشر

تمعّنت جوستين ثاني يوم في رفيقاتها بدقّة أكثر. يتراوح عمر الفتيات الأربع معها بين الخامسة والعشرين والثلاثين. ومع أنهن ذاهلات من البؤس، مشوّهات من العمل الشاقّ، إلا أنهن لا يزلن ينعمن بقليل من تذكار جمالهن الغابر. فجميعهن ممشوقات القوام، أما سوزان، أصغرهن، فجميلة على نحو خاصّ، بعينين رائعتين وشَعر بديع. خطفها رولان من ليون ونقلها إلى هذا القصر هنا من ثلاث سنوات. عانت أكثر من الأخريات من ضراوة رولان. وبفضل جَلدها بسوط من قضيب الثور، تصلّبت مؤخّرتها وخشُنت كجلد بقرة جُفّف في الشمس.

هي التي أبلغت جوستين أن رولان سيشرع في الرحيل إلى فينيسيا، ولو نفد المبلغ الكبير الذي سيناله في أسبانيا لردّته الحوالات التي ينتظرها في إيطاليا. لم يكن يهوى حمل ذهبه ما وراء الجبال، ولم يرسل أيّها أبداً هناك؛ بل اعتاد تمرير أمواله المزوّرة عبر بلد أجنبيّ ممّن يهوى الاستقرار فيها. وهكذا يغتني بالحوالات من بلد لآخر، حيث لا يُكشَف. لكن الخطأ يتصادف في أيّ شيء وأية لحظة، وما يأمل فيه يعتمد على الانسحاب من الصفقة الأخيرة التي يرهن بها أكبر قدر من كنوزه. لو قُبلت بيزاته الإسبانية، ليراته الإيطالية، جنيهاته الذهبية الفرنسية، في كاديز ونيل، وتبعاً لها حوالات فينيسيا، فسيسعد رولان باقي عمره. ولو كُشفَت حيلته، لكانت كفيلة بتدميره يوماً مرة واحدة.

بكت جوستين: «يا إلهي العظيم! آمل أن يمسكوه!».

سُمح للفتيات قُرب الثانية عشرة بساعتين راحة، يُفِضن بها عموماً إلى حجراتهن وحيدات لتناول الطعام والتنفّس والراحة. لكنهن يوثقن عند الثانية من جديد ليُجبرن على العمل حتى الليل.

كن يتعرّين غالباً، لا من الحرارة فقط، بل الأفدح ليكن بوضعية أفضل عند تلقّي نوبات الجَلد بسياط قضيب الثور الذي يجلبه سيّدهن أحياناً للرقود عليه. في الطقس البارد يُزوّدن ببنطلون وصدريّة محبوكة على الجِلد لينكشف لحمهن أمام ضربات رجل لذّته في جَلدهن.

في الليلة نفسها، جاء رولان ثانية إلى جوستين في حبْسها، وفشل في إبداء عاطفة من أعماله الوحشية، فبدأ التحرّش بها وإيلامها جسدياً من جديد. وحين انطفأ، انتهزت فرصة هدوئه تستعطفه لإطلاق سراحها. لكنها، يا للأسى، لا تعي أنه في ظلّ هذه الطبائع تستدعي عواطفها لحظة هذيانه عملاً وحشياً أشدّ فعالية، كما أن الهدوء على الجانب الآخر لا يليّن مثل هذه الأعمال؛ فهي مسكونة بالنار، مع أنها تحت الرماد، تُحرق في جميع الأوقات، ويصعب إطفاؤها من كمّ الوقود الذي يمرّر فيها دائماً دون انقطاع.

ردّ: «ولماذا أفعلها؟ بأيّ حقّ تسألينني إطلاق سراحكِ؟ هل لما وهبتني من لذّة؟ هل أركع على قدمَيّ أترجّاكِ على ما منحتني من خدمات؟ أنا لا أطلب منكِ شيئاً ـ أنا آخذ. لا أفهم لماذا، هل لأني أستعمل حقّاً عليكِ، يجب أن أمتنع عن طلب آخر. في حالتي، لا يوجد شيء اسمه الحبّ. فالحبّ عاطفة فروسية أزدريها بعمق، ولا يحسّ بها قلبي قطّ. إنني أستعمل المرأة حين الضرورة كما يستعمل المرء مزهرية جوفاء مدوّرة في حاجة مختلفة. لكني لا أقدّر قيمة أو عطفاً على شخص يخضعه مالي وقوتي لعواطفي. إني أَدين لنفسي بما أغصبه. لا أطلب الإذعان، فلماذا عليّ إبداء العرفان؟ هل لرجل سلب

محفظة آخر أن يدين له بالشكر؟ وهكذا الحال مع جريمة تُرتكب ضدّ امرأة. هناك دائماً سبب وجيه لارتكاب أخرى، لكن ما من سبب كافٍ لأداء خدمات مقابلها؟». كان رجلاً صريحاً للغاية.

«آهٍ، سيدي! أيّ ذروة تحملكَ شروركَ!».

«نحو الأقاصي، يا تريز، نحو الأقاصي! لا يوجد ما لم أفسح له مجالاً، لا شيء لم أفعله! مبادئي متسامحة وأجعل كلاً منها شرعياً. لكني أجد في الشرّ جاذبية دائمة. فالجريمة تُضرم لذّتي، والأكثر رعباً منها يستزيد إثارتي. أستمتع بارتكابه كما يستمتع الناس بتذوّق المعتاد في امرأة ـ وربما أكثر، أكثر بكثير. أجد نفسي أفكّر بالجريمة في ألف مناسبة ـ أُسلِم نفسي إليها، أو أرتكبها فقط ـ فتضعني في حالة امرئ جنب امرأة عارية جميلة؛ تثور مشاعري بالطريقة عينها. أرتكب ما أرتكب لأُذكي لهيبي. ومن غيره أنا عاجز».

«آهٍ، سيدي! ما تقوله فظيع، لكني رأيت مثله من قبل».

«هناك آلاف منا، يا تريز. لا يجب عليكِ تخيّل أن جمال المرأة هو ما يثير الروح. فالجريمة التي أتورّط فيها حقاً تستحوذ عليّ بصورة جذابة. وكلّما كانت الجريمة أفدح، أثارتني أكثر. إن الرجل الذي يتمتّع بفتاة يغويها أو امرأة يسلبها من زوجها، يُسرّ أكثر بكثيز من الزوج الذي يتمتّع بزوجته فقط. وكلّما تقدّست الروابط التي تعيقها زادت المتعة. حين يذوق المرء ذلك كلّه، يودّ لو حفّته العوائق لتزيد الآلام فيلقَى مشقّة أكبر فيما يعلوها. وحين تفلفل الجريمة المتعة، تنفصل عن هذه المتعة، تصبح لذّة في حدّ ذاتها. نعم، الجريمة وحدها متعة. وإلا، فكيف يمكنها أن تُعيرنا مذاقاً إن لم تكن هي المذاق. أعرف أن هذه النظريات تقودنا لبعيد. لكني سأُبرهن لكِ عليها قبل مرور وقت طويل. لا يهم، طالما يتمتّع المرء. مثلاً، هل هناك أبسط أو أكثر

طبيعية، يا صغيرتي، من رؤيتي وأنا أتمتّع بكِ؟ لا تظنّي. هل تظنين أني ملتزم بكِ. لكني لا أستسلم لشيء؛ أحطّم الروابط كلّها التي توقع الحمقى في شَرَك. أخضعكِ لرغباتي، وبعيداً عن المتع الأبسط والأشدّ رتابة، أتمتّع بما هو مبهجٌ حقاً. فاستسلمي، يا تريز، استسلمي وتعلّمي. وبعد رجوعكِ للدنيا واحدة من الأقوياء، استغلّي حقوقكِ هكذا، وسترين كم ستكون كلّ لذّة أكثر فعالية وأشدّ حدّة!».

سار رولان خارجاً، وتركها مستغرقة في ردود فعل أشدّ مرارة.

الفصل التاسع عشر

ظلّت جوستين في هذا الوكر قرابة ستّة أشهر، في خدمة نزوات رولان، حتى دخل ذات مساء صومعتها، مع سوزان.

قال: «تريز، تعالي، يبدو لي أنه مرّ زمان طويل منذ أخذتكِ هناك في المدفن الذي أرعبكِ كثيراً. فاتبعاني، كلتيكما؛ لكن لا تتوقعا العودة؛ فسأخلف واحدة فقط ورائي ـ سنرى على أيّ منكما يقع النصيب».

وقفت جوستين تنفث نظرات ذاهلة، مثل سوزان، وقد غامت عيناها بالدموع. ثم نزلوا.

مجرد أن حُبسوا بالمدفن تحت الأرض، حدّق رولان فيهما معجباً بعينين برّيتَين. استغرق في لذّة يكرّر أن النصيب لواحدة، يقنعهما أن واحدة ستبقى فقط .

قال، وهو يريح نفسه بينما تقفان أمامه: «هيا، مَن تسرّني أكثر فلها الجائزة».

قالت سوزان: «ليس عدلاً، فمن تسرّكَ أكثر هي من ينبغي أن تنال الصفح».

«لا مطلقاً! لحظة اكتشافي أفضلكما، أوقن أن موتها سيمنحني لذّة قصوى. كما أنني لو قرّرتُ العفو عمّن تسرّني أكثر فستشرع كلٌّ منكما في العمل بحرارة ملتهبة مما قد يطلق أحاسيسي بالنشوة قبل الانغماس التامّ في التضحية، وهو ما لا أريده».

قالت جوستين: «إن كمال نشوتكَ هو كلّ ما تريد، وإن بلغته دون جريمة، فلماذا إذن تقترف الجريمة!».

قال لجوستين: «آه! لأبلغها بلذّة أكبر، إنني أنزل هنا لأقترف جريمة، فأنا ماضٍ لاقتراف جريمة! كما أن جِلدكِ البديع، يا تريز، بعيد عن التصلّبِ والخشونة مثل حال جِلد سوزان. قد يشعل المرء النيران في ردفَي هذه البنت الغالية ولا تحسّ. لكن جِلدكِ، يا تريز، جِلدكِ...».

هدّأ هذا التهديد حقاً من رَوعها. فهو ينوي تعريضها لنوبات عنف مستجدّة، إذن فهو لم يتّخذ قراراً بعد للتضحية بها.

قال لسوزان: «لا أظنّ أشدّ السياط رعباً ستسحب نقطة دم أخرى من ظهركِ!».

وهو يمرح صاخباً من حوله، متشجّعاً كمُهر صغير في الربيع.

قال أخيراً: «سوزان، فُزتِ. لا أعرف ما أهوى فعله معكِ!».

فترافعت جوستين: «آهِ، سيدي، ارحمها، ففيها ما يكفي من الألم!».

«نعم! آه، لو كنتُ الإمبراطور الشهير كيه[1] لفعلتُ شيئاً مختلفاً. فأنا أيضاً لطيف، يا تريز، غريب تماماً على ذلك، مجرّد تلميذ

(1) الإمبراطور الصينيّ كيه من أعظم الأوغاد الذين شوهدوا على عرش. وزوجته عنيفة فاسقة. وللتمتّع بما يهويان من لذّة، كانا يستظلاّن بفيض من الدماء يومياً. بُلّغنا أنهما، عند القيام بالتضحية بأحد، كانا يديمان حياته بأشدّ لوعات الموت ضراوة، وفي ظلّ هذه المعاناة لم يخطر ببال أيهما التخلّي عن تجليات الروح الشريرة؛ بل كان هذان الوحشان يؤدّيان ببراعة نوبات عذاب غير إنسانيّ؛ تتراوح ما بين الراحة والعذاب، فيُمهلان الضحية لحظة للحياة لتموت في التالية. لديهما، بقصرهما، حجرة سرية يُضحّى فيها بالموعودين تحت بصرهما وسمعهما، وهما يتلذّذان. أما خليفته، الإمبراطور ثيو، فزوجته عنيفة أيضاً. كانا يفوران بالدم وهما يكبّلان الضحايا تحت أعينهما إلى عمود بقصرهما. =

مدرسة!».

قال: «تعالي يا تريز، تعالي، فتاتي العزيزة، فلننغمس قليلاً في لعبة قطع الحبل[1]».

صعدت المقعد بالحبل حول رقبتها. جهّز نفسه أمامها، وسوزان تقوم على خدمته. مسلّحة بالسكّين، قطعت جوستين الحبل في الوقت المناسب، فسقطت على الأرض دون أن يلحق بها أذى.

قال رولان: «حسن. حان دوركِ، يا سوزان. حظاً سعيداً لو خرجتِ من اللعبة بمثل هذه المهارة!».

رُفعت على الحامل ثلاثيّ القوائم. وكانت مَن شُنق.

«هيا نخرج يا تريز، فلن تعودي هنا ثانية حتى يحين دوركِ».

وسألت جوستين رفيقاتُها اليوم التالي عما حدث لسوزان. فأخبرتهن ولم يندهشن قطّ. بَدَون كمن ينتظر المصير ذاته، بل ويرغب فيه بشغف أكبر.

❑ ❑

شاعت أخيراً بالقصر الأنباء السيئة أن رولان لم يتلق مبالغ

= يقول أحد المؤرّخين «كانت الأميرة تُسرّ كثيراً والضحايا يتضوّرون ألماً وينفجرون صراخاً؛ وتزداد تسليتها كلّما كلّفها زوجها أكثر بهكذا مشهد. (تاريخ الملوك، ص ٤٣، الجزء ١٢). (هامش بالأصل).

(1) هذه اللعبة الموصوفة كانت غامضة بين السلتيين، ومنهم استقيناها. (انظر: تاريخ السلتيين). عواطف وحشية غريبة، ونوبات فسق وفجور، تُؤدّى يومياً بصرامة. كانت سابقاً مجرد تسالٍ أو أعراف قانونية أو مراسم دينية. وفي هذه المراسم الورعة عند الوثنيين، جَلد السياط أساس. وقد اعتادت أمم كثيرة استخدام نوبات عذاب شبيه حين يلتحق محاربوها الشبان بجيوشها العرمرم. (انظر: المراسم الدينية عند الشعوب). (هامش بالأصل)

الحوالات الهائلة التي طلبها من فينيسيا، بل طُولب بستة ملايين أخرى من ماله المزوّر.

تلك كانت الحالة المستجدّة وقت ذهاب رولان إلى جوستين لينزل بها للمرة الثالثة إلى المدفن القابع تحت الأرض. استدعى التهديد الذي أطلقه المرة السابقة، وهما هناك، فأثارها من شدّة التوتّر.

قال: «لكِ أن تسعدي، يا تريز، فليس هناك ما تخافي منه ـ الأمر يتعلق بي وحدي، أودّ التمتّع بشعور غريب؛ فلن تغامري معه بشيء».

تبعته إلى أسفل، وبعد أن أغلق الباب، قال: «تريز، أنتِ الوحيدة التي أعتمد عليها في هذا المنزل. كما أني أميّزكِ حتى عن أختي».

مُلئت عجباً، فطلبت منه توضيحاً.

قال: «اسمعي، لقد كوّنت ثروتي، لكن في أيّ لحظة سيتمّ تدميري. قد يراقبونني أو يمسكون بي أثناء ما أنا مقبل عليه من نقل ملكية ثرواتي. ولو حدث، فالحَبل نهايتي. سيعاقبونني بمنحي اللذّة نفسها التي أتمتّع بها حين أجعل النساء يذقنها. وأنا مقتنع الآن بأن الموت أكثر لطفاً لا عنفاً. ولأن من أجعلهن يشعرن بأولى وخزاته لسن مخلصات حقاً معي، أودّ التحقّق من شعورهن بنفسي. أريد تجريب المسألة على شخصي، لأعرف من واقع خبرتي الشخصية إن كان الضغط يجلب عليهن لذّة أم لا. ولو اقتنعت بأن الموت ليس غير تسلية، فسأواجهه بسهولة أكبر حينَ يحينُ حَيني. ليس ذلك من خشيتي الموت ـ فلا أخشى الجحيم أكثر من توقّع الفردوس؛ لكني لا أحبّ المعاناة أثناء الموت. لنجرّبه، يا تريز. ستُنجزين معي كلّ ما أنجزته معكِ. سأمضي في التعرّي ثم أصعد على المقعد؛ وتشدّين الحَبل ثم أسعى لإثارة نفسي. بمجرد أن تريني على وشك الاستعداد اجذبي

المقعد، ودعيني معلّقاً وهلة. دعيني معلّقاً حتى تري لذّتي اكتملت، أو بدت أعراض المعاناة. في الحالة الثانية، فُكّي سراحي فوراً؛ أما في الحالة الأولى، فدعي الطبيعة تأخذ مجراها التامّ وفُكّيني فيما بعد. تريز، إني أضع حياتي بين كفّيكِ. حريتكِ وثروتكِ لقاء سلوككِ الطيب».

قالت جوستين: «عرض باهظ، يا سيدي!».

ردّ، وهو يتعرّى: «لا يا تريز، لا بدّ منه! لكن أحسني التصرّف. قدّري أيّ برهان أمنحه إياكِ عن ثقة وتقدير».

ما نفع تردّدها، إذن ـ أفليس سيّدها؟

ارتقى المقعد والحَبل في رقبته، ودّ لو تسمّره فيه جوستين، لو تسبّه بكلّ ما هو مرعب في حياته، بكلّ ما في مقدورها. استعدّ فأومأ لها بشدّ المقعد بعيداً.

عُلّق من رقبته وهلة، وتدلّى نصف لسانه للخارج، ثم تورّمت عيناه؛ بدأ يُغمى عليه فوراً، فأشار في وَهن إلى جوستين أن تفكّ سراحه.

قال بعدما انتعش: «آه يا تريز! لم يكن لديّ أدنى فكرة عن مثل هذه المشاعر، يا له من شعور! فاق كلّ ما أعرفه! يمكنهم الآن شنقي لو أرادوا! لكني، ثانية، يا تريز، سترينني جاحداً. وماذا أفعل، يا عزيزتي ـ فالناس لا تُقوّم نفسها في مثل سني. يا عزيزتي الغالية، لقد وهبتِني تواً حياتي، فلن أنحني لآخذها منكِ. حسن أن تبرّمتِ من مصير سوزان، لكني سأعمل على أن أُلحقكِ بها. سألقي بكِ حيّة بالحفرة التي دُفنَت فيها».

جرّها، وهي تصرخ، إلى حفرة اسطوانية ضخمة مخفيّة بالركن البعيد من المدفن. فتح الغطاء ودلّى لمبة لتميّز جثث الموتى

المحشورين فيه. دسّ حبلاً طويلاً تحت ذراعيها، وربطه خلف ظهرها، ثم خلاّها تنزل حوالي ثلاثين قدماً في الحفرة، نصف الطريق إلى القاع. في هذا الموقف كانت معاناتها مرعبة، وبدا لها أن ذراعيها قد شُدّتا من وَقبيهما. كادت تخنقها تقريباً رائحة تعافُها النفس، ظنّت أيامها ستحين وسط ركام جثث الموتى. أما هو، فوقها، فسمعته يهذي بتجديف وتهديد أن يقطع الحَبل. كان التهديد يستزيد لذّته عموماً، لكنه لم يفعلها حقاً، فبعد زمان مرّ قام بسحبها من جديد.

«خِفتِ، يا تريز؟».

«آه يا سيدي! آه... آه!».

قال: «هكذا تموتين، يا تريز، كوني على يقين! أريد منكِ اعتياد المسألة!».

❑ ❑

تجهّز رولان أخيراً للرحيل. ومساء رحيله، دخل يرى جوستين فيؤدّي لها احترامه الأخير.

رمت بنفسها على قدميه ترجو منه إطلاق سراحها، مع قدر قليل من المال للذهاب إلى غرينوبل.

«غرينوبل؟ طبعاً لا، لتقدّمي شكوى عليّ هناك».

فناشدته وسط دموعها: «سيّدي الطيب، أعدكَ ألا أذهب هناك. ولأقنعكَ، خذني إلى أبعد ما تستطيع، مثل فينسيا. وأقسم ألاّ أُسبّب لكَ المتاعب!».

ردّ: «لن أهبكِ فرنكاً واحداً! فلا وجود عندي للشفقة والعرفان، كما أخبرتكِ من قبل ألف مرة، ولو كنتُ أغنى مما عليه ثلاثة أضعاف، فلن أهب فقيراً مليماً أحمر. إن رؤية التعساء تثيرني وتسلّيني.

هناك مبادئ لا أحيد عنها، يا تريز ـ كما أخبرتكِ. فالفقر من الطبيعة، ومن نيّة الطبيعة ألاّ تغيّر الحضارة هذا المبدأ الأوّلي. ولو قمنا براحة كلّ محتاج فسندمّر نُظم الطبيعة ونُطيح بالتوازن، أسّ أنساقها الفائقة؛ فليعلم كلّ متراخٍ كسول، ليعلم كلّ فقير أن المساواة أخطر شيء على المجتمع!».

«سيّدي، تتكلّم وكأنكَ لستَ ثرياً؟».

«قد أكون، يا تريز. لكلّ امرئ طريقته في النظر إلى الأشياء؛ وهذه طريقتي ولن أحيد عنها أنملة. يشتكي الناس هذه الأيام من الشحاذين بفرنسا. ولو أرادوا، لشنقوا سبعة أو ثمانية آلاف منهم فيرتاح الجميع. هل لمن تفترسه الطفيليات أن يسمح لها بالعيش على حسابه، عبر الشفقة؟ لماذا نتصرّف دون ذلك في هذه الحالة؟».

صاحت جوستين: «لكن الفضيلة! نزعة الخير! الإنسانية!».

«أحجار عثرة أمام السعادة. لو أسعدتُ نفسي لخلّصتُ نفسي غالباً من أهواء البشر الغبية. إنني أهزأ بقوانينهم القدسيّة وأعرافهم البشريّة، كما أضحّي دائماً بالضعيف حين أصادفه في طريقي. وبخداع العامة، الساذَجين كعادتهم، دمّرتُ الفقير ونهبتُ الغنيّ، وهكذا وصلت إلى ما أنا عليه. فلم لا تحذين حذوي؛ لديكِ الفرصة نفسها. لكنكِ تفضّلين ما تتوهّمين من فضائل خيالية ـ فهل تستحقّ؟ لكن فات الأوان، يا تريز ـ فابكي على خطاياكِ، ليس أمامكِ غير هذا».

ولإنهاء الحوار، أرغمها من جديد على الإذعان لرغباته ونزواته المنحرفة، حتى كاد يخنقها تقريباً. وحين أحسّ بالسلام العميق، استخرج سوط قضيب الثور ووَسم به جسمها جَلدة إثر جَلدة؛ ثم أخبرها أن لديها أموراً معقولة لتكون سعيدة، لكن لم يعد لديه الوقت الكافي ليهبها منها المزيد.

قبل الشروع في الرحيل اليوم التالي، أنتج فعلياً مشهد وداع بفظاعات جديدة. كان رولان قارئاً شرهاً للتاريخ الرومانيّ، فكان يستعير صاغراً بعض وسائل العذاب والفظاعة من حوليات نيرون وأدرنيكوس وتيبريوس.

ظنّوا أن أخت رولان سترحل معه، فقد أخرجها من القصر بملابسها كاملة. لكنه أمرها قبل اعتلاء فرسه بتقلّد وظيفتها جنباً إلى جنب مع النسوة الأخريات، وقال: «يظنّ رفاقي أني متيّم بهذه المومس؛ لكني سأدعها ورائي رهينة. ولأني ذاهب في رحلة خطرة، سأجرّب مسدساتي على إحدى هؤلاء الفاسقات ـ فهناك الكثير هنا زيادة عما نحتاج، عموماً».

وعمّر أحد مسدساته فسدّده إلى صدر كلّ واحدة من الفتيات المصطفّات أمامه، لكن حين وصل إلى أخته في آخر الصفّ، فرّغ شُحنته.

لم تلفظ أنفاسها الأخيرة فوراً، بل كافحت زمناً تحت أصفادها.

❑ ❑

بعد يوم رحيل رولان، تغيّر كلّ شيء. فخليفته رجل عاقل لطيف؛ قام على الفور بتحرير الفتيات من أصفادهن وأعمالهن.

قال لهن عطوفاً: «لا عمل للنساء. فتجارتنا التي نُديرها شرّيرة، ولا يجب أن نجعلها أسوأ بمثل هذه الأشياء المفزعة».

أسند إليهن جميعاً أعمال القصر وصبّ العملات وطبعها، وهي أعمال لم تكن حقاً مجهدة، ثم منحهن مقابل عملهن حجرات أفضل وطعاماً ممتازاً.

في النهاية، بعد حوالي شهرين، أبلغ دلفيل، خليفة رولان،

الفتيات عن وصول زميله الآمن.

ظلّ الوقت هادئاً ولطيفاً بالقصر، ومع أن السيد الجديد العطوف كان إجرامياً، إلا أن العمل معه استمر ناعماً في حبور.

لكن ذات يوم، وفجأة، اقتحمت الأبوابَ كتيبةٌ من الجند، دُكّت الأسوار وامتلأ القصر، قبل أن يُتاح الوقت أمام الرجل في التفكير بوسيلة دفاع. لم يعد هناك غير الاستسلام. فصُفّدوا كلهم كالحيوانات، مربوطين إلى جياد ومُساقين إلى غرينوبل.

حوكموا فوراً بقضية تزوير العملة. وحين رأوا الوشم على كتف جوستين، وفّروا على أنفسهم تقريباً متاعب استجوابها، وقد أوشكت أن تُدان بمصير الآخرين، وهو الشنق، لكن نالت بعضاً من شفقة أحد القضاة، وكان أكثرهم نفوذاً في المحكمة، قاض مستقيم ورجل مُحتفىً به لإحساسه الطيب وعطفه. أنصت إليها في عناية، مقتنعاً بسلوكها من خالص إيمانها وحقيقة بلاياها. فترافع عنها بنفسه، وبسبب من قوّته ونفوذه طلعت بريئة، مُضلّلة؛ فمُنحت حرّيتها كاملة. وتقبّل منها محاميها مبلغاً ضئيلاً. ظنّت متاعبها وقد انتهت أخيراً، فبكت بسعادة غامرة.

الفصل العشرون

ذهبت جوستين لتعيش قرب الضواحي في خان إزاء البحر. اتّبعت نصح من جلب عليها حريتها، وكانت تنوي البقاء قليلاً حتى تجد عملاً في البلدة؛ وإن لم تُوفّق، فقد تعود إلى ليون بخطابات توصية من محاميها النافذ.

في يومها الثاني في الخان، بينما تتناول غداءها في حجرة المطعم، لاحظت امرأة أنيقة بدينة، في زيّ بارونة، على مائدة قريبة، تُراقبها عن كثَب.

حدّقت جوستين أكثر في المرأة وهي تسأل نفسها أين رأتها من قبل؛ ثم لمحت كلٌّ منهما عين الأخرى، فبدأت كلتاهما النظر في محاولة تعيين للثانية. نهضت أخيراً البارونة، متّجهة رأساً نحو طاولة جوستين، فسألتها كسيّدة ماجدة إن كانت مخطئة؛ أليست هي تريز التي تكلّمها الآن، تريز نفسها التي أنقذتها من عشر سنين. وهي، أليست مدام ديبو؟

تباهت جوستين قليلاً بهذا الاكتشاف، لكنها ردّت في أدب، كونها تعي أنها تتعامل مع امرأة ماهرة ماكرة.

غمرتها مدام ديبو باللطف والرعاية. قالت إنها قلقة من ورطة جوستين الحالية مع السلطات، لكنها علمت بالأمر مؤخراً؛ وعليها بشكل أو آخر التواصل مع القضاة، ولديها بعض أصدقائها المقربين.

وهكذا، كالمعتاد، انقادت جوستين واهنةً، وفازت مدام ديبو بحُظوتها في يُسر. ثم حكت جوستين عما خبرته من بلايا منذ التقتها أول مرة.

قالت مدام ديبو، وهي تعانقها: «صديقتي العزيزة، يؤسفني سماع هذا. كنتُ أريد أن أراكِ من زمن طويل. تريز! لكن الحال سيمرّ بخير قريباً. لديّ ما هو الكثير لكلّ منا. انظري»، وأبانت عن يديها، حيث يُغطّيها ماس برّاق: «هذا كلّه من كدّ عملي. تأكّدتِ، يا تريز، فلو ظللتُ فاضلة مثلكِ، لحُبستُ في سجن أو شُنقت!».

فردّت جوستين: «مدام! لو كان ما نلتِه بالجريمة، فلن يدوم. إن عناية الله تعاقب على الشرّ في النهاية!».

«مخطئة، يا تريز. لا تظنّي أن عناية الله تناصر الفضيلة دائماً. فلا تدعي الحظّ الذي تدورين في فلكه الآن قليلاً يقودكِ للصراط المستقيم. الأمر سواء عند الله، إن كان بولس شريراً أو بطرس خيّراً. فالطبيعة في حاجة إلى كليهما، وأكثر ما لا تُبالي به في العالم هو الجريمة، لا الفضيلة. اسمعي، يا تريز!» ومالت إليها أقرب: «أنتِ ذكية، يا طفلتي، وأودّ إقناعكِ حقاً! ليست المسألة خياراً بين فضيلة ورذيلة؛ فهو ما لن يجعل المرء سعيداً ـ وكلاهما ببساطة طرق لتواصل المرء مع نفسه. لكن ما قد يجعل امرأً سعيداً هو التصرّف كالآخرين ـ وحسب الحكم النهائيّ. ومن لا يتبع السوقةَ فهو أيضاً مخطئ. في عالم فاضل كلياً أوصيكِ بالفضيلة، فهي وحدها عندئذ ما يُكافأ، كما تعتمد السعادة كلياً عليها. لكن في عالم فاسد كلياً مثل عالمنا، فالرذيلة هي الحلّ الوحيد. ومَن لا يسقط في براثنها مع الباقي، فلن تعود له فرصة؛ سيدوس عليه الجميع ـ فهو الضعيف، العاجز، المسحوق. تحاول القوانين دون جدوى الحديث مع الدهماء بلغة الفضيلة، لكن الأمر

ليس مجرد حديث. فمَن يسُنّ القوانين متحيّز، حقاً، نحو الشرّ ولا ينفّذ كلامه المعسول ـ إنه يسدّد طعناته فقط إلى القوانين لصالح المظاهر، وهذا كلّ شيء. ومثلهم ذوو السُّلطة حيث يدرك دائماً ميزة الرذيلة والتجرّد من مكارم الأخلاق وأماني الجميع في الفضيلة ليجني وحده الفائدة الكبرى من هكذا ميزة، فتصبح له اليد العليا. ألا ترين الفساد مسعى عاماً عند البشر ـ ومن لا يفسَد مع الفاسدين فهو نقيض هذا المسعى العام؟ إذن، أيّ سعادة قد يجنيها المرء ممن يُعيق مسعى الآخرين؟ سأفترض أنكِ تُبلغينني أن الرذيلة توازن مسعى البشر. صحيح، أعترف، ففي عالم يتألّف من أنصبة متعادلة من الأشرار والأخيار، يرتطم بوضوح مسعى أحدهم مع مسعى الآخر. لكن الأمر لا ينضبط في مجتمع فاسد كلياً مثل مجتمعنا، فلا تحيد رذائل أحدهم عما قد يفعله الأشرار؛ وهكذا يُمنح الجميع، في المقابل، الفرصة في فعل رذائل الآخرين، مما يؤمّنهم من المخاطر؛ فيجدون أنفسهم كلّهم سعداء. إنه تبادل مشترك للجروح، يعوّض أحدهم الآخر. والرذيلة تؤذي الفضيلة، حيث لا يجب أن توجد؛ وحين لا تعود موجودة، تؤذي الرذيلة الأشرار فقط، ولا تعود الفضيلة نفسها. تصبح الرذيلة هي وحدها المُحرّض ضدّ الرذيلة؛ وبدلاً من إيذاء إحداهما الأخرى، تحفز إحداهما الأخرى. فهل ترين، يا طفلتي العزيزة، ما أرمي إليه؟ لا عجب إن فشلتِ بحياتكِ ألف مرة ـ فأنتِ تتّخذين كلّ طريق غير الذي يتّبعه الجميع. ولو تبعتِ التيار العام فأمامكِ الفلاح والسعادة، مثلي الآن. هل صعود النهر كالهبوط فيه؟ وهناك شيء آخر، إنكِ تتحدّثين معي دائماً عن عناية الله، التي تهفو للنظام والفضيلة. أفلا يمنحكِ عالمنا دائماً أمثلة عن المظالم والنزعات الشاذة ـ فالبشر يروحون في الحروب، المجاعات، الطواعين، الفيضانات، الزلازل؟ أليس كوناً فاسداً في كلّ مناطقه ومناحيه؟ أهذه هي فكرتكِ عن عناية

الله التي تهفو للفضيلة! لماذا تصرّين بأن الأشرار يثيرون استياءكِ، فالإله نفسه يتصرّف فقط بالرذائل، كلّه شرّ والفساد ضمن أفعاله، كلّه جريمة والفوضى ضمن إرادته! علاوة، يا تريز، على أنه من أين تهفو عواطفنا للشرّ إن لم تكن من نعمائه؟ أليست هي، أيضاً، من جلاء عناية الله! قد يسوّي المزيد من التفلسف في هذا العالم كلّ شيء سديداً، بينما يرى القضاة والمشرّعون ما يلومون أو يعاقبون عليه من جرائم في الآخرين فحسب ولا يرونها في أنفسهم، حيث يجدون فيها أحياناً فوائد أكثر مما يبشّرون به من فضائل؛ لكنهم لا يكافئون عليها قطّ؛ أو يمارسونها بأنفسهم».

قالت جوستين: «على فرض أني تكيّفتُ مع نظرياتكِ، فكيف أتكيّف مع ضميري ـ ألن أعاني الندم كلّ دقيقة تقريباً بدءاً من اليوم!».

«الندم ـ علامَ يا تريز، الندم مجرد وهم، يجلد فحسب الروح الرعديدة ـ الرعديدة جداً، حتى لتعجز عن إخماد صوته أو خنقه!».

سألت جوستين: «وهل يُخمَد صوت الندم؟».

«طبعاً، لا شيء أسهل منه يا تريز. فالناس تتوب عما لا تعتاد فعله. لو ندمتِ على أيّ مما تفعلين، فافعليه مرّة ومرّة، وعندئذ ترين بسهولة كيف ينسى ضميركِ. وأيّ وسيلة تقول إن الندم يبرهن على الجريمة ـ لهي دليل بسيط على أنه يُبدي الوهن في الروح، يُغويها بيُسر. يندم الناس على أتفه الخطايا. والجريمة هي أكثر الأشياء خلواً من المعنى في العالم، مع ضرورتها أحياناً. كلّ ما عليكِ فعله هو إقناع نفسكِ بها، يا تريز. دعينا نحلّل ما يدعوه البشر عموماً جريمة، وسترين أنه لصالحكِ. أليست الجريمة انتهاكاً للقوانين والعادات المحلية؟ لكن ما يُدعى جريمة في فرنسا ليس هو ما يبعد مائتي ميل من هنا. فهل هناك أيّ فعلٍ يُعتبر جريمة عالمياً، لدى كلّ أمة على الكوكب؟ إنها

مسألة رأي، مناخ، موقع، محرّمات، يا تريز. ما يُعتقد أنه شرّ وجريمة هنا في فرنسا، قد يُعتبر جديراً بالثناء وفضيلة في مكان آخر. وهكذا نرى، من العبث أن نحاول قسر أنفسنا على ممارسة فضائل قد تعتبر رذائل في مكان آخر، ونرتعب من اقتراف جرائم قد تُعتبر أفعالاً من الطراز الأول في بلد آخر! أسألكِ الآن، يا تريز، لـمَ تقلقين إذن من سعيك لاقتراف جريمة في فرنسا وهي حقاً فضيلة في الصين؟ ولماذا تربكين نفسكِ بفعل طيّب النوايا مما قد يُعرّضكِ للشنق في سيام؟ ألا ترين أن الندم لا ينبع من الفعل ذاته، بل لكونه محظوراً؟ لو تعرّفتِ على عادات الأمم وأخلاقها، فستتفقين معي أن الندم هو الثمرة الوحيدة للجهل والتحيز. ستعلمين أنه لا يوجد شرّ أصيل في أيّ شيء، ومن الغباء أن تتوبي ولا تفعلي ما هو مفيد ومقبول عندكِ. إنني في الخامسة والأربعين؛ وقد ارتكبتُ جريمتي الأولى في الرابعة عشرة ولم يضايقني ضميري في أيّ وقت. وحين لم يكن أيّ شيء يتمّ على صورة مُرضية، ألوم نفسي على ارتباكي؛ لكن الندم ـ بففف!».

ردّت جوستين: «آه، أضمن لكِ ذلك، سيدتي، لكن دعيني أستنبط وفقاً لمنطقكِ. لماذا تتوقّعين من ضميري أن يكون حازماً كضميركِ، فهو لم يعتد من الطفولة، مثلكِ، التغلّب على التحيّز نفسه؟ لماذا تطلبين من عقلي، المتباين عن عقلكِ كثيراً، اعتناق نظرياتكِ ذاتها؟ أنتِ نفسكِ تقولين إن الخير والشرّ فطرة ـ إذن، فهناك عدد معين من الناس في جانب الخير. وهو الجانب الذي أتّخذه، حيث يوافق فطرتي. ثم لماذا تودّين مني أن أحيد عن القوانين التي لها الطبيعة نفسها التي تقدّسينها كثيراً، فتنقاد لي. علاوة على أنه لا يجب أن يسري بظنّكِ أن كلّ امرئ مثلكِ محظوظ، وسيفلت دائماً دون عقاب. قد رأيتِ ما حدث لعُصبة المزوّرين. فمن بين خمسة عشر، مات أربعة عشر مكلّلين بالشنار».

«ولماذا تدعينه شناراً، يا تريز؟ حين يستغني امرؤ عن هذه المبادئ المؤسّية والأهواء الطفولية، لا يعود مبالياً بكلّ ما هو فارغ، كالشرف والشنار أو السمعة؛ فالفرق ضئيل إليه أن يموت على فراش أو في محفّة. ترين، هناك صنفا أوغاد في هذا العالم، يا تريز: واحد، ثريّ ذو قوّة ونفوذ؛ يندر أن يلاحقه القانون. والآخر، نكرة، لا شأن ولا قيمة؛ وللتمايز عن ذلك النذل الأول، فإن القوانين والسلطات تقع عليه مضاعفة. ولأنه مولود دون ثروة، فلو كان لديه أيّ حسّ فسيجلب عليه هدفاً واحداً: هو نيل المال بكلّ ما يستطيع. إن نجح فسيُحرز نجاحاً فائقاً؛ وإن لم ينجح، فسيوضع على الرفّ. وماذا يهم ـ فهو نكرة، لا يأسف على شيء، حيث لا يملك ما يخسره».

قالت جوستين، وهي تنهض ناقمة عن المائدة: «لا أتحمّل سماع أيّ من سفسطاتكِ وتجديفكِ أكثر من هذا!».

فردّت مدام ديبو، ريثما تُقيم ظهرها: «دقيقة واحدة، يا تريز! اجلسي دقيقة، أرجوكِ ـ أريد أن أتكلّم معكِ ـ أريد لكِ العون! اسمعي، لو قبلتِ أن تساعديني قليلاً، فها هي ألف فرنك ـ لكِ فوراً كما تقضي النية».

«لمَ؟».

«ألم تلحظي تاجر ليون الشاب الذي يأكل هنا منذ أربعة أيام أو خمسة؟».

سألت جوستين: «مَن؟ دوبريه؟».

«آه!».

«ثم؟».

قالت مدام ديبو، وصوتها خفيض: «مغرم بكِ. وعهد إليّ بهذا.

فهو يظنّ فيكِ الرقّة البالغة. يعتقد أنكِ جميلة، متواضعة، مهذّبة، متحفّظة. ولا ألومه، فأنا نفسي أعتقد ذلك. وهذا الشاب الرومانسيّ ثروته تُقارب المليون وقصره مليء بالكنوز. أودّ لو تسمحي لي بأن أوهمه أنكِ مثله، وسينُصت إليكِ. فما قولكِ، يا تريز؟ سأكلّمه في القيام بنزهة معكِ وكلّ ما عليكِ هو تسليته وإبعاده طويلاً قدر الإمكان ريثما أنهبه. ولن أغادر البلدة فوراً، فلن يشكّ فينا قطّ. ثم أمضي بهدوء في النهاية. وستتبعينني لأخذ نصيبكِ بمجرد الرحيل عن فرنسا. فما رأيكِ، تريز؟».

وافقتها جوستين «اتّفقنا». وفي نيّتها أصلاً إعلام دوبريه بخطّة مدام ديبو. تمنّت لو تضلّلها أكثر، فقالت: «لكن، انتظري دقيقة! إن كان دوبريه مغرماً بي، فإما أن أقوم بتحذيره أو أستسلم إليه، فأنال منه المزيد، أكثر مما تعرضين عليّ أن أخونه».

ردّت مدام ديبو: «رائع! بدأتِ تتعلمين؛ أعرف أنكِ تلميذة شاطرة. وسأشرع التفكير في أنكِ مؤهّلة لحرفة الجريمة أكثر مني. طيب، سأجعلها خمسة آلاف، أفضل ـ رضيتِ الآن؟».

كان الموقف لدى جوستين أكثر تعقيداً. فهي لم تعقد النية قطعاً على تنفيذ اتفاقها، لقاء أيّ مبلغ، مع مدام ديبو. بل خضعت لتفضح مدام ديبو، وهو ما يحزنها. فهي تكره تعريض أيّ مخلوق للخطر. وما هو أكثر، فقد أحسّت أنها غير مدينة لمدام ديبو، فقد قضت عشر سنوات قبل أن تحرّرها من السجن. كما تفضّل كثيراً منع الجريمة دون معاناة من أحد؛ ومع امرئ محتال من الطراز الأول كهذه السيدة، قد تُوفّق.

رُتّب كلّ شيء أخيراً، وفي المساء بدأت جوستين تجعل دوبريه على راحته أكثر. اقتنعت أن لديه بالفعل ميلاً مخلصاً إليها. ونشأت

بينهما، في وقت قصير، علاقة حميمة دافئة، فعزما على قضاء يوم في نزهة طويلة أو ركوبة إلى ريف خلاء.

دعتهما مدام ديبو، في اليوم المحدد، على غداء معها في حجرتها. بعد الغداء، الذي كان تمهيداً طويلاً للمسألة، جلسوا فترة يدردشون في حبور بالغ. لكن جوستين تبرّمت، فقالت إن الوقت قد حان للوداع وبداية مشروع الرحلة.

خلّيا مدام ديبو هابطين لتجهيز جَوادين؛ لكن قبل الإقلاع فعلياً إلى الرحلة، اختلَت جوستين دقيقة مع دوبريه.

قالت دون تمهّل: «دوبريه... قرّب واسمع... لا تقل شيئاً... وافعل ما سأقوله لكَ! لديكَ صديق مؤتَمَن قريب منكَ هنا؟».

«نعم، شريكي ـ فالبو...».

«عظيم! لنذهب فوراً، لكن أخبره ألاّ يترك حجرتكَ دقيقة ونحن بعيد!».

«المفتاح معي... فلمَ القلق... لماذا هذه الجلبة...؟».

«افعل كما أخبركَ، أرجوكَ ـ الأمر مهمّ ـ وإلا فلن أخرج معكَ. لقد رتّبت ديبو هذه النزهة لتسرقكَ ـ انظر، تراقبنا... إنها خطرة ـ فأسرع ـ أعطه مفتاحكَ، وبلّغه ألاّ يرحل حتى نعود ـ سأوضّح لكَ كلّ شيء فيما بعد!».

فعل دوبريه ما حذّرته منه، وبعد أن أجلس صديقه فالبو في حجرته، شرع في رحلته مع جوستين. وعلى مسافة من الخان، بُعيد طريق الخروج، شرحت له كلّ شيء مطولاً، أخبرته كيف تعرّفت على امرأة مثل مدام ديبو. كما أخبرته عن تجاربها وبلاياها التعسة. فامتنّ للغاية، واحتدّ عاطفةً. وبنقلة وجدانية عرض عليها الزواج. بلّغها أن

متاعبها انتهت الآن، وخطّط لها بصوت متلعثم تلك الحياة الرائعة التي سيعيشانها معاً لسنين طويلة قادمة. كان العرض أكثر جاذبية فلم تستطع رفضه؛ لكن بدا أنها لا تستطيع قبوله إلا بعد أن تحاول معه التحقّق من الأسباب، فلا يندم فيما بعد على عرضه المتعجّل. سُرّ برقّتها فضمّها عندئذ في شغف متزايد.

حملهما دفق الحوار السريع المرتبك بينهما قرابة ثلاثة أو أربعة أميال خارج البلدة. كانا ماضيَين مضطرمَين يتمتّعان بظلّ الغابة الرطب على طول ضفّة النهر حيث يقصدان في خلوّ بال النزهة معاً، ثم قال دوبريه فجأة إنه يحسّ بالتوعّك؛ ومال على صهوة الجواد وبدأ التقيؤ بعنف. فعادا مسرعَين إلى البلدة.

كان دوبريه متوعّكاً جداً وقت العودة، فحملوه إلى حجرته. جاء طبيب، وقال إنه مسموم. بسماع هذا ركضت جوستين فوراً إلى مكان مدام ديبو، لكن وجدت أنها راحت، فأسرعت إلى حجرتها واكتشفت أنها منهوبة، سرقت مالها وملابسها. ولم يكن لديها أدنى شكّ فيمن كان وراء ذلك كلّه.

عادت إلى حجرة دوبريه، لكن لم يُسمح لها بالدخول. فهو يُحتضر، قُرب نهايته. كان على يقين من براءة جوستين، وأنها حاولت منعها من القيام بذلك.

ظهر فالبو، صديق دوبريه، مؤخّراً فبلّغها أن كلّ شيء راح. بكت بمرارة وحاول أن يهدئ منها. كان نفسه يحسّ في عمق وإخلاص بخسران دوبريه. وعلى رغم أنه تأسّى على جوستين حين أخبرته عن متاعبها وبلاياها، إلا أنه لامها على فرط الرقّة التي أعاقتها عن تدبيج شكوى بمجرد أن عرفت خطط مدام ديبو.

تصوّر كلاهما أن الوقت قد تأخّر على ملاحقة مدام ديبو، علاوة

على أنه يستلزم ثمناً معقولاً. كما أن مقاضاتها قد تورّط جوستين. لم يُخف عنها فالبو حقيقة أنه لو شاعت هذه المصيبة الأخيرة، فإن ما سيُجبر على فعله من أداء شهادة علنية قد يُعرّضها للخطر، مهما كان محترزاً، بسبب كلّ من علاقتها الحميمة المفاجئة مع دوبريه، ورحلتها الأخيرة المشكوك فيها معه. حاول أن يطبع في ذهنها أنها ستقع بسهولة تحت سحابة من الشكّ. ظنّ من الأفضل أن تنحّي جوستين المسألة جانباً، فتترك البلدة فوراً دون رؤية أحد. وطمأنها من جهته أنه لن يتصرّف ضدّها أبداً، وفيما يتعلّق بما صار فهو يصدّق براءتها، لكن قد تُتّهم بالغفلة. وفي الوقت عينه، اتّخذت قرارها بأن تفعل كما نصحها؛ ففي حُكم اليقين أن قرائن الذنب هي ضدّها، كما قرّ في نفسها.

قال فالبو، وهو يسلّمها بعض المال: «يؤسفني ألاّ أستطيع مساعدتكِ كثيراً. فلا أملك القدر البالغ من المال، ويمكنني فقط التخلّي عن القليل. لكن أعرف امرأة سترحل من هنا الليلة أو غداً إلى شالو، مسقط رأسي. سأطلب منها معاونتكِ. هيا ـ نعم... آه ـ تعالي، سآخذكِ إليها الآن، فكرة، تعالي!». واستعجل كلاهما الخروج.

قدّم فالبو جوستين إلى المرأة، معرفته من بلده، قائلاً: «مدام برتران، تريز، أفضل صحابي. متى ترحلين ـ غداً؟ طيب، أريدكِ أن تأخذي معكِ تريز فتسهري على راحتها وكأنها أختي. إنها ماضية على طريقكِ تفتّش عن عمل. فكّري فيما يمكن فعله لها، ولا تحمّليها أيّ شيء ـ سأسوّي معكِ الأمر فيما بعد. اتّفقنا؟ شكراً!».

قبّل جوستين من الخدّ. وقال: «وداعاً، تريز. سترحل مدام برتران صباح غدٍ باكراً. أتمنّى لكِ حظاً سعيداً. سأراكِ قريباً. وداعاً!».

الفصل الحادي والعشرون

تخبّطت جوستين ذاهلة قبل تدافع الأحداث المفاجئ، وقلبها حجر بين جَنبيها. ظلّت تهيم في الشوارع على غير هدى، يقبضها اليأس في حيرة وهي تلفت انتباه المارّة؛ ولتفادي الحرج وتعليقات الآخرين الفضولية حوّلت طريقها نحو ضفّة النهر، إلى بقعة معزولة تتوحّد فيها مع فكرها وذكرياتها، لتحرّر نفسَاً يعيق تنهّد صدرها.

جلست هناك ساعات تتأمّل مستغرقة في انفعالات حزينة. وكما حدث في مناسبات سابقة، فكّرت في أختها جوليت؛ تتساءل عما صار معها، وإن كانت هي الأخرى تعيسة لدرجة فظيعة. تملّك جوستين شوق مفزع لرؤيتها، حيث كانت في مسيس الحاجة لمن يهدئ خواطرها، مما أثار بؤسها حين ظنّت أن جوليت قد راحت إلى الأبد من حياتها.

ظلّت تنجرف مع تيار أفكارها حتى غطست الشمس وراء الماء، وانتشرت ظلمة الليل فوراً على البلدة دون أن تعي. فجأة مسكها ثلاثة رجال، وقد كمّم أحدهم فمها بيده، فتنبّهت عندئذ من استغراقها العميق. أمالوا رأسها يلقون بها في سيارة تواً تحرّكت؛ أسرعوا ماضين في البلدة، بعجلة متزايدة، قرابة عشرين دقيقة.

وصلت العربة أخيراً عند منزل كرّت بواباته العريضة مفتوحة لتسمح بدخولهم.

عبروا حجرات معتمة طويلة، يزحف في إحداها نور واهن من

صدوع الباب، بها حبسوها. دخلت امرأة متينة بشمعة في يدها. كانت مدام ديبو. قالت لجوستين: «تعالي، تعالي يا صغيرتي البريئة، ها هي مكافأة فضيلتكِ». دُفعت جوستين إلى حجرة حيث رجل طاعن بوجه مثل فون[1]، كالخارج من أسطورة إغريقية، لكن تعبيراته أكثر بلادة فلم يكن نشطاً ولا حياً، ثم أجلسَت.

قالت مدام ديبو، وهي تشدّ جوستين أمامه: «سموّكم، ها هي الصغيرة التي تُلحف في طلبها ـ نعم، هي تريز البهية. لا يوجد مثلها! جائزة أفضل بكثير من الصغيرة الأخرى التي أتيتُ بها لكَ من الدير، وممّن قد يأتي هنا في أيّ وقت. نعم، الأخرى لها فضائل جسدية، لكن هذه ـ آه! يا لها من عواطف! بالعواطف كيانها كلّه، لن تجد مخلوقاً أشدّ صراحة أو مباشرة مثل تريز! عموماً، البنتان لكَ، فافعل ما يحلو لكَ معهما. أما أنا فسأحوم حولنا ـ فقد مات رجل بالبلدة ولم يعد المكان هنا آمناً».

قال المهيب: «لا، لا، عزيزتي! ابقَي هنا. فلا خوف عليكِ ـ ما دمتِ في حمايتي. أنّى لي بالتصرّف من دونكِ... لكن تريز هذه جميلة فعلاً...». ثم دار إلى جوستين: «كم عمركِ، طفلتي؟».

«ست وعشرون سنة، سموّكم، وكثير من المآسي».

«مآس... بلايا ـ نعم، أعرف كلّ شيء. هيه، أمر مُسلٍ ـ أشدّ فكاهة مما ظننتُ. سأضع لمتاعبكِ نقطة النهاية، يا طفلتي ـ أربع وعشرون ساعة وينتهي كلّ شيء. أليس كذلك، يا ديبو؟»، وضحك.

ردّت مدام ديبو: «طبعاً! لو لم تكن تريز أعزّ صاحباتي لما أحضرتها إليكَ».

---

(1) فون: أحد آلهة الحقول والقطعان عند الرومان. (م).

أحنى رأس جوستين على صدره، رفع شعرها ليفحص عن قربٍ مَنبت عنقها. يداه عظميّتان قاسيتان بأصابع ناشفة فكأنه تشبّث بها مثل مِلزمة. صاح، يضغط عنيفاً على عظم الترقوة: «أوه، لذيذة! لم أر أبداً مدملكة مثلها ـ سنلهو كثيراً لو قصصنا هذا الرأس!».

سُمعت عندئذ دقّة بالباب، فخرجت ديبو لتأتي بصغيرة الدير التي تكلّما عنها قبلاً. اسمها أوللي، بنت بديعة بمجرد النظر إليها. قالت: «إلهي، سيدتي، أين أخذتِني!». لكن سموّه شدّها بخشونة نحوه، وشرع بأصابعه الطويلة يدلّك رقبتها في هياج. انكمشت جبهته كمن يؤدّي حسابات ذهنية، وهو يُدير رأسها بحدّة من جنب إلى آخر.

قال: «تعاليا! هاتان البنتان ستمنحانني لذّة قصوى. ستُؤجَرين كثيراً عليها، يا ديبو. هيا ندخل مخدعي ـ وتعالَي معنا، يا ديبو، أحتاج أن تساعديني».

وأكرهن جميعاً على الذهاب معه.

على اليمين مائدة بأنواع من النبيذ وخمور قويّة وقدر هائل من الطعام.

أخذ أوللي أولاً، وقد أغرته ديبو، فدامت عربدته الوحشية أكثر من ساعة. وحينما دُحرجَ رأس أوللي المقطوع أخيراً على الأرض مُثقلاً، سكنت خواطره. وكان قد استُنفد كلياً، فترنّح نحو المائدة ليرتاح.

ودّ أن يطيل لوعة جوستين في التوقّع. لم يكن مستعجلاً؛ فأثقل في شرابه مع ديبو لينعش طاقتيهما. جلسا طويلاً إلى المائدة يتخمان نفسيهما بكثير من الطعام والنبيذ، وهو يمرح بينه وبينها، حتى انقلبا أرضاً في النهاية من غلَبة السُكر. اختطفت جوستين، وهي ترى ذلك، بعض ما كان في متناولها من ملابس، وقد تصادف أنها تخصّ مدام

ديبو، واندفعت بجنون نحو السلالم. كانت تتعثر فتقع في العتمة ما بين الحجرات الطويلة الفارغة؛ ومن جانب الممرّ الآخر سمعت باباً يُصفَع، ووطء خطوات كئيبة على السجاجيد الثقيلة. توقّفَت متصلّبة تلتصق بحائط الحجرة في العتمة الفارغة، إلى أن مات صوت على البعد. وصلت أخيراً البوابة دون مقاومة تُذكر، فاتّخذت دربها عائدة إلى غرينوبل في أمان.

تأخّر الوقت بوصولها البلدة. لكنها مضت فوراً إلى حجرة فالبو ودقّت بابه. صحا مرتاعاً، فتح الباب وعيناه منتفختان من النوم، فظلّ يحدّق في جوستين بضع ثوانٍ حتى تعرّف عليها، من حالتها الزريّة عند دخولها ـ في وجهها تعبير مروّع، بينما ملابس مدام ديبو معلّقة عليها مفكوكة متهاوية. سألها عما حدث، فأخبرته بأنفاس لاهثة. قالت: «ألا تستطيع القبض عليها؟ فهي لا تبعد كثيراً من هنا وأظنّ أني أذكُر الطريق. الحقيرة! كما أخذت مني المال الذي منحتني إياه اليوم!».

«يا إلهي! تريز! أنتِ قطعاً أكثر الفتيات ابتلاء في العالم؛ هناك من يتقصّدكِ دائماً! لا، سنخلّي سبيل ديبو، للأسباب نفسها التي أخبرتكِ عنها اليوم. كلّما قلّ اختلاطنا بمن على هذه الشاكلة كان أفضل لنا. وعليكِ بالخروج من هذه البلدة. ها هو بعض المال الآخر؛ ما يكفي لشرائكِ بعض الملابس. والآن، نالي قسطاً من النوم ولا تنسي لقاء مدام برتران صباح غد. تصبحين بخير، يا تريز، وحظاً سعيداً».

«يا لكَ من رجل فاضل...».

«آه... تصبحين بخير، يا تريز، تصبحين بخير... حظاً سعيداً...».

الفصل الثاني والعشرون

غادرت جوستين غرينوبل اليوم التالي باكراً. على الرغم من أنها لم تجد في تلك البلدة السعادة التي ظلّت تتخيلها دائماً، إلا أنها تلقّت فيها على الأقلّ الشفقة أكثر من أيّ مكان آخر، وفي ذلك عزاء كبير.

سافرت مع مدام برتران في عربة مغلقة صغيرة يقودها جواد واحد. وكانت برتران امرأة بغيضة، شكّاكة، ثرثارة، نمّامة، تقلقل المتاعب، ضحلة العقل، وتُرضع وليدة عمرها حوالي خمسة عشر شهراً. ظلّت الأمور بخير حتى وصلتا ليون، حيث كان على برتران التوقّف ثلاثة أيام لتنفيذ بعض صفقاتها التجارية.

واجهت جوستين في هذه البلدة أبعد ما لم تكن تتوقّعه. مع فتاة من الخان، ترجّت أن تصحبها، وقد صادفتها وهي تمشي قرب واجهة البحر. كان يوماً مشرقاً صافياً وظلتا تتمتّعان بشمس الظهيرة وهما تراقبان حشد العابرين في تكاسل. لمحت فجأة أمامها بمسافة قصيرة كاهن محفل موتا، دوم أنتوني. يمشي نحوها منتعشاً منتصباً ومبتهجاً، فلم تستطع تفاديه. انحنى مهيباً يبادرها بالكلام في كياسة بصوت خفيض ناعم متملّق.

«تريز، كيف حالكِ يا طفلتي؟ لمَ كان هروبكِ اللطيف هكذا؟ لم يكن مليحاً هروبك منا، يا طفلتي، كما فعلتِ! ومَن هذه الحبيبة...»، ووجّه نفسه لمن ترافق جوستين، فمسك ذقنها بصورة أبوية.

أخبر جوستين أنه صار راهب النُّزل الأول للطائفة الشامانية في البلدة. كما أضاف بصوت خفيض أنها خاطرت كثيراً، فقد يُعيد محفل بورجاندي أسرها لو أرسل لهم مجرد كلمة منه. لكنه وعد بألاّ يفعلها لو جاءت مع صاحبتها لرؤياه بمقره الجديد. أصرّ على المجيء معه مباشرة، فقد تواجهان مشقّة فيما بعد وهما تفتّشان وحدهما عن المكان، فمن الصعب الوصول إليه.: «ستُؤجَران جيداً، يا تريز. إننا عشرة بالنُّزل، وأعدكِ على الأقلّ بفرنكين من كلّ منا».

استحت جوستين من العرض، وحاولت أن تجعل العاشق المتعبّد يظنّ بأنه مخطئ؛ لكنه لم ينفر. ومع رفضها المتكرّر أن تتبعه، اقتصر أخيراً على طلب عنوانيهما. وللتملّص منه أعطته جوستين الرقم خطأ، فدوّنه بدفتر في جيبه. غادر، مؤكّداً لهما أنه سيراهما قريباً.

لدى عودتها إلى الخان أوضحت جوستين لصاحبتها، قدر المستطاع، شكل معرفتها بالراهب. لكن ما قالته لم يُرض الفتاة، فقالت: «أظنّه جذاباً إلى حدّ بعيد!»، والأكثر احتمالاً أن الفتاة كانت مهتاجة، فقد حُرمَت من فضيلة جوستين وتودّ مغامرة تجلب عليها النفع واللذّة ـ حيث كانت تثرثر وتنمّ بذلك إلى مدام برتران. وكانت برتران مستاءة من فضيلة جوستين، أو نقيصتها كما قد نقول، فبدأت تتغذّى ضدّها بتذمّر عالٍ.

غادرتا ليون في وقت متأخر فوصلتا فيلفرنش حوالي السادسة مساء. كان أمامهما رحلة طويلة ثاني يومٍ، فتشجّعتا لتناول العشاء حالاً ثم النوم مباشرة.

بعد ساعات من خلودهما للفراش، استيقظ الخان على دخان ملأ الحجرات بسرعة. انتشر الحريق، فأشرعت جوستين ومدام برتران،

نصف عاريتين، بابهما بعنف. كلّ ما حدث أنهما سمعتا انهياراً مُصمّاً من الحوائط المتهاوية، وطقطقة أخشاب تنهار من وقع النيران، وصرخات مدوّية ممن يفزَعون طلباً للنجدة. كان الرعب يضربهما بينما تهدر النيران من كلّ ناحية، فاندفعتا كيفما اتّفق حتى انضمّتا إلى زُمر الخلق وهم يحاولون الخروج، شبه عراة وبحالة هستيرية. تذكّرت جوستين حينئذ أن مدام برتران نسيت وليدتها بالحجرة، فركضت عائدة، التقطتها، حاضنة إياها لصق ذراعيها. كانت النيران تهتاج أشدّ اشتعالاً؛ فاحترقت بأكثر من موضع وهي تراوغ كُتل الجصّ والخشب المنهار، ريثما تفرّ عائدة بالطفلة بين ذراعيها حيث كانت مدام برتران ضمن الحشد نفسه من الرجال والنساء المتدافعين. حاولت أن تخطو فوق لوح نصف محترق، فزلّت قدمها، وباندفاع طبيعيّ ألقت جوستين يديها أمام وجهها، فأفلتت الطفلة. انسلّت من قبضتها، تحت أنظار أمها، فسقطت محترقة نحو أنقاض جيّاشة متهاوية ثقيلة. إنطلقت صرخة مفزعة، بينما أحسّت جوستين بمن يسحبها للخارج. ظنّت في الفوضى العمومية أنها ستُشدّ نحو الأمان؛ لكنها وجدت نفسها ملقاة في عربة حيث حفرت امرأة غدّارة بين أضلعها، حين استجمعت فطنتها تعرّفت إلى مدام ديبو وهي تحدّق فيها مهدّدة: «أنتِ يا قحبة! لو تفوّهتِ بكلمة سأفجّركِ من مقعدكِ! مسكتُكِ الآن، ولن تفلتي مني ثانية!».

قالت جوستين، مذهولة: «أنتِ هنا، سيدتي؟».

«كوني على ثقة بأني هنا! وهذه النيران من فعل يديّ. بالحريق أنقذتكِ من السجن ونجّيتُ حياتكِ، وبالحريق تخسرينها! كنتُ في طرادكِ حتى للجحيم! كدتُ أن أنالكِ في ليون ـ ثم فقدتكِ! لكني اقتفيتُ أثركِ على الفور ثانية! وصلتُ فيلفرنش فيما بعد ساعة من وصولكِ. عرفتُ أنكِ في هذا الخان، فجعلتُ رجالي يضرمون فيه

النار. صمّمتُ على نيلكِ حيّة أو ميتة! سأعود بكِ إلى سموه. فقد هاج حين هروبكِ. إنه ينفحني ألفين عن كلّ فتاة أجلبها له. وجُنّ فلم يدفع لي ثمن أوللي. لن نخرج من العربة حتى نصل منزله. وسألقّنكِ درساً على سرقة ملابسي! جرّبي واهربي، يا قحبة!». ظلّت مدام ديبو تردّد ذلك مهتاجة، بينما كانت الجياد تخبّ على الطريق بسرعة.

الفصل الثالث والعشرون

قرب وصول دوفيني، باغتهم ستة من قوّة شرطة، كانت تطارد عربة مدام ديبو، وبالمسدسات في أيديهم، أمر السائق بالتوقّف.

سألتهم مدام ديبو هادئة بصفاقة إن كانوا يعرفون مَن سيقبضون عليه، وبأيّ حقّ يعاملون امرأة في منزلتها هكذا.

قال الضابط: «لم نتشرّف بمعرفتكِ، سيدتي، لكن نظنّ معكِ فتاة في عربتكِ أضرمت النار أمس بأكبر خان في فيلفرنش. ها هي أوصافها، سيدتي»، وواصل التحديق في جوستين: «لا أظنّ أني مخطئ. سلّميها إلينا، وعليك تفسير رؤية امرأة في منزلتكِ مع شخص بهذه الخطورة».

قالت مدام ديبو: «لا شيء في ذلك حقاً، لي تفسير بسيط. كما ترون، فقد وقفتُ أمس عند خان فيلفرنش نفسه. ورحلتُ وسط الفوضى؛ لكن وأنا أدخل عربتي اندفعَت نحوي هذه الفتاة ترجوني المساعدة. قالت إنها فقدت كلّ شيء في الحريق، وطلبت أن أوصلها إلى ليون. فشعرتُ بالأسى عليها، وكرهتُ أن أرى صغيرة بائسة وهي مقطوعة مفلسة. كما ترون، سادتي، فإن قلبي يستعمل أفضل ما في عقلي، لكني نادمة على ذلك الآن. آه، وقد عرضت عليّ، بالمصادفة، خدماتها. ثار في ظنّي أني أستطيع توظيفها، فجلبتها معي إلى دوفيني حيث قصر عائلتي. درس جيد لي، وسأفيد منه. وها هي، خذوها، سادتي. سيُسعدني ألاّ يتورّط شرف اسمي في هذا الأمر المشين، أليس

كذلك؟ نعم، أشكرك، سيدي».

حاولت جوستين الدفاع عن نفسها وفضح مدام ديبو؛ لكن بدت كلماتها اتّهامات مضادة مُفتراة، كنستها مدام ديبو جانباً بازدراء متعجرف. ثم زعق فيها الضابط: «هدوءاً، يا ساقطة!»؛ فصمتت للتوّ. أنّى لامرأة مثل ديبو، بهذا الاستعراض للثروة، وتنحدر من عائلة ثرية تملك قصوراً بهية، أن تكون مذنبة بجريمة لا يبدو لها فيها شروَى نقير؟ وألم يكن كلّ شيء على النقيض ضدّ جوستين؟ فهي نكرة؛ مفلسة ـ واضح أنها على خطأ. علاوة على أن الضابط قرأ شكوى مدام برتران؛ فهي تتّهم جوستين. تقول الشكوى إن جوستين أضرمت النار في الخان لتسرق مدام برتران على راحتها، وقد فعلتها حتى آخر بنس؛ كما ألقت ما قيل إنها طفلة مدام برتران في النار لتصرف انتباه مدام برتران عن متابعة مناوراتها. وأضافت الشكوى إن جوستين، فوق ذلك، مومس معروفة، فرّت من المشنقة في غرينوبل، حيث تحمّلت مدام برتران المجازفة في حمق بأخذها على مسؤولية شاب هناك بمسقط رأسها ـ وهو أحد عشاق جوستين، قطعاً؛ فضلاً عن مبادرة جوستين جهاراً نهاراً لغواية كهنة ليون، إلخ، إلخ.

فاستعدّوا لتصفيدها. قالت جوستين قبل أن تدعهم يأخذونها: «لكن، يا سيدي، بفرض أني سرقت مدام برتران، فالمال إذن معي. فتّشوني».

ضحك منها الضابط. فهو موقن، كما قال، أنها شريك في الجريمة مع من سلّمته المال قبل الهرب: «عموماً، بلّغي هذا للمقدّم. خُذوها يا رجال!».

وانحنى الضابط كثيراً إلى مدام ديبو قائلاً: «نعتذر في تواضع جمّ لإزعاجكِ، على هذا النحو، سيدتي».

وبينما كانت قوّة أخرى تسحب جوستين، دون لغط كثير، للخروج من العربة دسّت مدام ديبو في يد الضابط بضع عملات، فانحنى ثانية. صار أكثر ودّاً وخنوعاً بينما بدأت مركبتها تشرد مبتعدة.

وصلت القوة على التوّ إلى ليون مع سجينتهم. وأُخضعت بالسجن لفحص عميق.

كان الدليل أن النار أُضرمت في مخزن التبن، حيث أقسمت جوستين أن أشخاصاً دخلوه مساء الحريق، وكان صحيحاً؛ كما أكّدت جوستين. لكن وضّحت أنها وهي تبحث عن الحمّام، سألت خادماً بالخان، فوجّهها على نحو فاضح إليه. فكان أن صعدت العليّة، ولأنها لم تجد ما تفتّش عنه، ظلّت هناك طويلاً بما يكفي لتبرير الشكّ. بدا الأمر كلّه غامضاً غير مُرضٍ. فهم على يقين من أنها ليست جريمتها الأولى؛ فقد عثروا لدى فحصها على العلامة التي وسم بها كتفها رودان. انتفى أيّ شكّ آخر، فأُلقي بها في زنزانة السجن، ودخل اسمها سجلّ المساجين بتُهم: الحرق العَمد، الدعارة، قتل الأطفال، والسرقة.

❑ ❑

وحدها في الزنزانة، تتساءل ممّن في هذه البلدة تطلب المعونة. هلّت في بالها أسماء كثيرة، لكن معظمها غرباء، قد يتبرّمون بمناشدتها إياهم، ناهيكَ عن ضيقهم من معونة أمثالها. بدت خَلواً من وسيلة تخرج بها من هذا المأزق؛ وكلما فكّرت فيما هو مُتاح أمامها، بدت أكثر عجزاً. ثم طرح اسم دوم أنتوني نفسَه على بالها، فبدا وكأنه شعاع أمل؛ لكن حين فكّرت بدقّة أكبر غار قلبها في اليأس. ثم وثب ثانية؛ فمهما كانت المقاومة الطفيفة التي تتوقّعها منه، إلا أنها فرصتها الوحيدة وستقامر بها؛ ولم تجد مناصاً. نعم، قد يساعدها، من خارج

حدود الشفقة. فطلبت استدعاءه.

جاء دوم أنتوني متظاهراً بأنه لا يعرفها. لكنها دلّت الحارس أنه قد لا يذكرها في الواقع، فقد قوّم ضميرها وهي جدّ صغيرة؛ وأنها الوسيلة التي تفتّش عنها لبدء حوار معه. فرضي الحارس أن يتركهما وحدهما.

بمجرد أن انفردَت بالكاهن سقطت على قدميه، وبدمع غزير رجته تذليل الورطة التي وقعت فيها. حاولت إثبات براءتها إليه؛ ولم تستبعد العروض الشريرة التي قدّمها لها منذ أيام قبل أن تدور عليها مدام برتران، صاحبة الاتّهام الآن.

سمعها بانتباه شديد، وببطء هزّ رأسه مستنكراً من جانب إلى آخر. ثم قال: «لا تنفعلي كثيراً، يا تريز، كالمعتاد. فالقضية تتلبّسكِ، يا ابنتي العزيزة. وأقول، إنكِ ضائعة ـ هذا واضح! فالشواهد كلّها ضدّكِ، والواضح أكثر أنكِ تُدانين حيث لا مال معكِ ولا أحد يعرفكِ. لكن امنحيني الفرصة... آه، هناك شيء واحد قد ينقذكِ. فأنا على اتصال حميم مع كبير القضاة، وله نفوذ بالغ على قضاة هذه البلدة. سأبلغه أنكِ ابنة أختي، وسأطلب إرسالكِ لعائلتكِ. وسيتولى شطب القضية من المحكمة. ثم، أنقلكِ غصباً. لكن إلى محفلنا، حيث تُحبسين ـ فاهمة يا تريز...».

فصرخت: «اغرُب! أنتَ وحش... تنتهز موقفي هكذا!».

قال، متّخذاً وضع رحيله: «الأمر إليكِ، صغيرتي. فلم أسع إلى ممالقة أحد لأسعده».

وبينما يمضي خارجاً سحبت جوستين نفسها إلى ركبتيه ثانية فرَجَته في مناشدة أن يُعينها دونما هذه الشروط. ومن ضراوة انفعالها تهتّك صدرها قليلاً، فبانت قمّتَا ثديَيها ريّانتين، وقد بلّلتهما الدموع وطفا

عليهما شعرُها المشعّث، مما زاد هياج عاشقها المتعبّد. فشدّها للوقوف على قدميها؛ ورمى بنفسه طائشاً معها على فراشها القشّي الرثّ. حاولت الصراخ، لكنه أقحم منديلاً في فمها فأخضعها تماماً...

قال، ناهضاً يستعيد نشاطه: «اسمعي يا صغيرتي، يؤسفني قولكِ إنكِ لا تريدين مني معونة. لكن لو فُهتِ بكلمة عمّا حدث الآن، فسأُبلغهم أنكِ التي حاولتِ غوايتي، وسيُصدّقونني، فاهمة!».

ونادى الحارس فأخبره: «هذه الحمقاء مخطئة. تقصد دوم أنتوني الذي يقطن بوردو. وأنا لا علم لي بها، ولم ترها عيني قطّ. لكنها رَجَتني سماع قصّتها، ولبّيتُ طلبها. يوماً طيباً، سيدي».

❑ ❑

ضاع أملها الأخير، فصارت أشدّ مرارة وكآبة ولامبالاة بمصيرها؛ ولم يعد يهمّها شيء. لكن بعد ساعة من حصيلة لقائها دوم أنتوني، اعتملَت فكرة أن تُدان من قِبل الهيئة القضائية بضغينة روحها. دونها كلّ شيء ـ تفضّل أيّ حاصل على العار العام؛ فدفعها النفور من هذا العار العام للتفكير في فلورن. وعلى عجَل استلهمَت فكرة؛ فبدت للعيان أمامها الحريّة، من فعل جيشان أملها المتصاعد. نعم، ستتّصل بفلورن، وهو النافذ في هذا المجتمع، وستقبل عرضه الذي سيُدخلها فوراً نطاق خدمته، لو رضي بتذليل ورطتها مع السلطات. تتظاهر في البداية بدخولها نطاق خدمته، وفيما بعد تهرب في أمان بعيداً عن متناوله؟

تدبّرت مواد الكتابة وسطّرت رسالة يغلّفها مزاج الغموض إلى فلورن، تطلب منه المجيء ليراها؛ ولم توقّع اسمها.

حين وصل فلورن السجن، حيّوه بتقدير عميق. دخل زنزانة جوستين فأجفل، قال بنُبل كبير مُرتَجل: «أوه، أنتِ! أخطأتُ رسالتكِ ـ فكّرتُ أنها من غير... لم أتخيّل مَن؛ لكن بلهاء مثلكِ... ماذا

تريدين؟ فأنتِ مذنبة بألف جريمة، لكن حين عرضتُ عليكِ فرصة نيل خبزكِ بشرف رفضتِ بحماقة!».

قالت بهدوء: «لستُ مذنبة، سيدي!».

«لستِ مذنبة؛ إن لم تكوني مذنبة فمن يكون! أول ما قابلتكِ كنتِ ضمن عصابة من قطاع الطرق أرادوا قتلي؛ والآن أراكِ في سجن - أحبّ أن أعرف ما في ضمير إنسان هذه الأيام ليصبح مجرماً!».

حاولت جوستين أن تستعطفه. فقالت إنه يسعدها الآن قبول العرض الذي قدمّه لها ذات يوم؛ وستعي واجباتها نحوه إن أطلق سراحها.

نظر إليها فاحصاً متأمّلاً دقيقة، ثم قال: «آه، سأرى ما يمكن فعله. فقضيتكِ ستصل أمام القاضي كردفيل؛ تستقرّ بين يديه. وهو صديقي المقرّب، وقد أديتُ له خدمات جليلة. سأكلّمه في شأنكِ».

وحينما راح دون أن يؤذيها، كانت جوستين بمنتهى السعادة مفعمة بالأمل.

جاؤوا بها للاستجواب ثاني يومٍ أمام القاضي كردفيل. كان كردفيل فوق الخمسين بسيماء عابسة صارمة. ضخم على غير المألوف، لكن طبقات السمنة على شخصه منحته عطفاً لا تُخطئه العين، كالهيبة الغَرور لدبلوماسيّ مهم، أو لشخص مرتبط بمسؤول رسميّ.

هناك أكثر من مئة شهادة خطّية مُحلّفة ضدّ جوستين؛ وبعد فرز التهمّ عياناً وفقاً للقانون، سأل القاضي كردفيل جوستين إن كانت تعرف، على نحو خاصّ، مواطناً ثرياً في ليون يُدعى السيد فلورن، أحد كبار المدينة. فردّت جوستين أعرفه.

قال السيد كردفيل: «جيد! هذا كلّ شيء. هذا السيد فلورن،

الذي اعترفتِ بمعرفته، يعرفكِ أيضاً؛ وقد حلف بأنه رآكِ بين عُصبة لصوص، حيث كنتِ أول من سلبه ماله ومحفظة جيبه. ودّ رفاقكِ إنقاذ حياته ونصحتهم بالعكس؛ لكنه وفّق بالهرب. كما أضاف السيد فلورن نفسه إنه تعرّف عليكِ، بعد سنوات، في ليون، وسمح لكِ بالمجيء للاعتذار إليه في منزله على وعد بالسلوك القويم؛ وبينما كان يعظكِ، هناك، يسعى لقيادكِ نحو الصراط المستقيم، اخترتِ في تلك اللحظات القدسيّة أن تسلبيه ساعته ومائة فرنك كانت ملقاة فوق رفّ المدفأة!».

صُعقَت جوستين من فيض هذه الاتهامات المفرطة، فلزمت صمتاً مشدوهاً حتى أمر القاضي كاتب العدل بتسجيل اعترافها بهذه التهم جميعاً، إيعازاً من صمتها وتعبيرات وجهها. وهكذا مضت القضية بمعدل كبير، فأُدينت جوستين بسرعة فائقة؛ ثم كان عليهم نقلها باريس لتنفيذ الحكم.

الفصل الرابع والعشرون

في الشطر الأخير من الشهر تُؤخَذ جوستين إلى باريس. فلا تزال هناك رسميّات قبل تنفيذ الحكم بإعدامها.

طيلة المحاكمة وفترة احتجازها في سجن البلدة، ظلّت محور النميمة في ليون والقُرى الصغرى قُربها. يتأسّون على الزمان الرديء، حيث يتساقط أهل التقوى. ولم تكن النسوة في حجرات الضيافة المتأنّقة متشدّدات، لكنهن يتناقلن فيما بينهن الانتقاص من آلية العدل الخرقاء التي تؤخّر طويلاً جلب مثل هذه المجرمة الخطرة المتهتّكة إلى حتفها؛ لا يتصوّرن كم سيطول سراحها، وهي تتسكّع في ربوع البلدة، متمتّعة بجرائمها، في النهب والدعارة.

تجمّع ذات يوم، بداية الظهيرة، حشد مُعادٍ أمام سجن البلدة لمشاهدة المجرمة سيئة السمعة وهي تُقاد وسط المساخر في حافلة كبيرة نحو باريس. تلبس جوستين سُترة رثّة قصيرة، ملتفّة حتى حاجبيها بشال كبير حريريّ داكن. كانت مكبّلة متهافتة، وقد أوشكت على السقوط قبل أن يسندها الحرس. استحثّ السائق بسياطه الجياد، وبدأت الحافلة مُضيّها مبتعدة، فتنفّس الحشد الصُعداء بإحساس من أمان كامل.

في الحافلة مسافرون آخرون، جنب جوستين وحارسَيها، إلى باريس وبلدات أُخر متباعدات، هي الكثرة المألوفة المنوّعة نفسها من الرجال والنساء المُجمّعين من شتّي دروب الحياة، كما نراهم عادة في

أيّ ناقلة عمومية.

الطرق سيئة، والجياد تلقَى مشقّة بالغة في اجتياز دروبها. لكن اليوم رائع والشمس دافئة على نوافذ العربة، حتى تململ عدد من المسافرين وقد نفد صبرهم، مُهمَلين محشورين بجوّ الحافلة الحميم مع مجرمة سيئة السمعة، يشرُعون في الدمدمة من التأخير الطويل.

قُرب المساء، بُعيد مسافة من مونتارج، انخلع محور عجلة الحافلة، فكان عليهم الركون جنب الطريق. قام السائق وتابعه بإصلاحه مؤقّتاً قدر المستطاع، ثم دحرجوا العربة في مشقّة حتى خان عند مونتارج. ركب أحدهم عائداً على جواد لإحضار عربة أخرى، فأُجبر المسافرون على التوقّف ليلة بالخان.

كانت التسلية طبيعية أن يُشاهَد ناس يترجّلون من حافلة؛ وريثما تفرغ العربة من مسافريها تحلّق نزلاء الخان في الفناء أمام بابه، متهامسين وهم يتأمّلون هذه النوعية من المترجّلين: يرتقبون كالعادة ضابطاً، وبضعة كهنة. ارتُجّ الجميع فور خروجهم من الحافلة وبدا أنه لم يعد فيها أحد؛ حتى شوهد خارجاً رجل من قوة الشرطة، تسلّم بين ذراعيه من رفاقه شابة مجرمة مصفّدة، شاحبة حدّ الموت. عاد النزلاء صامتين في أسىً، وصرخة من الحشد: «أوه!... يا ربّي!...». اندفعَت سيدة فائقة الجمال، متأنّقة ثرية على آخر موضة، تبدو من الطبقة الراقية، فهزّت جوستين من كتفيها وهي تحدّق في وجهها عن قُرب. تصرخ، ناحبة: «أنتِ، جوستين... أختي العزيزة... أنتِ! ألا تعرفينني؟ ألا تعرفين أختكِ، جوليت!».

لم تتعرّف على أختها جوستين في البداية؛ فلم ترها من سنين. لكن جوليت عيّنتها تواً، فهناك ما يصعُب تحديده في وجه جوستين، لكن لو رأيته مرة فلن تنساه ثانية قطّ ـ يصعب القول، سواء كان تعبير

حزنٍ غريب بعينيها البديعتين الوسيعتَين، أم طريقتها المؤسّية في مسك رأسها؛ عموماً، لها سيماء حنون، ولا ينسى المرء أيّ سيماء حنون.

حين اندفعَت جوليت نحو جوستين، تبعها قُرب كعبيها سيّد نبيل جليل، يبدو زوج جوليت. هو السيّد هكتر دي كورفليه، وزير الدولة النابه، مَن طبّقت شهرته الآفاق. كشف هويته إلى الحارسَين فأمرهما بفكّ جوستين، قائلاً إنه سيتولّى على مسؤوليته أمرها. يعرفه الحارسان جيداً، وكذلك الآخرون تقريباً، ومن رَوع سلطته العالية، امتثلا لما أمرا به.

أخذ السيّد دي كورفليه وجوليت إلى داخل الخان جوستين، صعوداً للدور العلويّ إلى حجرتهما. جلبا لها بعض الحساء وشيئاً تأكله. طمأناها أن ترتاح فتأخذ قسطاً من النوم، وفي الصباح سيأخذانها معهما إلى بيته في باريس، وسيبذل السيد دي كورفليه مساعيه لتبرئة جرائمها.

مضوا باكراً في حافلة خاصة. وطيلة الطريق، بين مزيد من النشيج، انطلقت جوستين تحكي لأختها عما صادفته من مآسٍ وبلايا.

الفصل الخامس والعشرون

بين يدَي أختها استعادت جوستين نفسها من جديد، وكان أن امّحت سريعاً من بالها ما مرّت به من تجارب أخيرة.

قام السيّد هكتر دي كورفليه بعمل تحقيق مفصّل عن ممارسات القضاة ووسائلهم المحتالة عديمة الضمير، وكذلك المسؤولين الأصغر. وأثارت فضائحه وكفاءته خميرة من السُّخط الأخلاقيّ. فتّحت الأمة عينيها دهشة من تعيّن هذه الأحوال، ولو أنها موجودة من زمن سحيق، فأنشأوا جلبة عظيمة لتبنّي حملة تنظيف عامة للبلد. قدّم السيد دي كورفليه في المجلس التشريعيّ خطاباً كان قمّة الإنجاز في مهنته، خطاباً سيخلّده حتى آخر الذريّة، التي ستعتبره عيّنة من ألمع خطباء العالم. خطاب كان يجمّع قوّته الدافعة كلّما يتقدّم، ثم يصل ذُراه عند الخاتمة، حيث يقول: «يا أصحابي، إن يُنوع الجريمة كالرعد، نيران خدّاعة تزيّن الجوّ لحظة، لكن لتندفع إلى جحيم الموت، فهي تُبهر التعساء فقط!». خطاب جلب الفزع تقريباً. وبدا محتّماً أن السيد دي كورفليه قد يصبح تالي رئيسٍ للجمهورية الجديدة، لكن هذه القمّة التي رُقّي إليها راحت في الأسابيع التالية.

فقد ذاع هذا الطقس الأخلاقيّ الذي التفّ به كالعدوَى إلى خليلته، جوليت، فأخبرته عن عزمها هجرَه، حيث يعيشان الخطيئة ولا تجمع بينهما رابطة الزواج القدسيّة. ترافع ضدّها، قال إن الوقت لم يتأخّر ليعوّضها عما فات، وهيا نذهب الآن مباشرة للقسّ. قالت إنها

ستمحّص الموضوع قدره من الفكر، بعد أن كانت نوَت الانسحاب إلى الدير. منذ اجتمع شملُها مع جوستين، أحالها الندم على حياتها السابقة إلى بائسة؛ وحينما طالعت بالصحيفة تلك الفقرات المطبوعة من خطاب السيّد دي كورفليه، قررت ألاّ تضيّع دقيقة من وقتها لدخول الدير والتكفير عما ارتكبته من مخازٍ فيما سلف من حياتها.

كانت حياتها مُخزية حقاً. فبعد تركها جوستين من سنين، انطلقت تسوح في العالم رأساً بموارد لا تزيد عما لدى أختها الصغيرة. لكن بعد وقت قصير نسبياً أصبحت امرأة ذات لقب، تملك دخلاً يُقدّر بمئات الآلاف، جواهر فخمة، مجموعة قصور بضواحي الريف والبلدة؛ كما تملك حالياً قلب وجيب دي كورفليه، وزير الدولة، ذي النفوذ والسلطان الهائلَين، مَن قد يصبح قريباً المواطن الأول في البلاد.

مع ذلك، فموقفها شائن، لا يشكّ أحد في هذا؛ حيث تمارس أقسى مهنة لفتاة يمكن أن تشقّ بها دربها وتجلّلها بالعار.

كانت بدايات جوليت وضيعة. فقد ذهبت، بعد تركها جوستين، إلى امرأة في الحيّ ذات مهنة معروفة جيداً، دنَت منها وصُرّتها الصغيرة تحت ذراعها، بفستان أزرق ممزّق من ظهرها، وشعرها أشعث، لكن بأجمل قوام على الأرض.

«كم عمركِ؟» سألتها مدام هانزكليفر، وكانت امرأة من أصول مختلطة.

فردّت جوليت بوقاحة: «ستة عشر عاماً بعد أيام قلائل، سيدتي».

«ولم يحدث...».

«أوه، لا، سيدتي، أحلف لكِ!».

قالت السيدة: «أحياناً في هذه الأيام... ـ ولد، صاحب، رجل

غاوٍ، تعرفين... أريد إثباتاً أكيداً».

ردّت جوليت، في خجل: «تثبّتي بنفسكِ، سيدتي، فالأمر بسيط...».

ربّتت مدام هانزكليفر على النظّارة، ولدى تحققها بوضوح ودقّة انفكّت أساريرها، قالت لجوليت: «تعالي، يا صغيرتي، سأُبقيكِ هنا معي. وإن كنتِ طيبة، وامتثلتِ لنُصحي، ونفّذتِ ما أقول، فأنتِ بعد عشر سنين امرأة ثرية، تتولّى أمر نفسها».

أخذت مدام هانزكليفر صرّة جوليت، وسألتها إن كان مع الصغيرة أموال. فأومأت؛ وطلبت السيدة ما معها بدعوى ادّخاره لها ذات يوم، لأن الصغير الذي يحمل مالاً شرّ، كما يودي به للشرّ، والغواية.: «كلّه لكِ، يا عزيزتي!». ونفحت جوليت عظة طويلة؛ ثم قدّمتها إلى رفيقاتها بالنُّزل نفسه. لفتت انتباهها الحجرة التي ستشغلُها. وثاني يومٍ باشرت مَهمّتها.

بيعَت عفّتها، في أربعة أشهر، لما لا حصر له من الرجال. قنع بعضهم بشمّ الوردة، أما الآخرون، الأغنى أو أكثر شغفاً، فحاولوا تفجير ميسم الوردة. لكن كلّ ليلة كانت مدام هانزكليفر تسوّي الأشياء فتستعيد نظامها، وظلّت أولى الأزهار طيلة الأشهر الأربعة هي ما تعرضه هذه المحتالة على الجمهور.

نالت جوليت، نهاية هذه الفترة من الرهبنة العصيبة، امتيازات امرأة عِلمانية، ومنذئذ عُرفت حقاً كخادمة للمنشأة وشاطرتها الأفراح والأتراح.

ثم دلف الزهو والطموح إلى روح جوليت، فأحسّت بضرورة الانعتاق للخلاص من وهَن وظيفة ثانوية. واشتاقت لغزو مجالات أكبر.

في البداية دفعها لورد عجوز فاسق إلى المهنة بعد نيل لحظة معها أسعدته كثيراً، وتوصّلت بمهارة لدخول أمجاده العظيمة. ظهرت على الفور في جوّ من الأبّهة بأجمل المهرجانات التي تُقام في الساحات المتأنّقة، وهي الأماكن التي يتردّد عليها النُخبة. أثارت الإعجاب والرغبة، فكانت محطّ الدعوة. وفي أقلّ من أربع سنوات حطّمت ستة رجال، أبأسهم يقارب دخله المليون. واعتباراً من ذلك الوقت، وطّدت مكانتها، وأمّنت مركزها الاجتماعي بصرامة.

بوصول جوليت عامها العشرين جُنّ بغرامها الكونت لورزنج، وهو نبيل معروف في الخمسين من عمره، حتى لقد وهبها اسمه ومنحها دخلاً يُقدّر بمئة ألف، وقصراً، وخدماً وحشماً، وقيمة عالية في المجتمع فبان ظهورها ملحوظاً. لكن رغبتها أخيراً في التمتّع باسمه وثروته وحدها، وفّقتها إلى قتله.

أصبحت حرّة، كونتيسة، أرملة ثرية تلعب دوراً أكبر في ملاهي المجتمع. فكانت تُقيم حفلات عشاء رائعة، ولا يسعد بدخول منزلها إلا أعالي النُخبة. وهكذا نالت قيمة عالية كامرأة موقّرة، مع ذلك تُؤخذ للفراش بمائتين، وتُزكّي شهرياً عن نفسها بخمسمائة.

وحتى الرابعة والعشرين، قامت الكونتيسة لورزنج بفتوحات باهرة. حطّمت ثلاثة سفراء أجانب، مصرفيَين، عدّة سماسرة، جنرالاً، أربعة وزراء خزانة، بل وعملت ألاعيب على الرئيس.

كانت هذه الحال مع مدام دي لورزنج، حين قُدّر للسيد دي كورفليه، وهو خمسينيّ ذو مقام عالٍ في المجتمع، أن يُضحّي بنفسه كلياً على مذبح هذه المرأة فيرتبط بها للأبد. بعد جهد معقول، برعاية مطّردة وإخلاص لا يكلّ، وفّق للنجاح، حيث عاش لصقها أربع سنوات قبل لقائهما جوستين مصادفة.

ولم يكن غريباً قطّ أن بدأت تنتاب جوليت هواجس مميتة عن صلاح روحها، حتى لازم السُّهد لياليها، فكانت تنسحب لتخلو بنفسها في توعّك، تُطيل النظر بنزواتها. ويصعب الحدس عمّا كان سيحصل لعقلها إن لم تقابل جوستين، أو لم يرطّب السيد دي كورفليه مشاعرها بكلامه المشبوب؛ عموماً، كانت بائسة، في تردّدها ما بين عاطفتها نحو السيد دي كورفليه وبحثها عن الخلاص في أحد الأديرة.

جرت حادثة درامية، بعد أسابيع، رسّخت الشكّ في عقلها، حتى قررت أخيراً قياد مستقبلها. كانوا حينئذ في الريف. وفجأة هلّ الحرّ على غير توقّع، فتجهّزوا للخروج معاً في نزهة طويلة، جوليت وجوستين والسيّد دي كورفليه. خلّوا النوافذ والأبواب المفضية إلى الشرفة مشرَعة على وسعها ليمرّ النسيم قليلاً من هناك. لكن طبقات كثيفة سوداء من الغمام بدأت تحتشد فجأة، ثم هبّت عاصفة عاتية. ومض البرق، ثم دوّى الرعد صاخباً، وهزّت الريح النوافذ عنيفاً، وتخلّعت الأبواب عن محورها. أثار الرعب جوليت، وهَن صوتها من هزيم الريح العاوي حولها في أرجاء المنزل، فصرخت إلى جوستين، وكانت قُرب النوافذ، أن توصدها بسرعة. فجاهدت تتعتع الريح التي كانت تسحبها للوراء، وحين وقَفَت جوستين لتوصد نافذة، ومض فوراً عبرها سهم أصمّ من البرق، فطرحها وسط قاعة الاستقبال. أضرم صدرها على التوّ ووجهها. كان منظرها مؤسّياً. فصرخت جوليت وغابت عن الوعي، وطلب السيد دي كورفليه النجدة، لكن دون طائل. رقدت جوستين هامدة على الأرض، وأحرقت آخر شرارة جسمها الذي أعوزته الروح.

أمر السيد دي كورفليه بإبعادها من الحجرة، لكن جوليت، وقد أفاقت، راحت تحتجّ في عزم: «لا، خلّوها تحت عينيّ؛ أودّ أن أُديم النظر إليها لأقوّي نفسي فيما عزمتُ عليه من قرار». تُركَت وحدها زمناً

تحدج جوستين، الراقدة على ظهرها، مُفحّمة رمادية. وظلت تنشج: «آهِ، يا جوستين... عزيزتي البائسة، جوستين العزيزة!».

❑ ❑

عزيزي القارئ، يُفعمني الأمل ان تستدرّ دموعكَ هذه الحكاية التراجيبية الفظّة من بلايا الفضيلة، لكن عساي ان انال العفو من جوستين التعسة البائسة عما جلبتُ عليها من مصائر مفزعة، وقد تجني انتَ من هذه الحكاية، على الأقلّ، الثمار نفسها التي جنتها مدام دي لورزنج. كلّي رجاء ان تقتنع، معها، ان السعادة الحقّة في حِضن الفضيلة. وإن كان الله قد سمح بان تُضطهد الفضيلة في الأرض، فليس لنا ان نستفهم عن مقصده. فعطاياه مؤجّلة إلى حياة اخرى، لكن لا يصحّ كما سُطّر في الكتاب المقدّس ان الله يُطهّر الخيّرين فقط! كما ان الفضيلة من عطاياه!

ملاحظة: مسطّر هذا الكتاب عجوز انيس انيق، مخلص للبيت والمدفاة، يحيا في كنف عائلة سعيدة، وينفر مما يفعله معظم شخوص هذه الرواية؛ ولا اراه يتماثل معهم قطّ في كلماتهم ومسلكهم.

للمترجم

دواوين

1 - طور الوحشة، جماعة أصوات، 1980.
2 - قبر لينقض، طبعة محدودة، 1991.
3 - على تراب المحنة، هيئة قصور الثقافة، 1995.
4 - فحم التماثيل، دار شرقيات، 1997.
5 - الملاك الأحمر، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2000.
6 - مخلب في فراشة، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2000.
7 - بكاء بكعب خشن، دار ميريت، 2003.
8 - خضراء الله، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2004.
9 - ملاّحُ، تحبسه الرماح (الأعمال الشعرية - ج 1)، مؤسسة الانتشار العربي، 2006.

ترجمات شعرية

1 - أشعار سودرجران، (بالاشتراك)، دار شرقيات، 1994.
2 - قصائد حب، آن سكستون، (ديوان)، المشروع القومي للترجمة، 1998.
3 - رباعيات مولانا جلال الدين الرومي، دار الأحمدي، 1998.
4 - الهايكو/ رحلة حج بوذية، (شعر ياباني)، مركز الحضارة العربية، 2000.
5 - رسائل عيد الميلاد، تيد هيوز، (ديوان)، المشروع القومي للترجمة، 2002.
6 - نهايات، ديريك والكوت، (شعر)، مركز الحضارة العربية، 2003.
7 - رسائل عيد الميلاد، تيد هيوز، (ديوان)، إبداعات عالمية، الكويت،

.2003

8 ـ كاس الألم، إديت سودرجران، (ديوانان)، مركز الحضارة العربية، 2004.

9 ـ أعشاش تحت القلب، (ديوان الشعر السويدي)، اتحاد كتاب الإمارات، 2004.

10 ـ جمهورية الوعي، (أشعار من 5 قارات)، مركز الحضارة العربية، 2005.

ترجمات روائية

1 ـ جاز، توني موريسون، دار شرقيات، 1995.

2 ـ فالس الوداع، ميلان كونديرا، روايات الهلال، دار الهلال، 1998.

3 ـ فالس الوداع، ميلان كونديرا، دار علاء الدين، دمشق، 2001.

4 ـ جاز، توني موريسون، دار علاء الدين، دمشق، 2003.

5 ـ الساعات، مايكل كننجهام، دار الحوار، سوريا، 2004.

6 ـ الساعات، مايكل كننجهام، روايات الهلال، دار الهلال، 2004.

7 ـ غرام، توني موريسون، دار الحوار، سوريا، 2004.

8 ـ فالس الوداع، ميلان كونديرا، مهرجان القراءة للجميع، هيئة الكتاب، 2005.

9 ـ في عشق جيفارا، آنا ميناندس، دار كنعان، دمشق، 2006.

10 ـ مذكّرات شخص، مايكل كننجهام، مؤسسة الانتشار العربي، 2006.

11 ـ جوستين، المركيز دو ساد، مؤسسة الانتشار العربي، 2006.

ترجمات قصصية

1 ـ مرآة الحبر، بورخيس، آفاق الترجمة، هيئة قصور الثقافة، 1996.

2 ـ كتاب الحواس، ايتالو كالفينو، مركز الحضارة العربية، 1999.

3 ـ شجرة مطر، (قصص معاصرة)، مركز الحضارة العربية، 2001.

4 ـ مرآة الحبر، بورخيس، دار علاء الدين، دمشق، 2003.

5 ـ أصل الطيور، (بالاشتراك)، (قصص إيطالية)، دار كنعان، دمشق، 2006.

ترجمات نقدية

1 ـ الخلاص بالحرية (مقالات عن الأدب العربي)، مركز الحضارة العربية، 2003 .

2 ـ الضوء المشرقيّ، أدونيس، (بالاشتراك)، دار بدايات، سوريا ، 2005.

3 ـ تخمينات عن الأدب العالمي، مركز الحضارة العربية، 2005.

جوستين

رواية مريعة تستحثّ العقل

هذه واحدة من أكبر الروايات الممنوعة على مدار الأزمنة. يُعتبر مؤلفها، المركيز دو ساد، من أكثر الكتّاب الملعونين في التاريخ، حيث يوسم بأنه منحرف، إباحيّ، منتهك للفضيلة، ومجنون. وإن نشر رواية «جوستين» في طبعة كاملة متاحة للجميع خطوة أخرى نحو الحرية الفكرية للقارئ. كان ساد فيلسوفاً، غريباً نوعاً، فاحشاً نوعاً. لكن يستحق أن نسمعه ـ وحانت فرصته أخيراً.

إن نشر «جوستين» في هذا الوقت، لهو حدث ثقافيّ هام.